الموت .. وأحوال القيامة

للإمام حجة الإسلام أبى حامد محمد الغزالى

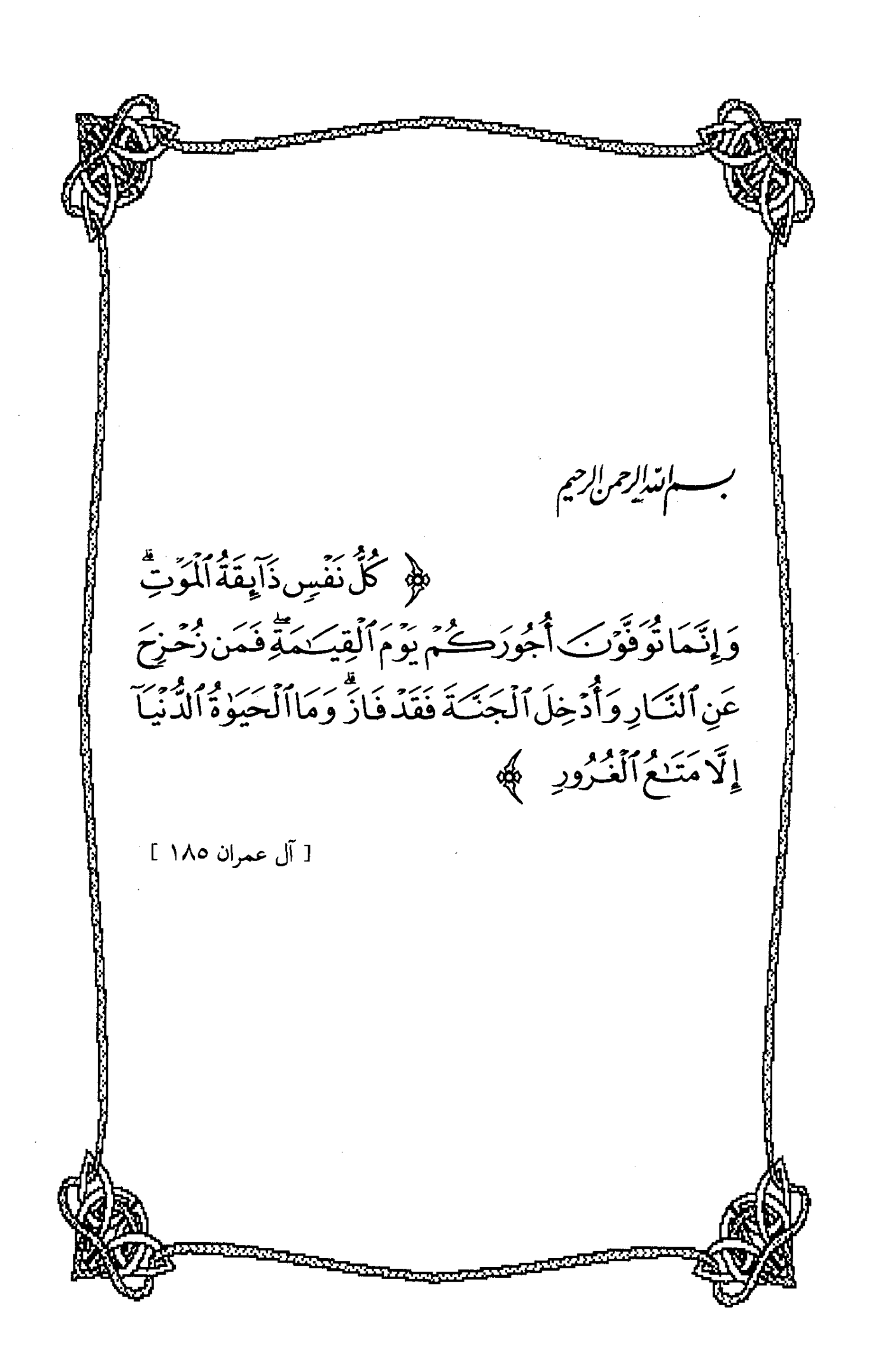
المتوفى سنة ٥٠٥ هـ الموافق سنة ١١١١ م

تحقيق

الدكتور / عبد الحى الفرماوى

أستاذ التفسير وعلوم القرآن - جامعة الأزهر

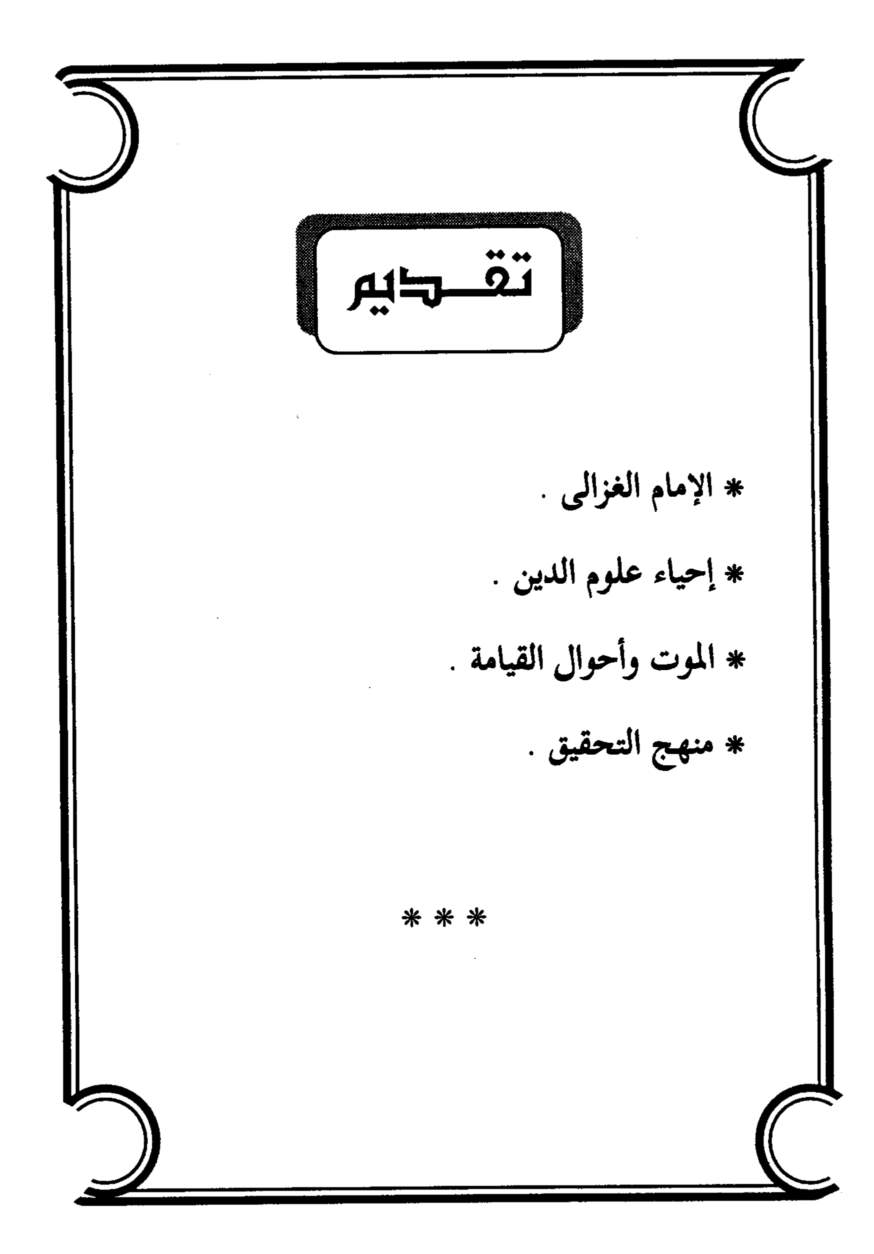
دار المعالم الثقافية



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآيِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ
وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ
عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ
إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾

[آل عمران ١٨٥]



تقـــديم

* الإمام الغزالى .
* إحياء علوم الدين .
* الموت وأحوال القيامة .
* منهج التحقيق .

* * *

الإمام الغزالى

هو * محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الغزالى [1] ، أبو حامد ، حجة الإسلام ، الفيلسوف المتصوف ، أحد أعظم أعلام الفكر الإسلامى ، ومن كبار أئمة أهل البحث والنظر فى علوم الدنيا والدين .

ولد فى الطابران (قصبة طوس ، بخراسان) سنة ٤٥٠هـ (١٠٥٨م). وكان والده رجلاً فقيراً صالحاً ، يغزل الصوف ويبيعه فى دكانه بطوس . ويحب مجالسة الفقهاء والمتصوفة . وكان حينما يجلس إليهم يتأثر بأقوالهم ويتضرع إلى الله أن يرزقه ولداً صالحاً مثلهم ، ويجعله فقيهاً واعظاً . وقبل أن يتوفى الغزالى الوالد ، أوصى به وبأخيه أحمد إلى صديق له متصوف ، وزوده بما لديه من مال لينفقه عليهما ، قائلاً :

« إن لى لتأسفاً عظيماً على عدم تعلم الخط ، واشتهى استدراك ما فاتنى فى ولدىَّ هذين » .

وأشرف عليهما الوصى المتصوف ، وعلمهما الخط ، وأدبهما إلى أن نفذ المال ، وكان الوصى فقيراً أيضاً ، فنصح الأخوين بأن يدخلا مدرسة يأكلان فيها ويأويان ، ثم يتعلمان فى أثناء ذلك ، ففعلا . فكان هذا الصوفى الصالح السبب فى سعادتهما وعلو درجتهما . وكثيراً ما كان أبو حامد يحكى هذا ويقول : « طلبنا العلم لغير الله فأبى أن يكون (العلم) إلا لله » .

(*) من مقدمة الأستاذ عادل نويهض لكتاب « جواهر القرآن » للإمام الغزالى .

(١) بتشديد الزاى ، نسبة إلى الغزّال على عادة أهل خوارزم وجرجان ، فإنهم ينسبون إلى القصّار قصارى وإلى العطار عطارى . أو بتخفيفها ، نسبة إلى غزالة من قرى طوس . قال ابن الأثير فى اللباب: والتخفيف خلاف المشهور .

ثابر أبو حامد على دراسة الفقه وهو ما يزال فى ريعان الصبا ، فقد أخذ طرفا منه فى طوس (سنة ٤٦٥هـ - ١٠٧٣م) على الإمام أحمد بن محمد الراذكانى (نسبة إلى راذكان من قرى طوس) ، ثم انتقل إلى جرجان ، وهو دون العشرون ، ودرس على الإمام أبى القاسم إسماعيل بن مسعدة الإسماعيلى . ثم عاد إلى طوس ، فمكث بها ثلاث سنين ، ارتحل بعدها إلى نيسابور (سنة ٤٧٣ هـ) ولازم إمام الحرمين ، عبد الملك الجوينى ، أعلم المتأخرين من أصحاب الشافعى ، ودرس عليه الفقه والأصول ، والجدل والمنطق والكلام والفلسفة ، حتى « أحكم كل ذلك ، وفهم كلام أرباب هذه العلوم ، وتصدى للرد على مبطليهم وإبطال دعاويهم »[١] .

ويرى المؤرخون أن هذه الفترة فى حياة الغزالى كانت أخصب فترات حياته ، ففيها ابتدأ بالتأليف والكتابة، وفيها بدأت الشكوك تتطرق إلى علمه.

يقول الدكتور كريم عزقول : « كما أنه بدأ فى هذه الحقبة لا قبلها ، كما أرى ، يعتمد التفكير الشخصى والنظر الحر . وإن ما يبرر اعتقادى هذا، الذى أشارك فيه المستشرق الهولندى « دى بور » فهو أن إمام الحرمين المنتمى إلى الأشعرية ، كان يعتمد فى إثبات القضايا التى كان يدرسها ، التفكير الشخصى والأدلة العقلية ، أكثر مما كان يعتمد التقليد والأدلة النقلية، ويتعاطى علوماً مشبوهة فى نظر المتكلمين ، كالفلسفة[٢] .

ومما لا شك فيه أن تتلمذ الغزالى على إمام الحرمين ، كان له تأثير كبير على تطوره الروحى ، فقد كان الجوينى من كبار أئمة أهل العلم فى عصره ، نظاراً ، أصولياً ، متكلماً ، جريئاً فى نقده ، « سلك طريق البحث والنظر والتحقيق ، بحيث أربى على كثير من المتقدمين ، وأنسى تصرفات الأولين » . « ومن قاس طريقته بطريقة المتقدمين فى الفروع وأنصف ، أقر بعلو منصبه ، ووفور تعبه ونصبه فى الدين »[٣] .

(١) شرح أحياء علوم الدين للزبيدى . (٢) العقل فى الإسلام ص ٣٧ ، ٣٨ .
(٣) طبقات الشافعية ج ٥ / ١٦٩ ، ١٧٨ .

وبهذا الصدد يقول الدكتور عزقول : « وقد رأينا الغزالى ، قبل تتلمذه على الجوينى يحفظ غيبا ما يتعلمه . فلا يمكن والحالة هذه ، أن يكون اعترى فكره ذلك الانقلاب إلا إبان دراسته على هذا الإمام ، أو بعدها بقليل . وفى هـذا نلمس التأثير الكبير الذى كان لإمام الحرمين ، على تطـور الغزالى ، ولا شك أن الغزالى كان يشعر بخير هذا التأثير ، إذ لم يفصله عن أستاذه رغم موقف هذا منه غير المشجع ، إلا موت الإمام سنة ١٠٨٥م ، ولم يدرسك على أستاذ غيره فيما بعد »[١] .

ولما انتهت الحياة بإمام الحرمين (عام ٤٧٨هـ ـ ١٠٨٥م) خرج الغزالى إلى المعسكر ، بلاط الوزير نظام الملك (وزير السلطان ملكشاه السلجوقى) فى ظاهر نيسابور ، وكان مجلسه مجلس أهل العلم ومحط رحالهم ، فناظر الغزالى الأئمة العلماء فى مجلسه ، وظهر كلامه عليهم ، فأعجب نظام الملك بالغزالى وبمقدرته فى المناظرة . وكان ذلك سبباً فى إقباله عليه ، وتعيينه أستاذاً فى المدرسة النظامية فى بغداد سنة ٤٨٤هـ ـ ١٠٩١م ، وكان حينئذ فى الرابعة والثلاثين من عمره .

وسرعان ما اشتهر الغزالى فى بغداد ، فقد « غلبت حشمته الأمراء والملوك والوزراء » على ما فى « الطبقات الكبرى » للسبكى ، و«صار بعد إمامة خراسان إمام العراق » على حد تعبير عبد الغفار بن إسماعيل الفارسى.

ولكن الغزالى ، رغم هذه الشهرة ، لم يمتع بمقامه فى بغداد مدة طويلة . لقد كان فى تعطش إلى درك حقائق الأمور من أول أمره وريعان عمره ، وكان البحث وراء الحقيقة غريزة وفطرة وضعتا فى جبلته . وفى هذه الحقبة من حياته فى نظامية بغداد ، بدأت تظهر ثمار دراسته على شيخه إمام الحرمين ، فانصرف إلى المطالعة والبحث والاستقصاء ، بعقلية جريئة ناقدة ، لاعتاق فكره من رابطة التقليد التى كانت لا تزال مستحكمة فيه ، حتى بلغ درة الشك فيما يرى ويسمع ويقرأ ، وفيما يقول ويعتقد .

---

(١) العقل فى الإسلام ص ٣٨ .

وقد بلغت شكوك الغزالى درجة جعلته يفكر بالتخلى عن التدريس ، وبمغادرة بغداد . وكان ، إذ ذاك ، منغمساً فى المال والجاه والشهرة ، وبدأ الصراع فى نفسه بين «شهوات الدنيا » من جانب ، وبين «دواعى الآخرة » من جانب آخر ، ولم يستقر رأيه على رفض شهوات الدنيا إلا بعد تردد ، ومجاهدات نفسية عنيفة . ويصف الغزالى حاله فيقول : « فلم أزل أتردد بين تجاذب شهوات الدنيا ودواعى الآخرة قريباً من ستة أشهر ، أولها رجب سنة ثمان وثمانين وأربعمائة . فى هذا الشهر جاوز الأمر حد الاختيار إلى الاضطرار ، إذ قفل الله على لسانى حتى أعتقل عن التدريس ، فكنت أجاهد نفسى أن أدرس يوماً واحداً تطييباً لقلوب المختلفة (الآتين لسماع الدرس) وكان لا ينطق لسانى بكلمة ولا أستطيعها البتة . ثم أورثت هذه العقلة فى اللسان حزنًا فى القلب بطل معه قوة الهضم وقرم الطعام والشراب، فكان لا تنساغ لى شربة ولا تنهظم لى قمة . وتعدى ذلك إلى ضعف القوى حتى قطع الأطباء طمعهم فى العلاج » . ثم يقول : « ثم لما أحسست بعجزى ، وسقط بالكلية اختيارى ، التجأت إلى الله تعالى ، التجاء المضطر ، الذى لا حيلة له ، فأجابنى الذى يجيب المضطر إذا دعاه ، وسهل على قلبى الإعراض عن الجاه ، والمال ، والأولاد ، والأصحاب[1] .

ونصح بعض الأطباء الغزالى بالسياحة ، فخرج من بغداد فى ذى القعدة من سنة ٤٨٨هـ (نوفمبر ١٠٩٥م) قاصداً الحج إلى بيت الله الحرام ، ووصل دمشق فى مطلع سنة ٤٨٩هـ . وخلال عشرة أعوام ، أخذ يتنقل من دمشق إلى القدس إلى الخليل إلى القاهرة ، ومن القاهرة إلى الإسكندرية . وكان يقضى أوقاته فى الخلوة والرياضة والمجاهدة : اشتغالاً بتزكية النفس وتهذيب الأخلاق وتصفية القلب لذكر الله تعالى . وكان يزور المساجد ويأوى إلى القفار ، وينزوى فى المغارات ، ويتعرض لأنواع المشاق والمحن . ثم سار إلى الحجاز لأداء فريضة الحج ، وزيارة الرسول ﷺ .

(١) المنقذ من الضلال ص ٦٤ .

ورجع الغزالى إلى بغداد ، ولكنه استمر فى اعتزاله التدريس . وفى ذى الحجة من سنة ٤٩٩هـ (سبتمبر « أيلول » ١١٠٦م) أقنعه الوزير فخر الملك بالتدريس في نظامية نيسابور ، ولكنه لم يلبث طويلاً ، فبعد سنة ، أو نحو من ذلك ، قتل الوزير فخر الملك ، فغادر الغزالى نيسابور إلى طوس ، ملازماً بيته ، مشتغلاً بالتفكير والوعظ والتدريس . واستمر إلى أن مات سنة ٥٠٥هـ (١١١١م) عن سن بلغت به الخامسة والخمسين .

قال أخوه أحمد : « لما كان يوم الاثنين وقت الصبح ، توضأ أخى أبو حامد ، وصلى ، وقال : علىّ بالكفن ، فأخذه وقبّله ووضعه على عينيه وقال : سمعاً وطاعة للدخول على الملك ، ثم مدّ رجليه ، واستقبل القبلة ومات » ، عليه رحمة الله .

* * *

إحياء علوم الدين

بلغت كتب حجة الإسلام الإمام الغزالى حداً كبيراً ، حيث عد منها بعض الباحثين ٢٢٨ كتاباً فى جميع فروع معارف عصره ، بل حوت بعض هذه الكتب من المعارف ما سبق به الغزالى عصره .

وأجل هذه الكتب على الإطلاق وأهمها لمن يريد أن يحدد شخصية الغزالى ومنهجه واتجاهه : ثلاثة كتب .

يقول المرحوم الشيخ الدكتور عبد الحليم محمود عنها : ولو لم يؤلف الإمام الغزالى غيرها ، لبقى هو الغزالى العملاق والصوفى الفيلسوف ، بطابعه وسماته وشخصيته ، لا ينقص شيئاً .. ولكنه لو لم يؤلفها : لما كان هو الإمام الغزالى صاحب الأثر الخالد على الدهر .

وهذه الكتب هى :

١ ـ **المنقذ من الضلال** : وهو كتاب لا غنى للباحث فى تطور حياة الغزالى الفكرية عنه .

٢ ـ **تهافت الفلاسفة** : وهو كتاب تدل تسميته على ما يقصد به .

٣ ـ **إحياء علوم الدين** : وهو أهم هذه الثلاثة ، بل أهم كتب الغزالى عامة .

ولقد قال عنه الإمام النووى : « كاد الإحياء أن يكون قرآناً » .

وتتلخص البواعث التى من أجلها كُتِب الإحياء ، وكذلك الهدف الذى من أجله أُلِّف ، كما يعتبر ـ من جهة ثالثة ـ جوهر موضوعه ، الذى يخدمه ويدور حوله فى كلمة واحدة ، هى «الإخلاص» .

روى ابن الجوزى أن بعض أصحاب الغزالى ، سأله قبل الموت ، قائلاً : أوصنى ، فقال : « عليك بالإخلاص » ولم يزل يكررها حتى الموت .

عليك بالإخلاص !!!

لقد تلفت أبو حامد الغزالى يوماً إلى نفسه ؛ فوجد أنه متجرد من الإخلاص ، وأن كل همه إنما هو الشهرة والصيت والجاه ، والمنزلة عند الحكام .. !!

وانتفض أبو حامد انتفاضته حتى وضع بها نفسه فى محيط الإخلاص.

كما تلفت أبو حامد ـ بعد ذلك ـ فيما حوله ؛ فوجد أن الناس ، صم بكم عمى عن قوله تعالى : ﴿ **ألا لله الدين الخالص** ﴾[1] وعن قوله : ﴿ **وما أمروا ألا ليعبدوا الله مخلصين له الدين** ﴾[2] وعن قوله تعالى : ﴿ **فادعوه مخلصين له الدين** ﴾[3] وغير ذلك من الآيات الكثيرة التى تدعوا إلى الإخلاص فى الدين ، وإلى إخلاص الدين لله وحده ، وهى فى دعوتها إلى الإخلاص : إنما تدعوا إلى التوحيد .

ووجد أن الشيطان قد استحوذ على أكثر الناس ، واستغواهم الطغيان ، وأصبح الدين فى نظر علمائه ـ فضلاً عن غيرهم ـ فتوى حكومة ، أو جدلاً للمباهاة والغلبة والإفحام ، أو سجعاً مزخرفاً يتوسل به الواعظ إلى استدراج العوام .

لما رأى أبو حامد الغزالى ذلك وغيره : ألف كتابه النفيس « إحياء علوم الدين » .

ألفه ليستعيد الإخلاص إلى القلوب .

ليستعيد ما درج عليه السلف الصالح من اتخاذ الإخلاص أساساً وشعاراً.

وما من شك فى أن إخلاص الدين لله وحده : هو التوحيد .

---

(١) سورة الزمر الآية : ٣ .
(٢) سورة البينة الآية : ٥ .
(٣) سورة غافر الآية : ٦٥ .

وما من شك فى أن التوحيد : هو جوهر الدين الإسلامى وهو طابعه ، وهو هدفه وغايته .

وألف الإمام الغزالى كتابه هذا ليبين فيه : الإخلاص أسساً ونتائج وأسباباً وغايات .

هذا .. وقد رتب ــ رحمه الله ــ الكتاب أقساماً ، والأقسام كتباً ، والكتب أبواباً ، والأبواب فقرات .. كل ذلك : ليسهل تناوله والإفادة به ومنه[1] .

وقد طبع هذا الكتاب طبعات عديدة : فى مصر وفى غيرها ، ووضعت له وعليه شروح ــ كذلك ــ عديدة ، منها :

١ ــ إتحاف السادة المتقين .. للزبيدى المرتضى طبع فى « فارس » عام ١٣٠٢هـ فى ١٣ مجلداً . وفى القاهرة عام ١٣١١هـ فى عشرة مجلدات .

٢ ــ منهاج القاصدين .. لابن الجوزى .

٣ ــ روح الإحياء .. لابن يونس .

كما وضعت له مختصرات ، منها :

١ ــ موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين .. للسيد جمال الدين القاسمى الدمشقى . وقد طبع ثلاث مرات فى القاهرة .

٢ ــ المرشد الأمين إلى موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين .. للإمام الغزالى نفسه[2] .

إلى غير ذلك من الشروح والمختصرات .

كما أخذت من الكتاب بعض كتبه وأبوابه لإفراد موضوعها ، وسهولة حملها وتعميم النفع بها ، ومن ذلك : هذا الكتاب الذى بين يديك .

* * *

---

(١) تراث الإنسانية ص ٤٣٥ ، ٤٣٦ .

(٢) انظر : عادل نويهض .. مقدمة كتاب « جواهر القرآن » للإمام الغزالى ص ١٥ ــ ٢٧ باختصار وتصرف يسير . (منشووات دار الأفاق الجديدة ــ بيروت) .

الموت .. وأحوال القيامة

هذا عنوان الكتاب الذى بين يديك .

وهو العنوان الذى وضعناه للكتاب العاشر من ربع « المنجيات » من كتاب « إحياء علوم الدين » .

والعنوان الأصلى كما هو مذكور فى الإحياء هو : « كتاب ذكر الموت وما بعده » .

وقد قسم الإمام الغزالى حديثه عن « الموت وما بعده » فى هذا الكتاب شطرين :

الأول : فى مقدمته وتوابعه إلى نفخة الصور .

الثانى : فى أحوال الميت من وقت نفخة الصور إلى آخر الاستقرار فى الجنة أو فى النار ، وتفصيل ما بين يديه من الأهوال والأخطار كما ختم ـ رحمه الله ـ كتاب الموت هذا بباب فى سعة رحمة الله تعالى ، على سبيل التفاؤل بذلك .

ولأن موضوع « الموت وما بعده » جدير بالبحث والدرس .. !!

ولأن الإمام الغزالى ـ رحمه الله ـ من أبرع وأجمع من كتبوا فى هذا الموضوع بسفره النفيس « إحياء علوم الدين » .. !!

ولأن الناس ـ وخاصة فى هذا الزمان ـ قد أصابها الوَهَن ، وهو ـ كما وضحه النبى ﷺ ـ « حب الدنيا وكراهة الموت » .. !!

ولأن دراسة « الموت وما بعده » ومعرفة ذلك فى الإسلام أمر واجب ، بل إن الإيمان بما بعده : أصل من أصول العقيدة الإسلامية .. !!

حيث إن فى دراسة الموت وتذكره : احترام الإنسان لنفسه ، وحث

على استعداده لما بعد الموت ، ودعوة إلى حسن عبادته لله تعالى ، وإرشاده له إلى : إسلام وجوبه ، ونفسه ، وما له ، وولده لله سبحانه وتعالى .. فلا يكون لديه إذعان إلا لله تعالى ، ولا يكون عنده خوف إلا من الله تعالى .

وهنا : يدفعه « الإذعان لله تعالى » إلى « الإخلاص » له سبحانه وتعالى ، فى كل ما يقوم به من عمل ، وفى كل ما يؤديه من عبادات ، وفى كل ما يكون منه من معاملات .

وعموماً : يدفعه إلى حسن خلافته على هذه الأرض .

وكذلك : يدفعه « الخوف من الله وحده » إلى تحرره من كل ألوان الخوف التى تعوقه عن القيام بمهمته الأساسية .. وهى : عبادته لله تعالى ، ودعوته لدين الله تعالى ، أمراً بالمعروف ، ونهياً عن المنكر .. فلا يكون لديه خوف من جهة الرزق ، ولا يكون عنده خوف من غير الله سبحانه وتعالى ، أيًا كان مصدر هذا الخوف .. أى : يصير المرء فى كنف الله تعالى .. آمنا ، متحرراً .

وهنا : يدفعه ـ كذلك ـ هذا الأمن وهذا التحرر إلى حسن أدائه لرسالته ، وكمال قيامه بمهمته .

حيث لا خوف من جهة الرزق، وكذلك: لا خوف من غير الله تعالى.

وعلى ذلك : فالموت للمؤمن .. أمن لا خوف .. عز لا ذل .. قوة لا ضعف . ولا يقبل الإسلام من أهله : خوفًا ، ولا يرضى الإسلام من أهله ولا لهم ، إلا أن يكونوا : آمنين ، أعزاء ، أقوياء ، أغنياء[1] .

لكل ذلك : كانت الرغبة إلى إفراد « كتاب الموت » من ربع «المنجيات» ، بل من كتاب « إحياء علوم الدين » ، وتخصيصه فى هذا العمل الذى بينى يديك بالتحقيق والإخراج ؛ ليسهل حمله ، وينتشر علمه، ويعم النفع به ، وتكثر الإفادة منه .

(١) انظر : الموت فى الفكر الإسلامى ـ للمحقق ـ ص ٢٥ ، ٢٦ بتصرف يسير .

منهج التحقيق

وكان منهجنا فى تحقيق الكتاب وإخراجه على النحو التالى :

١ ـ قمنا بوضع اسم للكتاب ، يكون واضح الدلالة على مقصوده ، سهل الإبانة عن محتواه ، فكان « الموت .. وأحوال القيامة » مؤدياً لما نهدف، معبراً ـ فيما نرى ـ عما يقصد المؤلف ، على اعتبار أن الحديث عن البرزخ والقبور يأتى بينهما ويدخل فيهما مما يغنى عن الإطالة فى العنوان بذكره .

٢ ـ لزيادة الكشف عن محتويات هذا السفر النفيس ، وتسهيل الوصول إلى كنوزه ، وتيسير الإفادة من معارفه الغزيرة .. ثم التدخل فى الشكل الذى يخرج به الكتاب ، على النحو التالى :

(أ) تقسيم الكتاب إلى أبواب ، وترقيمها .

(ب) تقسيم الأبواب إلى فصول ، وترقيمها .

(ج) تقسيم الفصول إلى بحوث .

(د) وضع صفحة مستقلة عند أول كل باب من أبواب الكتاب ، تحتوى على : رقم الباب ، وعنوانه ، وفصول هذا الباب وعناوين هذه الفصول :

(هـ) وضع صفحة مستقلة ـ كذلك ـ عند أول كل فصل من فصول كل باب تحتوى على رقم الفصل ، وعنوانه ، وبحوث الفصل ، وعناوين هذه البحوث .

هذا .. فى الوقت الذى كان المؤلف ـ رحمه الله ـ يصنع ذلك أحياناً، ولكن بغير اضطراد وتفصيل اتبعناه والتزمنا به فى عملنا .

٣ ـ بغير تدخل فى كلام المؤلف ، ولا تصرف فى نصوصه، ولا تغيير

فى حرف من حروف كتابه : قمنا بوضع عناوين لهذه الكتب والفصول والبحوث ، بعض هذه العناوين مما وضع المؤلف والبعض الآخر كان من وضعنا .

٤ ـ عزو الآيات القرآنية إلى سورها وترقيمها بهوامش الكتاب .

٥ ـ تخريج أحاديث الكتاب ، وهى كثيرة جداً ، ومتفاوتة الدرجات جداً .. ولعل هذه النقطة هى التى استغرقت جل العمل والجهد فى تحقيق وإخراج هذا الكتاب .

وسيرى القارئ الكريم مقدار ذلك فى الحواشى .

٦ ـ عمل الفهارس الكاشفة لمحتويات الكتاب ، التى تساعد القارئ على سرعة الوصول لمراده ، وقد اكتفينا فى هذه الفهارس باثنين فقط هما :

(أ) فهرس مصادر التحقيق .

(ب) فهرس الموضوعات .

وكان ذلك : تخفيفاً لحجم الكتاب ، وكراهة الإطالة فى فهارس قد لا يحتاج إليها معظم قارئى هذا الكتاب .

٧ ـ كتابة هذه المقدمة .

ولا يفوتنى أن أذكر بالتقدير أخى الكريم وتلميذى النجيب د. أحمد عبد الغنى الجمل مدرس التفسير وعلوم القرآن بكلية أصول الدين بالقاهرة على ما بذله معى من جهد مشكور ، ومساعدات علمية فعالة لإخراج هذا العمل فى ثوبه هذا .

كما لا يفوتنى أن استجلب من الله تعالى شآبيب الرحمة والغفران :

لمن بدأ معنا أول خطوات العمل فى هذا الكتاب .. ولكن قضاء الله تعالى عاجله .. أخى وتلميذى الدكتور على فتحى العوضى مدرس التفسير وعلوم القرآن بكلية أصول الدين جامعة الأزهر بالمنصورة ، رحمه الله رحمة واسعة ، وجعل جنة الخلد قراره ومثواه ، وبارك فى ذريته

وكذلك : لمن أعلنني فَرِحاً رغبته مشاركتي ومساعدتي في إخراج هذا الكتاب ، بل مشاركتي في إعداد فهارس كاملة لكتاب « الإحياء » حينما علم عزمي على تحقيق هذا الجزء ؛ طاعة لله وخدمة لهذا الدين .. ولكنه ـ وقبل أن أبدأ العمل ـ آثر لقاء الله تعالى على دنيانا .. أخي الشاب الصالح النابغة ـ ولا أزكيه على الله ـ الأستاذ شريف أبو الفتوح عبد الحليم ، رحمه الله تعالى رحمة واسعة ، وجعل جنة الخلد قراره ومثواه ، وبارك في ذريته .

والله أسأل أن يتقبل هذا العمل خالصاً لوجهه ، وأن ينفعني به ، وأهلي والمسلمين ، وكل من ساهم في إخراجه ولو بكلمة توجيه أو نصيحة ، في يوم لا ينفع فيه ﴿ **مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم** ﴾ .

الفقير إلى الله تعالى

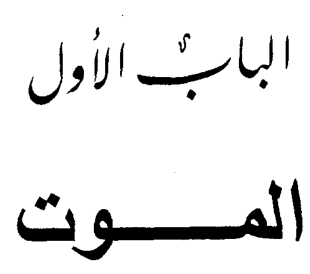
أبو محمد ومصطفى

عبد الحي حسين الفرماوي

القاهرة .. عين شمس .. أرض النعام

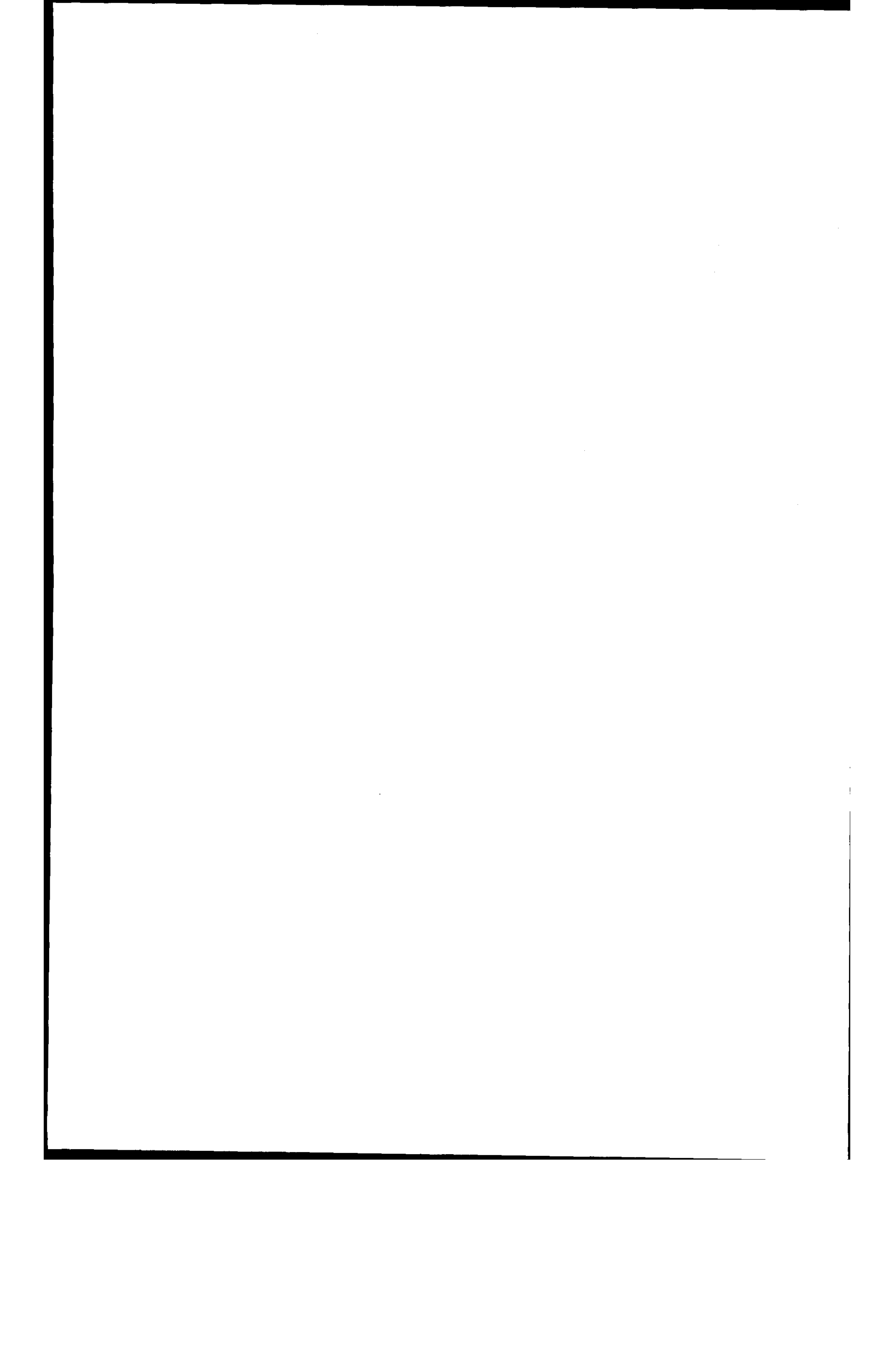
غرة رجب ١٤١٤هـ .

١٤ من ديسمبر ١٩٩٣م .



وفيـه :

- الفصل الأول : ذكر الموت
- الفصل الثانى : الأمـــل



الفصل الأول :

ذكر المــوت
والترغيب فى الاكثار من ذكره

وفيه :

البحث الأول

ذكر الموت وموقف الناس منه

اعلم أن المنهمك فى الدنيا المكب على غرورها المحب لشهواتها يغفل قلبه لا محالة عن ذكر الموت فلا يذكره . وإذ ذكر به كرهه ونفر منه، أولئك هم الذين قال الله فيهم ﴿ **قل إن الموت الذى تفرون منه فإنه ملاقيكم ثم تردُّون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعلمون** ﴾ [(١)] .

ثم الناس : إما منهمك ، وإما تائب مبتدئ ، أو عارف منته .

أما المنهمك : فلا يذكر الموت ، وإن ذكره فيذكره للتأسف على دنياه ويشتغل بمذمته ، وهذا يزيده ذكر الموت من الله بعداً .

وأما التائب : فإنه يكثر من ذكر الموت لينبعث به من قلبه الخوف والخشية فيفى بتمام التوبة ، وربما يكره الموت خيفة من أن يختطفه قبل تمام التوبة وقبل إصلاح الزاد ، وهو معذور فى كراهة الموت ، ولا يدخل هذا تحت قوله صلى الله عليه وسلم : « من كره لقاء الله كره الله لقاءه »[(٢)] فإن هذا ليس يكره الموت ولقاء الله وإنما يخاف فوت لقاء الله لقصوره وتقصيره ، وهو كالذى يتأخر عن لقاء الحبيب مشتغلاً بالاستعداد للقائه على وجه يرضاه ، فلا يعد كارهاً للقائه . وعلامة هذا أن يكون دائم الاستعداد له لا شغل له سواه وإلا التحق بالمنهمك فى الدنيا .

وأما العارف : فإنه يذكر الموت دائماً لأنه موعد لقائه لحبيبه ، والمحب لا ينسى قط موعد لقاء الحبيب ، وهذا فى غالب الأمر يستبطئ مجىء

---

(١) الآية ٨ من سورة الجمعة .

(٢) أخرجه البخارى فى كتاب الرقاق باب ٤١ ج ٣٥٧/١١ فتح البارى ، ومسلم فى كتاب الذكر والدعاء ٩/١٧ شرح النووى ، والترمذى فى كتاب الزهد باب ٤ حديث رقم ٢٤١١ ، وابن ماجه فى كتاب الزهد باب ذكر الموت .

الموت ، ويحب مجيئه ليتخلص من دار العاصين وينتقل إلى جوار رب العالمين . كما روى عن حذيفة أنه لما حضرته الوفاة قال : حبيب جاء على فاقة لا أفلح من ندم ؛ اللهم إن كنت تعلم أن الفقر أحب إليّ من الغنى والسقم أحب إليّ من الصحة ، والموت أحب إليّ من العيش فسهل عليّ الموت حتى ألقاك .

فإذن : التائب معذور فى كراهة الموت ، وهذا معذور فى حب الموت وتمنيه .

وأعلى منهما رتبة من فوّض أمره إلى الله تعالى فصار لا يختار لنفسه موتاً ولا حياة ، بل يكون أحب الأشياء إليه أحبها إلى مولاه ، فهذا قد انتهى بفرط الحب والولاء إلى مقام التسليم والرضا وهو الغاية والمنتهى .

وعلى كل حال ففى ذكر الموت ثواب وفضل ، فإن المنهمك أيضاً يستفيد بذكر الموت التجافى عن الدنيا إذ ينغص عليه نعيمه ويكدر عليه صفو لذتها وكل ما يكدّر على الإنسان اللذات والشهوات فهو من أسباب النجاة .

* * *

البحث الثاني

فضل ذكر الموت

قال رسول الله ﷺ : « أكثروا من ذكر هازم اللذات »[1] ومعناه نغصوا بذكره اللذات حتى ينقطع ركونكم إليها فتقبلوا على الله تعالى .

وقال صلى الله عليه وسلم : « لو تعلم البهائم من الموت ما يعلم ابن آدم ما أكلتم منها سميناً »[2] .

وقالت عائشة رضى الله عنها : يا رسول الله هل يحشر مع الشهداء أحد ؟ قال : « نعم من يذكر الموت فى اليوم والليلة عشرين مرة »[3] .

وإنما سبب هذه الفضيلة كلها أن ذكر الموت يوجب التجافى عن دار الغرور ويتقاضى الاستعداد للآخرة ، والغفلة عن الموت تدعو إلى الانهماك فى شهوات الدنيا .

---

(١) أخرجه الترمذى فى كتاب صفة القيامة وفى كتاب الزهد باب ٢ حديث رقم ٢٤٠٩ ، والنسائى فى كتاب الجنائز باب كثرة ذكر الموت ، وابن ماجة فى كتاب الزهد باب ذكر الموت ، وأحمد بن حنبل ٢٩٣/٢ .

(٢) ذكره العجلونى فى كشف الخفاء ١٥٤/٢ وقال عنه : رواه البيهقى فى الشعب والقضاعى عن أم حبيبة الجهنية مرفوعاً ، ورواه الديلمى عن أبى سعيد رفعه بلفظ : لو علمت البهائم من الموت ما علمتم ما أكلتم منها لحماً سميناً ، وعنده بلا سند عن أنس مرفوعاً لو أن البهائم التى تأكلون لحومها علمت ما تريدون بها ما سمنت وكيف تسمن أنت يا ابن آدم والموت أمامك . أ هـ .

وانظر البداية والنهاية ١٦٩/٦ وفيض القدر ٣١٥/٥ وفيه عبد الله بن مسلمة بن أسلم ضعفه الدارقطنى ورواه الديلمى عن أبى سعيد .

(٣) ذكره صاحب إتحاف السادة المتقين فى ٢٢٧/١٠ ثم قال عنه : قلت : تقدم هذا للمصنف فى آخر كتاب التوحيد والتوكل إنه من حديث أنس وعائشة ولفظه : « قيل يا رسول الله هل يكون مع الشهداء يوم القيامة غيرهم ؟ فقال : « نعم من ذكر الموت فى كل يوم عشرين مرة » تقدم هناك أن العراقى قال : لم أقف له على إسناد . وذكرنا أن حديث عائشة رواه الطبرانى فى الأوسط نحوه وفيه من قال فى يوم خمسة وعشرين مرة : « اللهم بارك لى فى الموت وفيما بعد الموت ثم مات على فراشه أعطاه الله أجر شهيد وعزاه السيوطى فى شرح الصدور للطبرانى من حديث عمار بلفظ المنصف أ هـ .

وقال صلى الله عليه وسلم : « تحفة المؤمن الموت »[1] وإنما قال هذا لأن الدنيا سجن المؤمن إذ لا يزال فيها فى عناء من مقاساة نفسه ورياضة شهواته ومدافعة شيطانه ، فالموت إطلاق له من هذا العذاب ، والإطلاق تحفة فى حقه .

وقال صلى الله عليه وسلم: « الموت كفارة لكل مسلم »[2] وأراد بهذا: المسلم حقاً المؤمن صدقاً الذى يسلم المسلمون من لسانه ويده ويتحقق فيه أخلاق المؤمنين ولم يتدنس من المعاصى إلا باللمم والصغائر ، فالموت يطهره منها ويكفرها بعد اجتنابه الكبائر وإقامته الفرائض .

قال عطاء الخراسانى : مرّ رسول الله ﷺ بمجلس قد استعلى فيه الضحك فقال : « شوّبوا مجلسكم بذكر مكدّر اللذات » قالوا : وما مكدّر اللذات ؟ قال : « الموت »[3] وقال أنس رضى الله تعالى عنه قال رسول الله

---

(١) أخرج الحاكم فى المستدرك فى كتاب الرقاق باب لا يكون أحداً متقياً ٣١٩/٤ ، وقال عنه: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه . وقال الذهبى : قلت : ابن زياد هو الأفريقى ضعيف . وذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد فى كتاب الجنائز باب تحفة المؤمن الموت ٣٢٣/٢ ، ثم قال : رواه الطبرانى فى الكبير ورجاله ثقات . وانظر فيض القدير ٢٣٣/٣ ، ٢٣٤ .

(٢) ذكره السيوطى فى اللآلئ المصنوعة فى ٤١٤/٢ ، ٤١٥ ، ٤١٦ كتاب الموت والقبور ، ثم قال : وفى بعض طرق الحديث ما يفهم منه أن المراد بالموت الطاعون ، فإنهم كانوا فى الصدر الأول يطلقون الموت ويريدون به الطاعون ، وقال ابن سعد فى طبقاته : أنا حفص بن غياث حدثنا عاصم الأحول عن حفصة بنت سيرين قالت : قال لى أنس فى أى موت مات يحيى بن سيرين قلت فى الطاعون . قال : أما الطاعون شهادة لكل مسلم ، ثم رأيت فى لسان الميزان ما نصه قد سبق ابن الجوزى إلى ذلك ابن طاهر فبالغ فى إنكاره ، والذى يصح فى ذلك حديث حفصة بنت سيرين عن أنس بلفظ : « الطاعون كفارة لكل مسلم » أخرجه البخارى أ هـ . والله أعلم .

وقال عنه صاحب فيض القدير فى ٢٧٩/٦ : ذكره الخطيب فى تاريخه عن أنس ، ثم قال : قال ابن العربى : حديث صحيح ، وقال الحافظ العراقى فى أماليه : ورد من طرق يبلغ بها درجة الحسن ، وزعم الصنعانى كابن الجوزى وابن طاهر وغيرهم ، وضعفه ، قال ابن حجر : ممنوع مع وجود هذه الطرق . وقد جمع شيخنا العراقى طرقه فى جزء والذى يصح فى ذلك خبر البخارى « الطاعون كفارة لكل مسلم » .

(٣) ذكره صاحب إتحاف السادة المتقين فى ٢٢٨/١٠ ثم قال : قال العراقى رواه ابن أبى الدنيا فى كتاب الموت هكذا مرسلاً ورويناه فى أمالى الخلال من حديث أنس ولا يصح أ هـ . قلت: رواه =

ﷺ : « أكثروا من ذكر الموت فإنه يُمَحِّصُ الذنوب ويزهد فى الدنيا » [(١)].

وقال صلى الله عليه وسلم : « كفى بالموت مفرقاً » [(٢)].

وقال عليه السلام : « كفى بالموت واعظاً »[(٣)] .

وخرج رسول الله ﷺ إلى المسجد فإذا قوم يتحدثون ويضحكون فقال: « اذكروا الموت أما والذى نفسى بيده لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً »[(٤)] .

وذكر عند رسول الله ﷺ رجل فأحسنوا الثناء عليه ، فقال: « كيف ذكر صاحبكم للموت » قالوا : ما كنا نكاد نسمعه يذكر الموت ! قال : « فإنّ صاحبكم ليس هنالك »[(٥)] .

= البيهقى من حديث أنس أنه ﷺ مر بقوم يضحكون ويمزحون فقلل : « أكثروا ذكر هازم اللذات » ورواه العسكرى فى الأمثال من حديث أبى هريرة مرّ رسول الله ﷺ بمجلس من مجالس الأنصار وهم يمزحون ويحضكون فقال : أكثروا من ذكر هازم اللذات فإنه لم يذكر فى كثير إلا قلله، ولا فى قليل إلا كثره ، ولا فى ضعيف إلا وسعه ، ولا فى سعة إلا ضيقها . وروى البيهقى من حديث أبى سعيد دخل رسول الله ﷺ فرأى ناساً يكثرون فقال : لو أكثرتم ذكر هازم اللذات والموت وأنه لم يأت على القبر يوم إلا وهو يقول : « أنا بيت الوحدة وبيت الغربة أنا بيت التراب أنا بيت الدود» ولفظه عند العسكرى : « دخل النبى ﷺ مصلى فرأى ناساً يكثرون فقال : أما إنكم لو أكثرتم ذكر هازم اللذات فأكثروا ذكر هازم اللذات » أ هـ . وذكره صاحب كنز العمال ٥٤٦/١٥/ ٤٢١١٢ : وعزاه إلى ابن أبى الدنيا فى ذكر الموت عن عطاء الخراسانى مرسلاً أ هـ .

(١) ذكره صاحب كشف الخفاء فى ١٦٦/١ وقال عنه : وفى لفظ لأنس عند ابن أبى الدنيا بسند ضعيف جداً ، وذكر الحديث . وانظر فيض القدير ٨٦/٢ .

(٢) قال العجلونى فى كشف الخفاء ١١٢/٢ : ولابن أبى الدنيا مرسلاً « كفى بالموت مفرقاً » .

(٣) ذكره العجلونى فى كشف الخفاء ١١٢/٢ ثم قال : رواه الطبرانى والبيهقى والقضاعى والعسكرى أيضاً عن عمار بن ياسر رفعه بلفظه السابق . وذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد فى كتاب الزهد باب ذكر الموت ٣٠٨/١٠ ، ثم قال : رواه الطبرانى وفيه الربيع بن بدر وهو متروك .

(٤) ذكره صاحب إتحاف السادة المتقين فى ٢٢٩/١٠ ثم قال عنه : قال العراقى : رواه ابن ابى الدنيا فى الموت من حديث ابن عمر بإسناد ضعيف أ هـ . ثم قال : قلت هذا الشطر الأخير لو تعلمون ما أعلم إلخ متفق عليه من حديث أنس وعائشة ، وفى الباب عن أبى هريرة وجماعة تقدم ذكره وقد روى البيهقى فى الشعب عن نافع عن ابن عمر مرفوعاً « أكثروا ذكر هازم اللذات فإنه لا يكون فى كثير إلا قلله ولا فى قليل إلا كثره أ هـ .

(٥) ذكره الهيثمى فى كتاب الزهد باب ذكر الموت ٣٠٩/١٠ . ثم قال : رواه البزار وفيه يوسف ابن عطية وهو متروك .

وقال ابن عمر رضى الله عنهما : أتيت النبى ﷺ ـ عاشر عشرة ـ فقال رجل من الأنصار : من أكيس الناس وأكرم الناس يا رسول الله ؟ فقال: « أكثرهم ذكراً للموت وأشدهم استعداداً له أولئك هم الأكياس ذهبوا بشرف الدنيا وكرامة الآخرة »[1] .

* * *

(١) أخرجه ابن ماجة فى كتاب الزهد باب ذكر الموت ١٤٢٣/٢ وفى الزوائد فروة بن قيس مجهول ، وكذلك الرواى عنه وخبره باطل قاله الذهبى فى طبقات التهذيب . وذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد فى كتاب الزهد باب ذكر الموت ٣٠٩/١٠ . ثم قال : قلت : رواه ابن ماجة باختصار ورواه الطبرانى فى الصغير وإسناده حسن . ٨٧/٢ وقال: لم يروه عن مالك بن مغول إلا يحيى بن سعيد ، ولا رواه عن معلى الكندى إلا مالك بن مغول ، والطبرى فى جامع البيان ٢٠/٨ .

البحث الثالث

الاثار فى فضل ذكر الموت

وأما الآثار :

فقد قال الحسن رحمه الله تعالى فضح الموت الدنيا فلم يترك لذى لب فرحا .

وقال الربيع بن خيثم : ما غائب ينتظره المؤمن خيراً له من الموت .

وكان يقول : لا تشعروا بى أحداً وسلونى إلى ربى سلا .

وكتب بعض الحكماء إلى رجل من إخوانه : يا أخى احذر الموت فى هذه الدار قبل أن تصير إلى دار تتمنى فيها الموت فلا تجده .

وكان ابن سيرين إذا ذكر عنده الموت مات كل عضو منه .

وكان عمر بن عبد العزيز يجمع كل ليلة الفقهاء فيتذاكرون الموت والقيامة والآخرة ، ثم يبكون حتى كأن بين أيديهم جنازة .

وقال إبراهيم التيمى : شيئان قطعا عنى لذة الدنيا ؛ ذكر الموت والوقوف بين يدى الله عز وجل .

وقال كعب : من عرف الموت هانت عليه مصائب الدنيا وهمومها .

وقال مطرف : رأيت فيما يرى النائم كأنّ قائلاً يقول ـ فى وسط مسجد البصرة ـ قطع ذكر الموت قلوب الخائفين فوالله ما تراهم إلا والهين .

وقال أشعث : كنا ندخل على الحسن فإنما هو النار وأمر الآخرة وذكر الموت .

وقالت صفية رضى الله تعالى عنها : إنّ امرأة اشتكت إلى عائشة رضى الله عنها قساوة قلبها فقالت : أكثرى ذكر الموت يرِقّ قلبك ، ففعلت فرَق قلبها فجاءت تشكر عائشة رضى الله عنها .

وكان عيسى عليه السلام إذ ذكر الموت عنده يقطر جلده دماً .

وكان داود عليه السلام إذ ذكر الموت والقيامة يبكى حتى تنخلع أوصاله ، فإذا ذكر الرحمة رجعت إليه نفسه .

وقال الحسن : ما رأيت عاقلاً قط إلا أصبته من الموت حَذِراً وعليه حزيناً .

وقال عمر بن عبد العزيز لبعض العلماء : عظنى ؛ فقال : لست أوّل خليفة تموت ؟ قال زدنى ، قال : ليس من آبائك أحد إلى آدم إلا ذاق الموت وقد جاءت نوبتك ، فبكى عمر لذلك .

وكان الربيع بن خيثم قد حفر قبراً فى داره فكان ينام فيه كل يوم مرات يستديم بذلك ذكر الموت .

وكان يقول : لو فارق ذكر الموت قلبى ساعة واحدة لفسد .

وقال مطرف بن عبد الله بن الشخير : إنّ هذا الموت قد نغص على أهل النعيم نعيمهم فاطلبوا نعيماً لا موت فيه .

وقال عمر بن عبد العزيز لعنبسة : أكثر ذكر الموت فإن كنت واسع العيش ضيقه عليك ، وإن كنت ضيق العيش وسعه عليك .

وقال أبو سليمان الدارانى : قلت لأم هرون : أتحبين الموت ؟ قالت : لا ، قلت : لم ؟ قالت : لو عصيت آدمياً ما اشتهيت لقاءه فكيف أحب لقاءه وقد عصيته .

* * *

البحث الرابع

بيان الطريق فى تحقيق ذكر الموت

اعلم أن الموت هائل وخطره عظيم وغفلة الناس عنه لقلة فكرهم فيه وذكرهم له .

ومن يذكره ليس يذكره بقلب فارغ ، بل بقلب مشغول بشهوة الدنيا، فلا ينجع ذكر الموت فى قلبه .

فالطريق فيه أن يفرغ العبد قلبه عن كل شئ إلا عن ذكر الموت الذى هو بين يديه ، كالذى يريد أن يسافر إلى مفازة مخطرة أو يركب البحر فإنه لا يتفكر إلا فيه ، فإذا باشر ذكر الموت قلبه فيوشك أن يؤثر فيه وعند ذلك يقل فرحه وسروره بالدنيا وينكسر قلبه .

وأنجع طريق فيه أن يكثر ذكر أشكاله وأقرانه الذين مضوا قبله .

فيتذكر موتهم ومصرعهم تحت التراب .

ويتذكر صورهم فى مناصبهم وأحوالهم .

ويتأمل كيف محا التراب الآن حسن صورهم ، وكيف تبدّدت أجزاؤهم فى قبورهم ، وكيف أرملوا نساءهم وأيتموا أولادهم وضيعوا أموالهم ، وخلت منهم مساجدهم ومجالسهم وانقطعت آثرهم ؟ .

فمهما تذكر رجل رجلاً وفصل فى قلبه حاله ، وكيفية موته وتوهم صورته ، وتذكر نشاطه وتردّده وتأمله للعيش والبقاء ، ونسيانه للموت وانخداعه بمواتاة الأسباب ، وركونه إلى القوة والشباب ، وميله إلى الضحك واللهو ، وغفلته عما بين يديه من الموت الذريع والهلاك السريع ، وأنه كيف كان يتردّد والآن قد تهدّمت رجلاه ومفاصله ؟ وأنه كيف كان ينطق وقد أكل الدود لسانه ؟ وكيف كان يضحك وقد أكل التراب أسنانه ؟ وكيف

كان يدبر لنفسه ما لا يحتاج إليه – إلى عشر سنين – فى وقت لم يكن بينه وبين الموت إلا شهر وهو غافل عما يراد به ، حتى جاءه الموت فى وقت لم يحتسبه ، فانكشف له صورة الملك وقرع سمعه النداء إما بالجنة أو بالنار ؟

فعند ذلك ينظر فى نفسه أنه مثلهم وغفلته كغفلتهم وستكون عاقبته كعاقبتهم .

* * *

قال أبو الدرداء رضى الله عنه : إذ ذكرت الموتى فعدّ نفسك كأحدهم.

وقال ابن مسعود رضى الله عنه : السعيد من وعظ بغيره .

وقال عمر بن عبد العزيز : ألا ترون أنكم تجهزون كل يوم غادياً أو رائحاً إلى الله عز وجل تضعونه فى صدع من الأرض قد توسد التراب وخلف الأحباب وقطع الأسباب ؟ .

فملازمة هذه الأفكار وأمثالها .

مع دخول المقابر .

ومشاهدة المرضى .

هو الذى يجدّد ذكر الموت فى القلب حتى يغلب عليه بحيث يصير نصب عينيه .

فعند ذلك يوشك أن يستعد له ويتجافى عن دار الغرور .

وإلا فالذكر بظاهر القلب وعذبة اللسان قليل الجدوى فى التحذير والتنبيه .

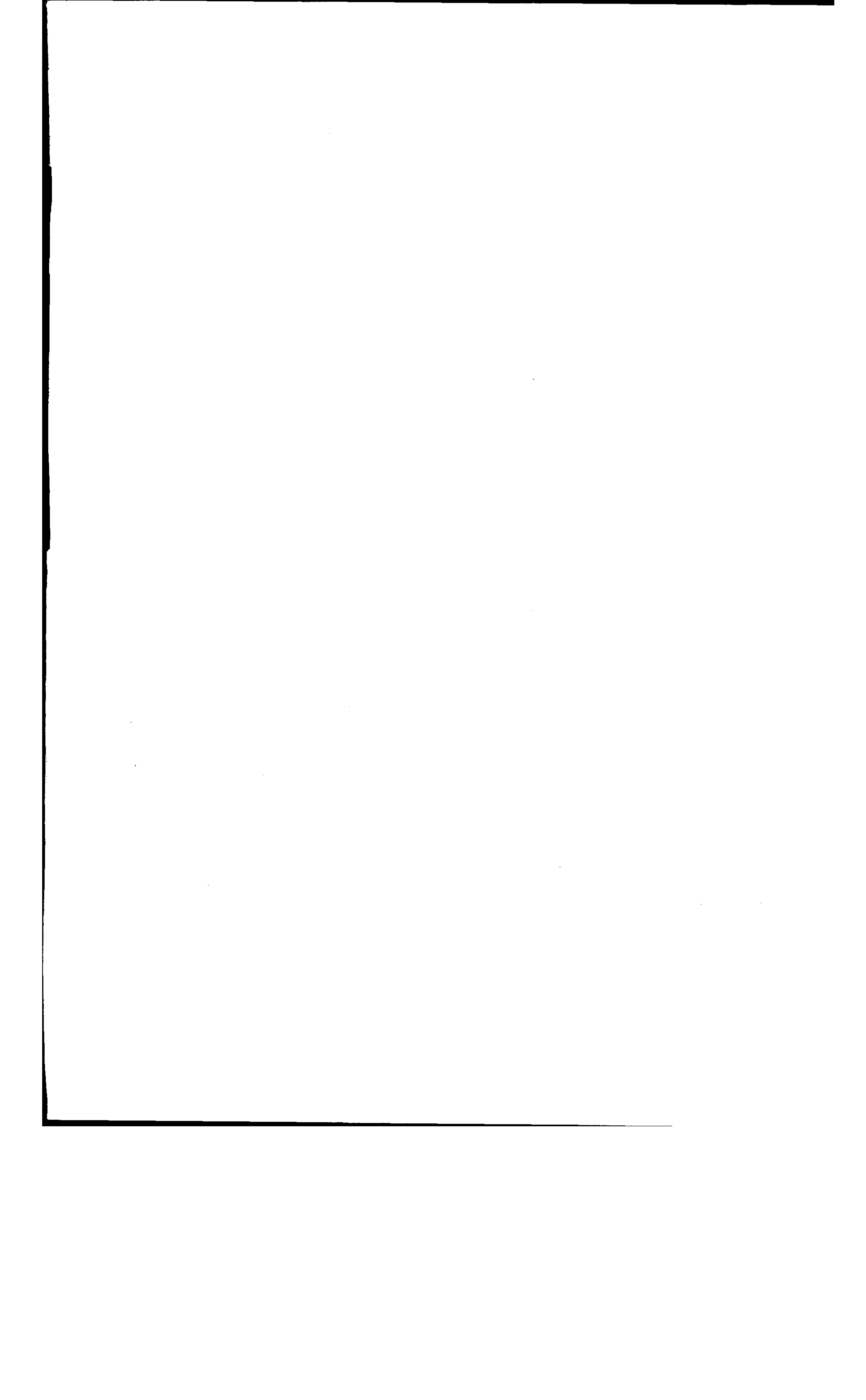
ومهما طاب قلبه بشيء من الدنيا ينبغى أن يتذكر فى الحال أنه لا بده له من مفارقته .

نظر ابن مطيع ذات يوم إلى داره فأعجبه حسنها ثم بكى فقال :

والله لولا الموت لكنت بك مسروراً ولولا ما نصير إليه من ضيق القبور لقرّت بالدنيا أعيننا .

ثم بكى بكاءً شديداً حتى ارتفع صوته .

* * *



الفصل الثانى :

« الأمـــل »

وفيه :

البحث الأول : فضيلة قصر الأمل .

البحث الثانى : السبب فى طول الأمل وعلاجه .

البحث الثالث : مراتب النـاس فى طـول الأمـل وقصره .

البحث الرابع : بيان المبادرة إلى العمل .. إلخ .

البحث الأول

فضيلة قصر الأمل

قال رسول الله ﷺ لعبد الله بن عمر « إذا أصبحت فلا تحدّث نفسك بالمساء بالماء ، وإذا أمسيت فلا تحدّث نفسك بالصباح وخذ من حياتك لموتك، ومن صحتك لسقمك، فإنك يا عبد الله لاتدرى ما اسمك غداً »[1]

وروى عليّ كرّم الله وجهه أنه صلى الله عليه وسلم قال : « إنّ أشدّ ما أخاف عليكم خصلتان : اتباع الهوى وطول الأمل ، فأما اتباع الهوى فإنه يصد عن الحق ، وأما طول الأمل فإنه الحب للدنيا» ثم قال : « ألا إن الله تعالى يعطى الدنيا من يحب ويبغض ، وإذا أحب عبداً أعطاه الإيمان ، ألا إن للدين أبناء وللدنيا أبناء فكونوا من أبناء الدين ولا تكونوا من أبناء الدنيا ، ألا إن الدنيا قد ارتحلت مولية ألا إن الآخرة قد ارتحلت مقبلة ، ألا وإنكم فى يوم عمل ليس فيه حساب ، ألا وإنكم توشكون فى يوم حساب ليس فيه عمل »[2] .

وقالت أم المنذر: اطلع رسول الله ﷺ ذات عشية إلى الناس فقال: « أيها الناس أما تستحون من الله » قالوا : وما ذاك يا رسول الله ؟ قال : « تجمعون مالاً تأكلون وتأملون ما لا تدركون وتبنون ما لا تسكنون »[3] .

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب الرقاق باب قول النبى ﷺ : « كن فى الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل » (٢٣٣/١١) .

(٢) ذكره صاحب إتحاف السادة المتقين (٢٣٧/١٠) ثم قال عنه : قال العراقى رواه بطوله ابن أبى الدنيا فى كتاب قصر الأمل . ورواه أيضاً من حديث جابر : « أخوف ما أخاف على أمتى الهوى وطول الأمل ، وروى ابن النجار : من حديثه بلفظ « أخوف ما أخاف عليكم طول الأمل واتباع الهوى .. إلخ ، ورواه ابن الجوزى فى العلل المتناهية (٣٢٩/٢) ثم قال عنه : وهذا لا يصح عن رسول الله ﷺ ولا أبوه واليمان قد ضعفه الدارقطنى : وقال يحيى : محمد بن الحسن : ليس بشىء. وقال ابن حبان : لا يحتج به . وقال أبو زرعة وأبو حاتم الرازيان : منكر الحديث .

(٣) ذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد (٢٨٤/١٠) فى كتاب الزهد باب الحياء من الله عز =

وقال أبو سعيد الخدرى : اشترى أسامة بن زيد من زيد بن ثابت وليدة بمائة دينار - إلى شهر - فسمعت رسول الله ﷺ يقول[1] : « ألا تعجبون من أسامة المشترى إلى شهر ، إن أسامة لطويل الأمل ، والذى نفسى بيده ما طرفت عيناى إلا ظننت أنّ شفرى لا يلتقيان حتى يقبض الله روحى ولا رفعت طرفي فظننت أنى واضعه حتى أقبض ، ولا لقمت لقمة إلا ظننت أنى لا أسيغها حتى أغصّ بها من الموت » ثم قال : « يا بنى آدم إن كنتم تعقلون فعدّوا أنفسكم من الموتى والذى نفسى بيده ﴿ **إن ما توعدون لآت وما أنتم بمعجزين** ﴾[2] .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما : أن رسول الله ﷺ كان يخرج يهريق الماء فيتمسح بالتراب ، فأقول له : يا رسول الله إن الماء منك قريب فيقول : « ما يدرينى لعلى لا أبلغه »[3] .

= وجل ، ثم قال : رواه الطبرانى وفيه الوازع بن نافع وهو متروك ، وذكره صاحب إتحاف السادة المتقين (١٠/٢٣٧) ثم قال عنه : قال العراقى : رواه ابن أبى الدنيا ومن طرقه فى الشعب بإسناد ضعيف وقد تقدم أ هـ . قلت : الذى تقدم أنه من حديث أم الوليد بنت عمر بن الخطاب ذكرها الدارقطنى فى الأخوة ، وقال روى حديثها الطبرانى وفيه نظر أ هـ . قال الحافظ فى الإصابة حديثها أنها قالت : « اطلع رسول الله ﷺ ذات عشية فقال : « أيها الناس ألا تستحون ؟ » قالوا م ذلك يا رسول الله .. إلخ . أخرجه الطبرانى من رواية عثمان بن عبد الرحمن الطرائفى عن الوازع بن نافع عن سالم بن عبد الله بن عمر عنها وقال ابن منده ورواه سعيد بن عبد الحميد بن جعفر عن على بن ثابت عن الوازع بن نافع نحوه . قال الحافظ والطريقان ضعيفان أ هـ .

(١) ذكره المنذرى فى الترغيب والترهيب فى كتاب التوبة والزهد باب الترغيب فى ذكر الموت وقصر الأجل (٤/٢٤٢) وقال عنه : رواه ابن أبى الدنيا فى كتاب قصر الأمل ، وأبو نعيم فى الحلية والبيهقى والأصبهانى أ هـ . وذكره السيوطى فى الدر المنثور (٣/٤٧) ثم قال : أخرجه ابن أبى الدنيا فى كتاب الأمل وابن أبى حاتم والبيهقى فى الشعب .

وذكره صاحب إتحاف السادة المتقين (١٠/٢٣٨) ثم قال عنه : قال العراقى : رواه ابن أبى الدنيا فى قصر الأمل والطبرانى فى مسند الشاميين وأبو نعيم فى الحلية والبيهقى فى الشعب بسند ضعيف أ هـ . ثم قال أيضاً قلت: ورواه كذلك ابن عساكر فى التاريخ أ هـ

(٢) الاية ١١٤ من سورة الأنعام .

(٣) أخرجه الإمام أحمد فى المسند ٢٨٨/١ ، ٣٠٣ عن ابن عباس . وذكره صاحب إتحاف السادة المتقين ٢٣٨/١٠) ثم قال عنه : قال العراقى : رواه ابن المبارك فى الزهد وابن أبى الدنيا فى قصر الأمل والبزار بسند ضعيف أ هـ .

وروى أنه صلى الله عليه وسلم أخذ ثلاثة أعواد فغرز عوداً بين يديه ، والآخر إلى جنبه ، وأما الثالث فأبعده ، فقال : « هل تدرون ما هذا ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : « هذا الإنسان وهذا الأجل وذاك الأمل يتعاطاه ابن آدم ويختلجه الأجل دون الأمل »[1] .

وقال عليه السلام : « مثل ابن آدم وإلى جنبه تسع وتسعون منية إن أخطأته المنايا وقع في الهرم »[2] .

قال ابن مسعود : هذا المرء وهذه الحتوف حوله شوارع إليه ، والهرم وراء الحتوف ، والأمل وراء الهرم ، فهو يؤمل وهذه الحتوف شوارع إليه فأيها أمر به أخذه ، فإن أخطأته الحتوف قتله الهرم وهو ينتظر الأمل .

قال عبد الله خط لنا رسول الله ﷺ خطًّا مربعاً ، وخط وسطه خطًّا ، وخط خطوطاً إلى جنب الخط ، وخط خطًّا خارجاً وقال : « أتدرون ما هذا ؟ » قلنا الله ورسوله أعلم ، قال : « هذا الإنسان ـ للخط الذى فى الوسط ـ وهذا الأجل محيط به ، وهذه الأعراض ـ للخطوط التى حوله ـ تنهشه ، إن أخطأه هذا نهشه هذا ، وذاك الأمل ـ يعنى الخط الخارج »[3] .

وقال أنس : قال رسول الله ﷺ : « يهرم ابن آدم ويبقى معه اثنتان أثنتان الحرص والأمل »[4] وفى رواية : « وتشب معه اثنتان الحرص على المال والحرص على العمر » .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بلفظ قريب (٣٨٥/١) وذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد (٢٥٥/١٠) وقال عنه : رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح غير على بن على الرفاعى وهو ثقة .

(٢) أخرجه الترمذى فى كتاب صفة القيامة (٥٣/٤) باب ١٤ وقال أبو عيسى هذا حديث حسن صحيح .

(٣) أخرجه البخارى فى كتاب الرقاق باب فى الأمل وطوله (٢٣٥/١١) فتح البارى ، وابن ماجه فى المقدمة باب اتباع سنة الرسول (٦/١) وأحمد فى المسند ٩٢/١٥ ، ٣١٦/٢ ، ٣٨٥) .

(٤) أخرجه مسلم فى الزكاة باب كراهة الحرص على الدنيا (١٣٨/٧) وابن ماجه فى كتاب الزهد باب الأمل والأجل (١٤١٥/٢) وأحمد فى المسند (١١٥/٣ ، ١١٩ ، ١٦٩ ، ١٩٢ ، ٢٥٦) والترمذى فى كتاب صفة القيامة (٥٣/٤) باب ١٤ ، وقال أبو عيسى فى هذا حديث صحيح .

وقال رسول الله ﷺ : « نجا أوّل هذه الأمة باليقين والزهد ويهلك آخر هذه الأمة بالبخل والأمل »[١] .

وقيل بينما عيسى عليه السلام جالس وشيخ يعمل بمسحاة يثير بها الأرض ، فقال عيسى : اللهم انزع منه الأمل ، فوضع الشيخ المسحاة واضطجع فلبث ساعة ، فقال عيسى اللهم اردد إليه الأمل ، فقام فجعل يعمل فسأله عيسى عن ذلك فقال : بينما أنا أعمل إذ قلت لى نفسى : إلى متى تعمل وأنت شيخ كبير ! فألقيت المسحاة واضطجعت ثم قالت لى نفسى : والله لا بد لك من عيش ما بقيت ، فقمت إلى مسحاتى .

وقال الحسن : قال رسول الله ﷺ : « أكلكم يحب أن يدخل الجنة ؟ » قالوا : نعم يا رسول الله قال : « قصروا من الأمل وثبتوا آجالكم بين أبصاركم واستحيوا من الله حق الحياء »[٢] .

وكان صلى الله عليه وسلم يقول فى دعائه : « اللهم إنى أعوذ بك من دنيا تمنع خير الآخرة ، وأعوذ بك من حياة تمنع خير الممات ، وأعوذ بك من أمل يمنع خير العمل »[٣] .

---

(١) ذكر المنذرى فى الترغيب والترهيب فى كتاب التوبة والزهد باب الترغيب فى ذكر الموت وقصر الأمل (٢٤١/٤) ثم قال : ورواه ابن أبى الدنيا والأصبهانى وكلاهما من طريق ابن لهيعة عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أ هـ . وكما ذكره صاحب اتحاف السادة المتقين فى (٢٣٩/١٠) ثم قال عنه : قال العراقى رواه ابن أبى الدنيا فى قصر الأمل من رواية ابن لهيعة عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أ هـ . ثم قال كذلك : قالت : وكذا رواه أبو بكر بن لال فى مساوى الأخلاق والخطيب فى كتاب البخلاء وابن لهيعة لا يحتج به ثم إن المذموم من ذلك الاسترسال أ هـ . وانظر فيض القدير (٢٨١/٦ ، ٢٨٢) .

(٢) ذكر صاحب الاتحاف فى (٢٣٩/١٠ ، ٢٤٠) ثم قال عنه : قال العراقى : رواه ابن أبى الدنيا فى قصر الأمل هكذا من حديث الحسن مرسلاً أ هـ . قلت : والشطر الأخير رواه أحمد والترمذى من حديث ابن مسعود والخرائطى من حديث عائشة والطبرانى فى الأوسط من حديث الحكم بن عمير أ هـ .

(٣) ذكر صاحب الإتحاف فى (٢٤٠/١٠) ثم قال عنه : قال العراقى : رواه ابن أحمد فى قصر الأمل من رواية حوشب عن النبى ﷺ وفى إسناده ضعف وجهالة ولا أدرى من حوشب أ هـ . وقال أيضاً : رواه ابن أبى الدنيا فى كتاب اليقين ووجدت بخط الشيخ شمس الدين الداودى ما نصه : =

الآثار :

قال مطرف بن عبد الله : لو علمت متى أجلى لخشيت على ذهاب عقلى ؟ ولكن الله تعالى منّ على عباده بالغفلة عن الموت ولولا الغفلة ما تهنأوا بعيش ولا قامت بينهم الأسواق .

وقال الحسن : السهو والأمل نعمتان عظيمتان على بنى آدم ولولاهما ما مشى المسلمون فى الطرق .

وقال الثورى : بلغنى أن الإنسان خلق أحمقا ولولا ذلك لم يهنأه العيش .

وقال أبو سعيد بن عبد الرحمن : إنما عمرت الدنيا بقلة عقول أهلها .

وقال سلمان الفارسى رضى الله عنه : ثلاث أعجبتنى حتى أضحكتنى، مؤمل الدنيا والموت يطلبه ، وغافل وليس يغفل عنه ، وضاحك ملء فيه ولا يدرى أساخط رب العالمين عليه أم راض ، وثلاث أحزنتنى حتى أبكتنى : فراق الأحبة ـ محمد وحزبه ـ وهول المطلع والوقوف بين يدى الله ولا أدرى إلى الجنة يؤمر بى أو إلى النار .

وقال بعضهم : رأيت زرارة بن أبى أوفى بعد موته فى المنام فقلت : أى الأعمال أبلغ عندكم ؟ قال التوكل وقصر الأمل .

وقال الثورى : الزهد فى الدنيا قصر الأمل ، ليس بأكل الغليظ ولا لبس العباءة .

وسأل المفضل بن فضالة ربه أن يرفع عنه الأمل فذهبت عنه شهوة

= هو تابعى صغير وله رواية عن الحسن فى كتاب ابن أبى الدنيا أيضاً أ هـ . قلت : هذا التابعى الذى ذكره له ذكر فى الحلية فى ترجمة محمد بن واسع من طريق عبد الواحد بن زياد قال : سمعت مالك بن دينار يقول لحوشب لا تمت وأنت شبعان ودع الطعام وأنت تشتهيه فقال حوشب هذا وصف أطباء أهل الدنيا قال : ومحمد بن واسع يسمع كلاهما فقال : نعم . ووصف أطباء أهل الآخرة فقال مالك : بخ بخ دواء للدين والدنيا وفى الصحابة اثنان يقال لهما حوشب كل منهما غير منسوب لأحدهما رواية فى مسند أحمد والثانى فى مسند الحسن بن سفيان والنوادر للحكيم فليحرر . والله أعلم أ هـ .

الطعام والشراب ، ثم دعا ربه فردّ عليه الأمل ، فرجع إلى الطعام والشراب .

وقيل للحسن : يا أبا سعيد ألا تغسل قميصك ؟ فقال الأمر أعجل من ذلك .

وقال الحسن : الموت معقود بنواصيكم والدنيا تطوى من ورائكم .

وقال بعضهم أنا كرجل مادّ عنقه والسيف عليه ينتظر متى تضرب عنقه ؟ .

وقال داود الطائى : لو أملت أن أعيش شهراً لرأيتنى قد أتيت عظيماً ، وكيف أؤمل ذلك وأرى الفجائع تغشى الخلائق فى ساعات الليل والنهار ؟.

وحكى أنه جاء شقيق البلخى إلى أستاذ له يقال له أبو هاشم الرمانى ـ وفى طرف كسائه شيء مصرور ـ فقال له أستاذه : إيش هذا معك ؟ فقال : لوزات دفعها إلىّ أخ لى وقال : أحب أن تفطر عليها ، فقال يا شقيق وأنت تحدث نفسك أنك تبقى إلى الليل لا كلمتك أبداً ، قال : فأغلق فى وجهى الباب ودخل .

وقال عمر بن العزيز فى خطبته : إن لكل سفر زاداً لا محالة فتزوّدوا لسفركم من الدنيا إلى الآخرى بالتقوى، وكونوا كمن عاين ما أعدّ الله من ثوابه وعقابه ترغبوا وترهبوا ، ولا يطولن عليكم الأمد فتقسو قلوبكم وتنقادوا لعدوكم ، فإنه والله ما بسط أمل من لا يدرى لعله لا يصبح بعد مسائه ولا يمسى بعد صباحه ، وربما كانت بين ذلك خطفات المنايا ، وكم رأيت ورأيتم من كان بالدنيا مغتراً ، وإنما تقرّ عين من وثق بالنجاة من عذاب الله تعالى ، وإنما يفرح من أمن من أهوال القيامة ، فأما من لا يداوى كلما إلا أصابه جرح من ناحية أخرى فكيف يفرح ؟ أعوذ بالله من أن آمركم بما لا أنهى عنه نفسى فتخسر صفقتى وتظهر عيبتى ، وتبدو مسكنتى فى يوم يبدو فيه الغنى والفقر والموازين فيه منصوبة ، لقد عنيتم بأمر لو عنيت به النجوم لانكدرت ولو عنيت به الجبال لذابت ، ولو عنيت به الأرض لتشققت ، أما تعلمون أنه ليس بين الجنة والنار منزلة وإنكم صائرون إلى إحداهما .

وكتب رجل إلى أخ له : أما بعد ؛ فإن الدنيا حلم والآخرة يقظة والمتوسط بينهما الموت ونحن فى أضغاث أحلام والسلام .

وكتب آخر إلى أخ له : إن الحزن على الدنيا طويل والموت من الإنسان قريب ، وللنقص فى كل يوم منه نصيب ، وللبلاء فى جسمه دبيب ، فبادر قبل أن تنادى بالرحيل والسلام .

وقال الحسن : كان آدم عليه السلام ـ قبل أن يخطئ ـ أمله خلف ظهره وأجله بين عينيه ، فلما أصاب الخطيئة حوّل فجعل أمله بين عينيه وأجله خلف ظهره .

وقال عبد الله بن سميط : سمعت أبى يقول : أيها المغتر بطول صحته أما رأيت ميتاً قط من غير سقم ، أيها المغتر بطول المهلة أما رأيت مأخوذاً قط من غير عدة ، إنك لو فكرت فى طول عمرك لنسيت ما قد تقدّم من لذاتك أبالصحة تغترون أم بطول العافية تمرحون ؟ أم الموت تأمنون ؟ أم على ملك الموت تجترئون ؟ إن ملك الموت إذا جاء لا يمنعه منك ثروة مالك ، ولا كثرة احتشادك ، أما علمت أن ساعة الموت ذات كرب وغصص وندامة على التفريط ؟ ثم يقال رحم الله عبداً عمل لما بعد الموت ، ورحم الله عبدالله نظر لنفسه قبل نزول الموت .

وقال أبو زكريا التيمى : بينما سليمان بن عبد الملك فى المسجد الحرام إذ أتى بحجر منقور ، فطلب من يقرؤه ، فأتى بوهب بن منبه فإذا فيه : ابن آدم إنك لو رأيت قرب ما بقى من أجلك لزهدت فى طول أملك ولرغبت فى الزيادة من عملك ، ولقصرت من حرصك وحيلك ، وإنما يلقاك غداً ندمك لو قد زلت بك قدمك وأسلمك أهلك وحشمك وفارقك الوالد والقريب، ورفضك الولد والنسيب، فلا أنت إلى دنياك عائد ولا فى حسناتك زائد ، فاعمل ليوم القيامة قبل الحسرة والندامة، فبكى سليمان بكاء شديداً .

وقال بعضهم : رأيت كتاباً من محمد بن يوسف إلى عبد الرحمن بن يوسف ؛ سلام عليك فإنى أحمد الله إليك الذى لا إله إلا هو أما بعد فإنى

أحذرك متحولك من دار مهلتك إلى دار إقامتك وجزاء أعمالك ، فتصير فى قرار باطن الأرض بعد ظاهرها ، فيأتيك منكر ونكير فيعقدانك وينتهرانك ، فإن يكن الله معك فلا يأس ولا وحشة ولا فاقة ، وإن يكن غير ذلك فأعاذنى الله وإياك من سوء مصرع وضيق مضجع ، ثم تبلغك صيحة الحشر ونفخ الصور وقيام الجبار لفصل قضاء الخلائق ، وخلاء الأرض من أهلها والسموات من سكانها ، فباحت الأسرار ، وأسعرت النار ، ووضعت الموازين، وجيء بالنبيين والشهداء وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين ، فكم من مفتضح ومستور ؟ وكم من هلك وناج ؟ وكم من معذب ومحروم ؟ فياليت شعرى ما حالى وحالك يومئذ ففى هذا ما هدم اللذات ، وأسلى عن الشهوات ، وقصر عن الأمل ، وأيقظ النائمين وحذر الغافلين ، أعاننا الله وإياكم على هذا الخطر العظيم ، وأوقع الدنيا والآخرة من قلبى وقلبك موقعهما من قلوب المتقين ، فإنما نحن به وله والسلام .

وخطب عمر بن عبد العزيز ؛ فحمد الله وأثنى عليه وقال : أيها الناس إنكم لم تخلقوا عبثاً ولن تتركوا سدى ، وإ ن لكم معاداً يجمعكم الله فيه للحكم والفصل فيما بينكم ، فخاب وشقى غداً عبد أخرجه الله من رحمته التى وسعت كل شيء وجنته التى عرضها السموات والأرض ، وإنما يكون الأمان غداً لمن خاف واتقى وبا ع قليلاً بكثير وفانياً بباق وشقوة بسعادة ، ألا ترون أنكم فى أسلاب الهالكين وسيخلف بعدكم الباقون ؟! ألا ترون أنكم فى كل يوم تشيعون غادياً ورائحاً إلى الله عز وجل قد قضى نحبه وانقطع أمله فتضعونه فى بطن صدع من الأرض غير موسد ولا ممهد ، قد خلق الأسباب وفارق الأحباب وواجه الحساب ؟! وأيم الله إنى لأقول مقالتى هذه ولا أعلم عند أحدكم من الذنوب أكثر مما أعلم من نفسى ، ولكنها سنن من الله عادلة أمر فيها بطاعته ، وأنهى فيها عن معصيته واستغفر الله . ووضع كمه على وجهه وجعل يبكى حتى بلت دموعه لحيته وما عاد إلى مجلسه حتى مات .

وقال القعقاع بن حكيم : قد استعددت للموت منذ ثلاثين سنة فلو أتانى ما أحببت تأخير شيء عن شيء .

وقال الثورى : رأيت شيخاً فى مسجد الكوفة يقول : أنا فى هذا المسجد منذ ثلاثين سنة أنتظر الموت أن ينزل بى ، ولو أتانى ما أمرته بشيء ولا نهيته عن شيء ، ولا لى على أحد شيء ولا لأحد عندى شيء .

وقال عبد الله بن ثعلبة : تضحك ولعل أكفانك قد خرجت من عند القصار .

وقال أبو محمد بن على الزاهد : خرجنا فى جنازة بالكوفة وخرج فيها داود الطائى فانتبذ فقعد ناحية وهى تدفن ، فجئت فقعدت قريباً منه فتكلم فقال : من خاف الوعيد قصر عليه البعيد ، ومن طال أمله ضعف عمله وكل ما هو آت قريب ، واعلم يا أخى أن كل شيء يشغلك عن ربك فهو عليك مشئوم ، واعلم أن أهل الدنيا جميعاً من أهل القبور إنما يندمون على ما يخلفون ويفرحون بما يقدمون ، فما ندم عليه أهل القبور أهل الدنيا عليه يقتتلون وفيه يتنافسون وعليه عند القضاة يختصمون .

وروى أن معروفاً الكرخى رحمه الله تعالى أقام الصلاة ، قال محمد ابن أبى توبة فقال لى : تقدم ، فقلت : إنى إن صليت بكم هذه الصلاة لم أصل بكم غيرها ، فقال معروف : وأنت تحدث نفسك أن تصلى صلاة أخرى نعوذ بالله من طول الأمل فإنه يمنع من خير العمل .

وقال عمر بن عبد العزيز فى خطبته : إن الدنيا ليست بدار قراركم دار كتب الله عليها الفناء ، وكتب على أهلها الظعن عنها ، فكم من عامر موثق عما قليل يخرب ، وكم من مقيم مغتبط عما قليل يظعن ، فأحسنوا رحمكم الله منها الرحلة بأحسن ما بحضرتكم من النقلة وتزوّدوا فإن خير الزاد التقوى ، إنما الدنيا كفيء ظلال قلص فذهب ، بينا ابن آدم فى الدنيا ينافس وهو قرين العين إذ دعاه الله بقدره ورماه بيوم حتفه فسلبه آثاره ودنياه؛

وصير لقوم آخرين مصانعه ومغناه ، إن الدنيا لا تسر بقدر ما تضرّ إنها تسر قليلاً وتحزن طويلاً .

وعن أبى بكر الصدّيق رضى الله تعالى عنه أنه كان يقول فى خطبته : أين الوضاءة الحسنة وجوههم المعجبون بشبابهم ؟ أين الملوك الذين بنوا المدائن وحصنوها بالحيطان ؟ أين الذين كانوا يعطون الغلبة فى مواطن الحرب ؟ قد تضعضع بهم الدهر فأصبحوا فى ظلمات القبور ألوَحا الوحا ثم النَّجَا النجا ! .

* * *

البحث الثانى

بيان السبب فى طول الأمل وعلاجه

اعلم أن طول الأمل له سببان ؛ أحدهما : الجهل ، والآخر : حب الدنيا .

أما حب الدنيا : فهو أنه إذا أنس بها وبشهواتها ولذاتها وعلائقها ثقل على قلبه مفارقتها ، فامتنع طلبه عن الفكر فى الموت هو سبب مفارقتها ، وكان من كره شيئاً دفعه عن نفسه . والإنسان مشغوف بالأمانى الباطلة ، فيمنى نفسه أبداً بما يوافق مراده ، وإنما يوافق مراده البقاء فى الدنيا ، فلا يزال يتوهمه ويقدّره فى نفسه ويقدّر توابع البقاء ، وما يحتاج إليه من مال وأهل ودار وأصدقاء ودواب وسائر أسباب الدنيا ، فيصير قلبه عاكفاً على هذا الفكر موقوفاً عليه ، فيلهو عن ذكر الموت فلا يقدّر قربه ، فإن خطر له فى بعض الأحوال أمر الموت والحاجة إلى الاستعداد له سوّف ووعد نفسه وقال : الأيام بين يديك إلى أن تكبر ثم تتوب ، وإذا كبر فيقول : إلى أن تصير شيخاً ، فإذا صار شيخاً قال : إلى أن تفرغ من بناء هذه الدار وعمارة هذه الضيعة ، أو ترجع من هذه السفرة ، أو تفرغ من تدبير هذا الولد وجهازه وتدبير مسكن له ، أو تفرغ من قهر هذا العدوّ الذى يشمت بك ، فلا يزال يسوّف ويؤخر ، ولا يخوض فى شغل إلا ويتعلق بإتمام ذلك الشغل عشرة أشغال أخر ، وهكذا على التدريج يؤخر يوماً بعد يوم ، ويفضى به شغل إلى شغل، بل إلى أشغال إلى أن تختطفه المنية فى وقت لا يحتسبه ، فتطول عند ذلك حسرته . وأكثر أهل النار وصياحهم من سوْف يقولون : واحزناه من سوف. والمسوّف المسكين لايدرى أن الذى يدعوه إلى التسويف اليوم هو معه غداً، وإنما يزداد بطول المدة قوة ورسوخاً، ويظن أنه يتصوّر أن يكون للخائض فى الدنيا والحافظ لها فراغ قط وهيهات ! فما يفرغ منها إلا من طرحها .

فما قضى أحد منها لُبَانَتَهُ وما انتهى أَرَبٌ إلا إلى أرب

وأصل هذه الأمانى كلها حب الدنيا والأنس بها والغفلة عن معنى قوله صلى الله عليه وسلم : « أحبب من أحببت فإنك مفارقه » [1] .

وأما الجهل : فهو أن الإنسان قد يعوّل على شبابه فيستبعد قرب الموت مع الشباب ، وليس يتفكر المسكين أن مشايخ بلده لو عدّوا لكانوا أقل من عشر رجال البلد ، وإنما قلوا لأن الموت فى الشباب أكثر ، فإلى أن يموت شيخ يموت ألف صبى وشاب . وقد يستبعد الموت لصحته ويستبعد الموت فجأة ، ولا يدرى أن ذلك غير بعيد ، وإن كان ذلك بعيداً فالمرض فجأة غير بعيد ، وكل مرض فإنما يقع فجأة ، وإذا مرض لم يكن الموت بعيداً . ولو تفكر هذا الغافل وعلم أن الموت ليس له وقت مخصوص من شباب وشيب وكهولة ، ومن صيف وشتاء ، وخريف وربيع ، من ليل ونهار ، لعظم استشعاره واشتغل بالاستعداد له ، ولكن الجهل بهذه الأمور وحب الدنيا دَعَوَاه إلى طول الأمل وإلى الغفلة عن تقدير الموت القريب ، فهو أبداً يظن أنّ الموت يكون بين يديه ولا يقدر نزوله به ووقوعه فيه ، وهو أبداً يظن أنه يشيع الجنائز ولا يقدّر أن تشيع جنازته ، لأنّ هذا قد تكرّر عليه وألفه وهو مشاهدة موت غيره ، فأما موت نفسه فلم يألفه ولم يتصور أن يألفه ، فإنه لم يقع ، وإذا وقع لم يقع دفعة أخرى بعد هذه ، فهو الأوّل وهو الآخر . وسبيله أن يقيس نفسه بغيره ، ويعلم أنه لابدّ وأن تحمل جنازته ويدفن فى قبره ، ولعل اللّبنَ الذى يُغَطَّى به لحده قد ضُرِبَ وفُرِغَ منه وهو لا يدرى فتسويفه جهل محض .

وإذا عرفت أنّ سببه الجهل وحب الدنيا فعلاجه دفع سببه .

---

(١) أخرجه ابن الجوزى فى العلل المتناهية (٤٠٣/٢) ثم قال عنه : هذا حديث لا يصح وسليمان بن عمرو وهو أبو داود النخعى . قال أحمد : هذا كذاب يضع الحديث . وكذال قال يحيى، وقد رواه مدرك بن عبد الرحمن الطفاوى عن حميد الطويل عن أنس ومن يروى ما لا يتابع عليه ، قال ابن حبان . والحديث ليس بصحيح أ هـ .

(**أما الجهل**) : فيدفع بالفكر الصافى من القلب الحاضر وبسماع الحكمة البالغة من القلوب الطاهرة .

(**وأما حب الدنيا**) : فالعلاج فى إخراجه من القلب شديد وهو الداء العضال الذى أعيا الأولين والآخرين علاجه ؛ ولا علاج له إلا الإيمان باليوم الآخر وبما فيه من عظيم العقاب وجزيل الثواب ، ومهما حصل له اليقين بذلك ارتحل عن قلبه حب الدنيا ، فإن حب الخطير هو الذى يمحو عن القلب حب الحقير ، فإذا رأى حقارة الدنيا ونفاسة الأخرة استنكف أن يلتفت إلى الدنيا كلها ، وإن أعطى ملك الأرض من المشرق إلى المغرب ، وكيف وليس عنده من الدنيا إلا قدر يسير مكدّر منغص ، فكيف يفرح بها أو يترسخ فى القلب حبها مع الإيمان بالآخرة ؟ فنسأل الله تعالى أن يرينا الدنيا كما أراها الصالحين من عباده . ولا علاج فى تقدير الموت فى القلب مثل النظر إلى من مات من الأقران والأشكال ، وأنهم كيف جاءهم الموت فى وقت لم يحتسبوا ؟ ، أما من كان مستعداً فقد فاز فوزاً عظيماً ، وأما من كان مغروراً بطول الأمل فقد خسر خسراناً مبيناً . فلينظر الإنسان كل ساعة فى أطرافه وأعضائه ، وليتدبر أنها كيف تأكلها الديدان لا محالة ؟ وكيف تتفتت عظامها ؟ وليتفكر أنّ الدود يبدأ بحدقته اليمنى أولاً أو اليسرى ؟ فما على بدنه شيء إلا وهو طعمة الدود وما له من نفسه إلا العلم والعمل الخالص لوجه الله تعالى ، وكذلك يتفكر فيما سنورده من عذاب القبر ، وسؤال منكر ونكير ، ومن الحشر والنشر ، وأهوال القيامة ، وقرع النداء يوم العرض الأكبر . فأمثال هذه الأفكار هى التى تجدّد ذكر الموت على قلبه وتدعوه إلى الاستعداد له .

* * *

المبحث الثالث

بيان مراتب الناس فى طول الأمل وقصره

اعلم أن الناس فى ذلك يتفاوتون .

فمنهم من يأمل البقاء ويشتهى ذلك أبداً . قال الله تعالى ﴿ **يودُّ أحدهم لوْ يُعَمَّرُ ألف سنة** ﴾[1] .

ومنهم من يأمل البقاء إلى الهرم وهو أقصى العمر الذى شاهده ورآه ، وهو الذى يحب الدنيا حباً شديداً . قال رسول الله ﷺ : « الشيخ شاب فى حب طلب الدنيا ، وإن الْتفَّتْ ترقُوتاه من الكِبَر إلا الذين اتقوا وقليل ما هم »[2] .

ومنهم من يأمل إلى سنة فلا يشتغل بتدبير ما وراءها فلا يقدرّ لنفسه وجوداً فى عام قابل ، ولكن هذا يستعدّ فى الصيف للشتاء ، وفى الشتاء للصيف ، فإذا جمع ما يكفيه لَسَنَته اشتغل بالعبادة . ومنهم من يأمل مدّة الصيف أو الشتاء ، فلا يدّخر فى الصَيف ثياب الشتاء ، ولا فى الشتاء ثياب الصيف . ومنهم من يرجع أَمله إلى يوم وليلة ، فلا يستعدّ إلا لنهاره ، وأما للغد فلا .

---

(١) الآية ٩٦ من سورة البقرة .

(٢) ذكره صاحب إتحاف السادة المتقين فى (٢٥١/١٠) وأخرجه أحمد فى (٣٣٥/٢) بلفظ قريب ، وأخرجه البخارى بسنده فى كتاب الرقاق باب من بلغ ستين سنة ، فقد أعذر الله إليه فى العمر. عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : سمعت النبى ﷺ يقول : « لا يزال قلب الكبير شاباً فى اثنتين فى حب الدنيا وطول الأمل » وفى رواية عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يكبر ابن آدم ويكبر معه اثنان حب المال وطول العمر » وفى المستدرك فى كتاب الرقاق باب قلب الشيخ شاب على حب طول الحياة وكثرة المال (٣٢٨/٤) عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « قلب الشيخ شاب على حب اثنتين طول الحياة وكثرة المال » وقال عنه : حديث صحيح على شرط الشيخين ، ولم يخرجاه ، ورواه الترمذى فى كتاب الزهد باب ما جاء قلب الشيخ شاب على حب اثنتين .

قال عيسى عليه السلام : لا تهتموا برزق غد فإن يكن غد من آجالكم فستأتى فيه أرزاقكم مع آجالكم ، وإن لم يكن من آجالكم فلا تهتموا لآجال غيركم .

ومنهم من لا يجاوز أمله ساعة ، كما قال نبينا صلى الله عليه وسلم: « يا عبد الله إذا أصبحت فلا تحدّث نفسك بالمساء ، وإذا أمسيت فلا تحدّث نفسك بالصباح »[١] .

ومنهم من لا يقدّر البقاء أيضاً ساعة كان رسول الله ﷺ يتيمم مع القدرة على الماء قبل مضى ساعة ويقول : « لعلى لأ أبلغه »[٢] .

ومنهم من يكون الموت نصب عينيه كأنه واقع به فهو ينتظره ، وهذا الإنسان هو الذى يصلى صلاة مودّع ، وفيه ورد ما نقل عن معاذ بن جبل رضى الله تعالى عنه لما سأله رسول الله ﷺ عن حقيقة إيمانه فقال : ما خطوت خطوة إلا ظننت أنى لا أتبعها أخرى ، وكما نقل عن الأسود وهو حبشى أنه كان يصلى ليلاً ويلتفت يميناً وشمالاً فقال له قائل : ما هذا ؟ قال أنظر ملك الموت من أى جهة يأتينى .

فهذه مراتب الناس ولكل درجات عند الله وليس من أمله مقصور على شهر كمن أمله شهر ويوم ، بل بينهما تفاوت فى الدرجة عند الله، فـ ﴿ **إن الله لا يظلم مثقال ذرة** ﴾ [٣] .

﴿ **فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره** ﴾ [٤].

ثم يظهر أثر قصر الأمل فى المبادرة إلى العمل ، وكل إنسان يدعى أنه قصير الأمل وهو كاذب ، إنما يظهر ذلك بأعماله ، فإنه يعتنى بأسباب ربما لا يحتاج إليها فى سنة ، فيدل ذلك على طول أمله ، وإنما علامة التوفيق

(١) أخرجه الترمذى فى كتاب الزهد باب ما جاء فى قصر الأجل (٣٨٨/٣) .
(٢) ذكره صاحب : إتحاف السادة المتقين (٣٢٧/٩) والسيوطى فى الدر المنثور (١٦٣/٣) .
(٣) الآية ٤٠ من سورة النساء .
(٤) الآية ٧ من سورة الزلزلة .

أن يكون الموت نصب العين لا يغفل عنه ساعة . فليستعد للموت الذى يرد عليه فى الوقت ، فإن عاش إلى المساء شكر الله تعالى على طاعته وفرح بأنه لم يضيع نهاره ، بل استوفى منه حظه وادخره لنفسه ، ثم يستأنف مثله إلى الصباح ؛ وهكذا إذا أصبح ، ولا يتيسر هذا إلا لمن فرغ القلب عن الغد ، وما يكون فيه . فمثل هذا إذا مات سعد وغنم ، وإن عاش سر بحسن الاستعداد ولذة المناجاة ؛ فالموت له سعادة والحياة له مزيد .

فليكن الموت على بالك يا مسكين ، فإن السير حاث بك وأنت غافل عن نفسك ، ولعلك قد قاربت المنزل وقطعت المسافة ولا تكون كذلك إلا بمبادرة العمل اغتناماً لكل نفس أمهلت فيه .

* * *

البحث الرابع

بيان المبادرة إلى العمل وحذر آفة التأخير .

اعلم أن من له أخوان غائبان وينتظر قدوم أحدهما فى غد وينتظر قدوم الآخر بعد شهر أو سنة ، فلا يستعد للذى يقدم إلى شهر أو سنة ، وإنما يستعد للذى ينتظر قدومه غد .

فالاستعداد نتيجة قرب الانتظار .

فمن انتظر مجيء الموت بعد سنة اشتغل قبله بالمدة ونسى ما وراء المدة، ثم يصبح كل يوم وهو منتظر للسنة بكمالها لا ينقص منها اليوم الذى مضى .

وذلك يمنعه من مبادرة العمل أبداً فإنه أبداً يرى لنفسه متسعاً فى تلك السنة فيؤخر العمل .

كما قال رسول الله ﷺ : « ما ينتظر أحدكم من الدنيا إلا غنى مُطْغيا أو فقراً مُنْسيا ، أو مرضاً مفسدا ، أو هرماً مقيدا ، أو موتاً مجهزا ، أو الدَجال ، فالدجالَ شر غائب ينتظر ، أو الساعة والساعة أدهى وأمر » [1] .

وقال ابن عباس : قال النبى ﷺ لرجل وهو يعظه : « اغتنم خمساً قبل خمس : شبابك قبل هرمك ، وصحتك قبل سقمك ، وغناك قبل

---

(١) أخرج الترمذى فى كتاب الزهد باب ما جاء فى المبادرة بالعمل (٣٧٨/٣) وقال أبو عيسى : هذا حديث غريب حسن لا نعرفه إلا من حديث الأعرج عن أبى هريرة . وأخرجه الحاكم فى كتاب الرقاق باب القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن (٣٢١/٤) ثم قال عنه : إن كان معمر ابن راشد سمع من المقبرى فالحديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبى .

فقرك ، وفراغك قبل شغلك ، وحياتك قبل موتك »[1] .

وقال صلى الله عليه وسلم : « نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس : الصحة والفراغ »[2] أى أنه لا يغتنمهما ، ثم يعرف قدرهما عند زوالهما .

وقال صلى الله عليه وسلم : « من خاف أدْلج ومن أدلج بلغ المنزل . ألا إن سِلْعَة الله غالية ألا إن سلعة الله الجنة »[3] .

وقال رسول الله ﷺ : « جاءت الراجفة تتبعها الرادفة ، وجاء الموت بما فيه »[4] .

وكان رسول الله ﷺ إذا أنس من أصحابه غفلة أو غِرّة نادى فيهم بصوت رفيع أتتكم المنية راتبة لازمة ، إما بشقاوة ، وإما بسعادة »[5] .

---

(١) أخرجه الحاكم فى المستدرك كتاب الرقاق (٣٠٦/٤) ثم قال عنه : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ، ولم يخرجاه ووافقه الذهبى . وذكر العجلونى فى كشف الخفاء (١٤٨/١) ثم قال عنه: رواه الحاكم وصححه والبيهقى عن ابن عباس قال : قاله رسول الله ﷺ لرجل وهو يعظه وهو عند أحمد فى الزهد والبيهقى عن عمرو بن ميمون مرسلاً .

(٢) أخرجه البخارى فى كتاب الرقاق باب الصحة والفراغ ولا عيش إلا عيش الآخرة . والترمذى فى كتاب الزهد (٣٧٧/٣) حديث رقم (٢٤٠٥) والحاكم فى كتاب الرقاق باب نعمتان مغبون فيهما (٣٠٦/٤) ثم قال عنه : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبى وأحمد فى المسند (٣٤٤/١) .

(٣) أخرجه الترمذى فى كتاب صفة القيامة باب ١٤ ج ١٤ / ١٥ وقال أبو عيسى هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث أبى النضر والحاكم فى المستدرك كتاب الرقاق باب من أحب دنياه أضر بآخرته (٣٠٨/٤) ولم يعلق عليه الحاكم ولا الذهبى .

(٤) أخرجه الترمذى فى كتاب صفة القيامة (٥٣/٤) باب ١٤ وقال أبو عيسى هذا حديث حسن وأحمد فى المسند (١٣٦/٥) .

(٥) ذكره السيوطى فى الجامع الصغير برقم ٩٥ ورمز لضعفه . وقال المناوى فى فيض القدير (١٠٠/١) وهو كما قال إلا أن فى مرسل آخر ما يقويه ويرقيه إلى درجة أحسن ثم ذكر الحديث كما هو مذكور . وذكره صاحب كنز العمال فى (٤٢٠٩٩/٥٤٣/١٥) وعزاه لابن أبى الدنيا فى ذكر الموت ، البيهقى عن زيد المسلمى مرسلا .

وقال أبو هريرة : قال رسول الله ﷺ : « أنا النذير ، والموت المغير ، والساعة الموعد »[1] .

وقال ابن عمر : خرج رسول الله ﷺ والشمس على أطراف السعَف فقال : « ما بقى من الدنيا إلا كما بقى من يومنا هذا فى مثل ما مضى منه »[2] .

وقال صلى الله عليه وسلم : « مثل الدنيا كمثل ثوب شُق من أوّله إلى آخره فبقى متعلقاً بخيط فى آخره فيوشك ذلك الخيط أن ينقطع »[3] .

وقال جابر : كان رسول الله ﷺ إذا خطب فذكر الساعة رفع صوته واحمرّت وجنتاه كأنه منذر جيش يقول : صبحتكم ومسيتكم « بعثت أنا والساعة كهاتين ـ وقرن بين أصبعيه ـ »[4] .

وقال ابن مسعود رضى الله عنه : تلا رسول الله ﷺ : ﴿ **فمن يرد الله أن يَهْدِيَهُ يَشْرَح صدره للإسلام** ﴾[5] .

فقال : « إن النور إذا دخل الصدر انفسح » .

فقيل يا رسول الله هل لذلك من علامة تعرف ؟ قال : « نعم التجافى

---

(١) ذكره صاحب اتحاف السادة المتقين فى (١٠/٢٥٤) ثم قال عنه : قال العراقى رواه ابن أبى الدنيا فى قصر الأمل بإسناد فيه لين أ هـ . وقال أيضاً : قلت وكذا رواه أبو يعلى فى مسنده ، وقال محمود بن محمد فى كتاب المتفجعين حدثنا عبد الله بن محمد حدثنا يحى بن بكير وسويد بن سعيد قالا : حدثنا ضمام بن إسماعيل عن موسى بن وردان عن أبى هريرة قال : لما نزلت ﴿ **وأنذر عشيرتك الأقربين** ﴾ قال نبى الله ﷺ : « يا صفية بنت عبد المطلب يا فاطمة بنت محمد أنا النذير وإلى الموت المصير والساعة الموعد . أ هـ .

(٢) أخرجه أحمد فى المسند (٣/١٩) وانظر اتحاف السادة المتقين (١٠/٢٤٥) .

(٣) ذكره صاحب اتحاف السادة المتقين فى (١/٢٥٤ ، ٨/١١١) ، وكنز العمال فى (٣/٦٣٠١/٢٣١) وعزاه إلى أحمد بن حنبل ، وحلية الأولياء فى (٨/١٣١) وقال : غريب من حديث الفضيل .

(٤) أخرجه الحاكم فى كتاب الفتن (٤/٥٢٣) وقال عنه : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبى .

(٥) سورة الأنعام من الآية : ١٢٥ .

عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود والاستعداد للموت قبل نزوله »[1] .

وقال السدى : ﴿ **الذى خلق الموت والحياة ليبلُوكم أيكم أحسن عملا** ﴾ [2] أى أيكم أكثر للموت ذكراً وأحسن له استعداداً وأشد منه خوفاً وحذراً .

وقال حذيفة : ما من صباح ولا مساء إلا ومناد ينادى : أيها الناس الرحيلَ الرحيلَ . وتصديق ذلك قوله تعالى : ﴿ **إنها لإحدى الكُبر نذيراً للبشر لمن شاء منكم أن يتقدّم أو يتأخر** ﴾ [3] فى الموت .

وقال سحيم – مولى بنى تميم – جلست إلى عامر بن عبد الله وهو يصلى فأوجز فى صلاته ثم أقبل علىّ فقال : أرحنى بحاجتك فإنى أبادر . قلت : وما تبادر ؟ قال : ملك الموت رحمك الله ، قال : فقمت عنه وقام إلى صلاته .

ومرّ داود الطائى فسأله رجل عن حديث فقال : دعنى إنما أبادر خروج نفسى .

قال عمر رضى الله عنه : التؤدة فى كل شيء خير إلا فى أعمال الخير للآخرة .

وقال المنذر : سمعت مالك بن دينار يقول لنفسه : ويحك بادرى قبل أن يأتيك الأمر ؛ ويحك بادرى قبل أن يأتيك الأمر ! حتى كرر ذلك ستين مرة أسمعه ولا يرانى .

وكان الحسن يقول فى موعظته : المبادرة المبادرة ، فإنما هى الأنفاس لو حبست انقطعت عنكم أعمالكم التى تتقربون بها إلى الله عز وجل ، رحم الله امرءاً نظر إلى نفسه وبكى على عدد ذنوبه !

---

(١) أخرجه الحاكم فى المستدرك كتاب الرقاق باب أعلام النور فى الصدور ولم يعلق عليه . وقال الذهبى : قلت : عندى ساقط .

(٢) سورة الملك من الآية : ٢ .

(٣) سورة المدثر الايات ٣٥ – ٣٧ .

ثم قرأ هـذه الآية : ﴿إنما نُعدّ لهم عدًّا﴾ [1] يعنى الأنفاس ، آخر العدد خروج نفسك ، آخر العدد فراق أهلك، آخر العدد دخولك فى قبرك .

واجتهد أبو موسى الأشعرى قبل موته اجتهاداً شديداً .

فقيل له : لو أمسكت أو رفقت بنفسك بعض الرفق ؟

فقال : إن الخيل إذا أرسلت فقاربت رأس مجراها أخرجت جميع ما عندها ، والذى بقى من أجلى أقل من ذلك !

قال : فلم يزل على ذلك حتى مات .

وكان يقول لامرأته : شدى رحلك فليس على جهنم مَعْبرة .

وقالِ بعض الخلفاء على منبره : عباد الله اتقوا الله ما استطعتم وكونوا قوماً صيحَ بهم ، فانتبهوا ، وعلموا أن الدنيا ليست لهم بدار ، فاستبدلوا ، واستعدّوا للموت فقد أظلكم وترحلوا فقد جدَّ بكم ، وإن غاية تنقصها اللحظَة وتهدمها الساعة لجديرة بقصر المدة ، وإن غائباً يَجدّ به الجديدان الليل والنهار لحرى بسرعة الأوبَة ، وإن قادماً يَحُل بالفوز أو الشّقوة لمستحق لأفضل العدّة ، فالتقى عند ربه من ناصح نفسه وقدّم توبته وغلبَ شهوته ، فإن أجله مستور عنه ، وأمله خادع له ، والشيطان موكل به يمنّيه التوبه ؛ ليسوّفها ويزين إليه المعصية ؛ ليرتكبها حتى تهجم منيته عليه أغفل ما يكون عنها ، وإنه ما بين أحدكم وبين الجنة والنار إلا الموت أن ينزل به ، فيالها حسرة على ذى غفلة ، أو يكون عمره عليه حجة ، وأن ترديه أيامه إلى شقوة، جعلنا الله وإياكم ممن لا تبطره نعمة ولا تقصر به عن طاعة الله معصية ، ولا يحل به بعد الموت حسرة ، إنه سميع الدعاء ، وإنه بيده الخير دائماً فعال لما يشاء .

وقال بعض المفسرين فى قوله تعالى :

﴿فتنتُمْ أنفُسكم﴾ [2] قال بالشهوات واللذات :

---

(1) سورة مريم الآية : ٨٤ .

(2) سورة الحديد : ١٤ ، والآية هى قوله تعالى ﴿ينادونهم ألم نكن معكم قالوا بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأمانى حتى جاء أمر الله وغركم بالله الغرور﴾

﴿ وتربصتم ﴾ قال بالتوبة : ﴿وأرتبتم ﴾ قال شككتم :
﴿ حتى جاء أمر الله ﴾ قال الموت
﴿ وغرّكم بالله الغرور ﴾ قال الشيطان .

وقال الحسن : تصبروا وتشددوا فإنما هى أيام قلائل ، وإنما أنتم ركب وقوف يوشك أن يدعى الرجل منكم فيجيب ولا يلتفت فانتقلوا بصالح ما بحضرتكم .

وقال ابن مسعود : ما منكم من أحد أصبح إلا هو ضيف وماله عارية ، والضيف مرتحل ، والعارية مؤداة .

وقال أبو عبيدة الباجى : دخلنا على الحسن فى مرضه الذى مات فيه فقال : مرحباً بكم وأهلاً وحياكم الله بالسلام ، وأحلنا وإياكم دار المقام ، هذه علانية حسنة إن صبرتم وصدقتم واتقيتم ، فلا يكن حظكم من هذا الخبر رحمكم الله أن تسمعوه بهذه الأذن وتخرجوه من هذه الأذن ، فإن من رأى محمداً ﷺ فقد رآه غادياً ورائحاً لم يضع لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة ، ولكن رفع له علم فشمر إليه الوحا الوحا النّجا النجا علام تعرجون أتيتم ورب الكعب كأنكم والأمر معاً ، رحم الله عبداً جعل العيش عيشاً واحداً ، فأكل كسرة ولبس خلقاً ولزق بالأرض واجتهد فى العبادة ، وبكى على الخطيئة ، وهرب من العقوبة ، وابتغى الرحمة ، حتى يأتيه أجله وهو على ذلك .

وقال عاصم الأحول : قال لى فضيل الرقاشى ـ وأنا سائله ـ يا هذا لا يَشْغَلَنَّكَ كثرة الناس عن نفسك فإن الأمر يخلص إليك دونهم ولا تقل أذهب ههنا وههنا فينقطع عنك النهار فى لا شىء ، فإن الأمر محفوظ عليك ولم تر شيئاً قط أحسن طلباً ، ولا أسرع إدراكاً من حسنة حديثة لذنب قديم .

* * *

الباب الثانى

سكرات المـوت

وفيـه :

- **الفصل الأول : آلام سكرات الموت**
- **الفصل الثانى : فى وفاة النبى ﷺ**
- **الفصل الثالث : أقوال بعض المحتضرين**

الفصل الأول

آلام سكرات الموت

وفيه :

البحث الأول : الام سكرات الموت

البحث الثانى : مشاهدة صورة ملك الموت والملكين الحافظين .

البحث الثالث : مشاهدة العصاة مواقعهم من النار

البحث الرابع : ما يستحب من أحوال المحتضر عند الموت

البحص الخامس : مشروعية التلقين وما ينبغى للملقن.

البحث السادس : الحسرة عند لقاء ملك الموت

البحث الأول

آلام سكرات الموت

اعلم أنه لو لم يكن بين يدى العبد المسكين كرب ولا هول ولا عذاب سوى سكرات الموت بمجردها ، لكان جديراً بأن يتنغص عليه عيشه ويتكدر عليه سروره ويفارقه سهوه وغفلته ، وحقيقاً بأن يطول فيه فكره ويعظم له استعداده ، لا سيما وهو فى كل نفس بصدده كما قال بعض الحكماء : كرب بيد سواك لا تدرى متى يغشاك . وقال لقمان لابنه : يا بنى أمر لا تدرى متى يلقاك استعد له قبل أن يفجأك .

والعجب أن الإنسان لو كان فى أعظم اللذات وأطيب مجالس اللهو فانتظر أن يدخل عليه جندى فيضربه خمس خشبات لتكدرت عليه لذته وفسد عليه عيشه ، وهو فى كل نفس بصدد أن يدخل عليه ملك الموت بسكرات النزع ، وهو عنه غافل ، فما لهذا سبب إلا الجهل والغرور .

واعلم أن شدة الألم فى سكرات الموت لا يعرفها بالحقيقة إلا من ذاقها، ومن يذقها فإنما يعرفها إما بالقياس إلا الآلام التى أدركها ، وإما بالاستدلال بأحوال الناس فى النزع على شدة ما هم فيه .

فأما القياس الذى يشهد له : فهو أن كل عضو لا روح فيه فلا يحس بالألم ، فإذا كان فيه الروح فالمدرك للألم هو الروح ، فمهما أصاب العضو جرح أو حريق سرَى الأثر إلى الروح ، فبقدر ما يسرى إلى الروح يتألم ، والمؤلم يتفرق على اللحم والدم وسائر الأجزاء ، فلا يصيب الروح إلا بعض الألم ، فإن كان فى الآلام ما يباشر نفس الروح ولا يلاقى غيره فما أعظم ذلك الألم وما أشده ! .

والنزع عبارة عن مؤلم نزل بنفس الروح فاستغرق جميع أجزائه ، حتى

لم يبق جزء من أجزاء الروح المنتشر فى أعماق البدن إلا وقد حل به الألم ، فلو أصابته شوكة فالألم الذى يجده إنما يجرى فى جزء من الروح يلاقى ذلك الموضع الذى أصابته الشوكة ، وإنما يعظم أثر الاحتراق لأن أجزاء النار تغوص فى سائر أجزاء البدن ، فلا يبقى جزء من العضو المحترق ظاهراً وباطناً إلا وتصيبه النار فتحسه الأجزاء الروحانية المنتشرة فى سائر أجزاء اللحم .

وأما الجراحة : فإنما تصيب الموضع الذى مسه الحديد فقط ، فكان لذلك ألم الجرح دون ألم النار، فألم النزع يهجم على نفس الروح ويستغرق جميع أجزائه فإنه المنزوع المجذوب من كل عرق من العروق ، وعصب من الأعصاب ، وجزء من الأجزاء ، ومفصل من المفاصل ، ومن أصل كل شعرة وبشرة من المفرق إلى القدم ، فلا تسأل عن كربه وألمه ؛ حتى قالوا إن الموت لأشد من ضرب بالسيف ونشر المناشير وقرض بالمقاريض لأن قطع البدن بالسيف إنما يؤلم لتعلقه بالروح ، فكيف إذا كان المتناول المباشر نفس الروح ؟ وإنما يتسغيث المضروب ويصيح لبقاء قوته فى قلبه وفى لسانه ، وإنما انقطع صوت الميت وصياحه مع شدة ألمه لأن الكرب قد بلغ فيه وتصاعد على قلبه ، وبلغ كل موضع منه فَهَدّ كل قوّة وضعّف كل جارحة فلم يترك له قوّة الاستغاثة .

أما العقل فقد غشيه وشوّشه ، وأما اللسان فقد أبكمه ، وأما الأطراف فقد ضعفها ، ويودّ لو قدر على الاستراحة بالأنين والصياح والاستغاثة ، ولكنه لا يقدر على ذلك ، فإن بقيت فيه قوّة سمعت له عند نزع الروح وجذبها خواراً وغرغرة من حلقه وصدره ، وقد تغير لونه واربدّ حتى كأنه ظهر منه التراب الذى هو أصل فطرته ، وقد جذب منه كل عرق على حياله ، فالألم منتشر فى داخله وخارجه ، حتى ترتفع الحدقتان إلى أعالى أجفانه ، وتتقلص الشفتان ، ويتقلص اللسان إلى أصله ، وترتفع الأنثيان إلى أعالى موضعهما ، وتخضر أنامله .

فلا تسل عن بدن يجذب منه كل عرق من عروقه ! ولو كان المجذوب عرقاً واحداً لكان ألمه عظيماً ، فكيف والمجذوب نفس الروح المتألم ؟ لا من عرق واحد ، بل من جميع العروق . ثم يموت كل عضو من أعضائه تدريجاً فتبرد أولاً قدماه ثم ساقاه ثم فخذاه ، ولكل عضو سكرة بعد سكرة ، وكربة بعد كربة ، حتى يبلغ بها إلى الحلقوم ، فعند ذلك ينقطع نظره عن الدنيا وأهلها ويغلق دونه باب التوبة وتحيط به الحسرة والندامة .

قال رسول الله ﷺ : « تُقْبَلُ تَوبَةُ العبد ما لم يُغَرْغِرْ » [1] .

وقال مجاهد فى قوله تعالى : ﴿ **وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إنى تبت الآن** ... ﴾ [2] قال : إذ عاين الرسل فعند ذلك تبدو له صفحة وجه ملك الموت فلا تسأل عن طعم مرارة الموت وكربه عند ترادف سكراته ! ولذلك كان رسول الله ﷺ يقول : « اللهم هوّن على محمد سكراتِ الموت »[3] .

والناس إنما لا يستعيذون منه ولا يستعظمونه لجهلهم به ، فإن الأشياء قبل وقوعها إنما تدرك بنور النبوّة والولاية ، ولذلك عظم خوف الأنبياء عليهم السلام والأولياء من الموت ، حتى قال عيسى عليه السلام : يا معشر الحواريين ادعوا الله تعالى أن يهوّن عليّ هذه السكرة - يعنى الموت - فقد خفت الموت مخافة أوقفنى خوفى من الموت على الموت .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى (١٣٢/٢) والحاكم فى كتاب التوبة والإنابة باب : إن الله يغفر لعبده ما لم يغرغر (٢٥٧/٤) وصححه الحاكم والذهبى وذكره العجلونى فى كشف الخفاء (٢٤٧/١) ثم قال : رواه الترمذى بسند حسن وكذا أحمد وابن ماجة وابن حبان والحاكم عن ابن عمر رفعه .

(٢) سورة النساء الآية : ١٨ .

(٣) أخرجه البخارى فى كتاب الرقاق باب سكرات الموت (٢٦١/١١) ولفظه « لا إله إلا الله إن للموت سكرات » . وابن ماجة فى كتاب الجنائز باب ما جاء فى ذكر مرض رسول الله ﷺ (٥١٩/١) ولفظه : « اللهم أعنى على سكرات الموت » . والترمذى فى كتاب الجنائز باب ما جاء فى التشديد عند الموت حديث رقم ٩٨٥ ولفظه : « اللهم أعنى على غمرات الموت وسكرات الموت » . وقال أبو عيسى هذا حديث غريب . وأحمد فى المسند (٦٤/٦ ، ٧٠ ، ٧٧ ، ١٥١) .

وروى أن نفراً من بنى إسرائيل مرّوا بمقبرة فقال بعضهم لبعض : لو دعوتم الله تعالى أن يخرج لكم من هذه المقبرة ميتاً تسألونه ؟ فدعوا الله تعالى فإذا هم برجل قد قام وبين عينيه أثر السجود قد خرج من قبر من القبور فقال : يا قوم ما أردتم منى لقد ذقت الموت منذ خمسين سنة ما سكنت مرارة الموت من قلبى .

وقالت عائشة رضى الله عنها : لا أغبط أحداً يهوّن عليه الموت بعد الذى رأيت من شدة موت رسول الله ﷺ . وروى أنه عليه السلام كان يقول: « اللهم إنك تأخذ الروح من بين العصب والقصب والأنامل . اللهم فأعنى على الموت وهوّنه على »[1] . وعن الحسن أن رسول الله ﷺ ذكر الموت وغصته وألمه فقال : « هو قدر ثلثمائة ضربة بالسيف » [2] .

وسئل صلى الله عليه وسلم عن الموت وشدّته فقال : « إن أهون الموت بمنزلة حسكة فى صوف فهل تخرج الحسكة من الصوف إلا ومعها صوف »[3] .

ودخل صلى الله عليه وسلم على مريض ثم قال : « إنى أعلم ما يَلْقى ما منه عرق إلا ويألم للموت على حدته »[4] .

وكان علىٌّ كرم الله وجهه يحض على القتال ويقول : إن لم تقتلوا تموتوا والذى نفسى بيده لألف ضربة بالسيف أهون علىّ من موتٍ على فراش .

---

(١) ذكره صاحب كنز العمال فى (٢/٢٠٤) وعزاه إلى ابن أبى الدنيا فى ذكر الموت عن طعمة ابن غيلان الجعفى الكوفى وذكره ابن حبان فى الثقات (تهذيب التهذيب ١٣/٥) .

(٢) انظر اتحاف السادة المتقين (١٠/٢٦٠) ثم قال عنه : قال العراقى ذكره ابن أبى الدنيا فى كتاب الموت هكذا مرسلاً ورجاله ثقات .

(٣) ذكره صاحب كنز العمال فى (١٥/٥٦١/٤٢١٧٤) وعزاه إلى ابن أبى الدنيا فى ذكر الموت عن شهر بن حوشب مرسلاً .

(٤) ذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد فى كتاب الجنائز باب فى الموت وغيره (٢/٣٢٧) ثم قال عنه : رواه الطبرانى فى الكبير والبزار بنحوه وفيه موسى بن عبيدة وهو ضعيف .

وقال الأوزاعى : بلغنا أن الميت يجد ألم الموت ما لم يبعث من قبره .
وقال شدّاد بن أوس : الموت أفظع هول فى الدنيا والآخرة على المؤمن ، وهو أشدّ من نشرٍ بالمناشير وقرض بالمقاريض وغَلْى فى القدور ، ولو أنّ الميت نشر فأخبر أهل الدنيا بالموت ما انتفعوا بعيش ولا لذوا بنوم .

وعن زيد بن أسلمِ عن أبيه قال : إذا بقى على المؤمن من درجاته شىء لم يبلغها بعمله شُدِّدَ عليه الموت ليبلغ بسكرات الموت وكربه درجته فى الجنة ، وإذا كان للكافر معروف لم يجز به هوّن عليه فى الموت ليستكمل ثواب معروفه فيصير إلى النار .

وعن بعضهم أنه كان يسأل كثيراً من المرضى كيف تجدون الموت ؟ فلما مرض قيل له : فأنت كيف تجده ؟ فقال : كأنّ السموات مطبقة على الأرض ، وكأن نَفْسى يخرج من ثُقْبِ إبرة .

وقال صلى الله عليه وسلم : « موت الفجأة راحة للمؤمن وأسف على الفاجر »[1] .

وروى عن مكحول عن النبى ﷺ أنه قال : « لو أن شعرة من شعر الميت وضعت على أهل السموات والأرض لماتوا بإذن الله تعالى لأن فى كل شعرة الموت ولا يقع الموت بشىء إلا مات »[2] .

ويروى : « لو أنّ قطرة من ألم الموت وضعت على جبال الدنيا كلها لذابت »[3] .

وروى أن إبراهيم عليه السلام لما مات قال الله تعالى له : كيف

---

(١) أخرجه أبو داود فى كتاب الجنائز باب موت الفجأة (٤٨١/٣) ولفظه « موت الفجأة أخذة آسف » . وأحمد فى المسند (٤٢٤/٣) بلفظ « موت الفجأة أخذة أسف » وأخرجه البخارى انظر فتح البارى كتاب الجنائز باب موت الفجأة (٢٥٤/٣) وابن أبى شيبة فى مصنفه بهذا اللفظ . وانظر فيض القدير (٢٤٦/٦) .

(٢) اتحاف السادقة المتقين (٢٦٢/١٠) .

(٣) اتحاف السادة المتقين (٢٦٢/١٠) .

وجدت الموت يا خليلى قال : كَسَفَوُّد[1] جعل فى صوف رَطْب ثم جذب ، فقال : أما إنا قد هوّنا عليك .

وروى عن موسى عليه السلام أنه لما صارت روحه إلى الله تعالى قال له ربه : يا موسى كيف وجدت الموت ؟ قال : وجدت نفسى كالعصفور حين يُقْلى على المِقْلى لا يموت فيستريح ولا ينجو فيطير .

وروى عنه أنه قال : وجدت نفسى كشاه حية تسلخ بيد القصاب .

وروى عن النبى ﷺ أنه كان عنده قدح من ماء عند الموت ، فجعل يُدْخِل يده فى الماء ثم يمسح بها وجهه ويقول : « اللهم هوّن علىّ سكَرات الموت »[2] وفاطمة رضى الله عنها تقول : واكرباه لكربك يا أبتاه ! وهو يقول: « لا كرب على أبيك بعد اليوم »[3] .

وقال عمر رضى الله عنه لكعب الأحبار : يا كعب حدّثنا عن الموت ؟ فقال : نعم يا أمير المؤمنين إن الموت كغصن كثير الشوك أدخل فى جوف رجل وأخذت كل شوكة بعرق، ثم جذبه رجل شديد الجذب فأخذ ما أخذ وأبقى ما أبقى .

وقل النبى ﷺ : « إنّ العبد ليعالج كرب الموت وسكرات الموت وإن مفاصله ليسلم بعضها على بعض تقول : عليك السلام تفارقنى وأفارقك إلى يوم القيامة »[4] .

---

(١) السفود : حديدة ذات شعب معقفة ، يشوى به اللحم ، وجمعه : سفافيد (انظر اللسان ، مادة : سفد) .

(٢) أخرجه البخارى فى كتاب الرقاق باب سكرات الموت (٣٦١/١١) ولفظه : « أن للموت سكرات ... إلخ » وابن ماجه فى كتاب الجنائز باب ما جاء فى ذكر مرض رسول الله ﷺ (٥٩١/١) ولفظه : « اللهم أعنى على سكرات الموت » . والترمذى فى كتاب الجنائز باب ما جاء فى التشديد عند الموت ولفظه « اللهم أعنى على غمرات الموت وسكرات الموت » . وقال أبو عيسى هذا حديث غريب ، وأحمد فى المسند (٦٤/٦ ، ٧٠ ، ٧٧ ، ١٥١) .

(٣) أخرجه البخارى فى كتاب المغازى باب مرض النبى ﷺ ووفاته (١٤٩/٨) وابن ماجة فى كتاب الجنائز باب ذكر وفاته ودفنه صلى الله عليه وسلم (٥٢١/١) . وأحمد فى المسند (١٤١/٣) .

(٤) ذكره صاحب تنزيه الشريعة المرفوعة فى (٣٧٥/٢) ثم عزاه للدارمى من حديث أنس من طريق أبى هدبة .
=

فـهـذه سكرات الموت على أوليـاء الله وأحبـابه ، فـمـا حـالنا ونحن المنهمكون فى المعاصى وتتوالى علينا مع سكرات الموت بقية الدواهى ؟ فإن دواهى الموت ثلاث :

(الأولى) شدّة النزع كما ذكرناه .

* * *

= كما ذكره صاحب اتحاف السادة المتقين فى (٢٦٣/١٠) ثم قال عنه : قال العراقى : رويناه فى الأربعين لأبى هدبة إبراهيم بن هدبة عن أنس وأبو هدبة هالك أ هـ . وقـال أيضـاً : قلت ورواه كذلك الديلمى فى مسند الفردوس وأبو الفضل الطوسى فى عيون الأخبار ، والقشيرى فى الرسالة ، وإبراهيم ابن هدبة . قال الذهبى كذاب وإن قال الدارقطنى متروك .

البحث الثاني

مشاهدة صورة ملك الموت والملكين الحافظين

(**الداهية الثانية**) : مشاهدة صورة ملك الموت ودخول الروع والخوف منه على القلب ؛ فلو رأى صورته التى يقبض عليها روح العبد المذنب أعْظَمُ الرجال قوّة لم يطق رؤيته .

فقد رُوِى عن إبراهيم الخليل عليه السلام أنه قال لملك الموت : هل تستطيع أن ترينى صورتك التى تقبض عليها روح الفاجر ؟ قال : لا تطيق ذلك ، قال : بلى ، قال : فأعرض عنى فأعرض عنه . ثم التفت فإذا هو برجل أسود قائم الشعر ، منتن الريح ، أسود الثياب ، يخرج من فيه ومناخيره لهيب النار والدخان ؛ فغشى على إبراهيم عليه السلام . ثم أفاق وقد عاد ملك الموت إلى صورته الأولى فقال : يا ملك الموت لو لم يلق الفاجر عند الموت إلا صورة وجهك لكان حسبه .

وروى أبو هريرة عن النبى ﷺ : « أن داود عليه السلام كان رجلاً غيوراً وكان إذا خرج أغلق الأبواب ، فأغلق ذات يوم وخرج فأشرفت امرأته فإذا هى برجل فى الدار فقالت : من أدخل هذا الرجل لئن جاء داود ليلقين منه عناء ؟ فجاء داود فرآه فقال : من أنت ؟ فقال : أنا الذى لا أهاب الملوك ولا يمنع منى الحجاب ، فقال : فأنت والله إذن ملك الموت وزمل داود عليه السلام مكانه » (١) .

وروى أن عيسى عليه السلام مرّ بجمجمة فضربها برجله فقال : تكلمى بإذن الله فقالت : يا روح الله أنا ملك زمان كذا وكذا ، بينا أنا جالس فى ملكى علىّ تاجى وحولى جنودى وحشمى على سرير ملكى ، إذ

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى (٤١٩/٢) وانظر اتحاف السادة المتقين (٢٦٤/١٠) .

بدا لى ملك الموت فزال منى كل عضو على حياله ، ثم خرجت نفسى إليه، فياليت ما كان من تلك الجموع كان فرقة ! وياليت ما كان من ذلك الأنس كان وحشة !

فهذه داهية يلقاها العصاة ويكفاها المطيعون .

فقد حكى الأنبياء مجرّد سكرة النزع دون الروعة التى يدركها من يشاهد صورة ملك الموت كذلك ، ولو رآها فى منامه ليلة لتنغص عليه بقية عمره ! فكيف برؤيته فى مثل تلك الحال ؟ .

وأما المطيع فإنه يراه فى أحسن صورة وأجملها .

فقد روى عكرمة عن ابن عباس أن إبراهيم عليه السلام كان رجلاً غيوراً وكان له بيت يتعبد فيه ، فإذا خرج أغلقه ، فرجع ذات يوم فإذا برجل فى جوف البيت فقال : من أدخلك دارى ؟ فقال : أدخلنيها ربها ، فقال : أنا ربها ، فقال : أدخلنيها من هو أملك بها منى ومنك ، فقال : من أنت من الملائكة ؟ قال : أنا ملك الموت ، قال : هل تستطيع أن ترينى الصورة التى تقبض فيها روح المؤمن ؟ قال : نعم ، فأعرض عنى ، فأعرض ثم التفت فإذا هو بشاب فذكر من حسن وجهه وحسن ثيابه وطيب ريحه ، فقال : يا ملك الموت ، لو لم يلق المؤمن عند الموت إلا صورتك كان حسبه.

ومنها مشاهدة الملكين الحافظين .

قال وهيب : بلغنا أنه ما من ميت يموت حتى يتراءى له ملكاه الكاتبان عمله ، فإن كان مطيعاً قالا له : جزاك الله عنا خيراً فربّ مجلس صدق أجلستنا وعمل صالح أحضرتنا ، وإن كان فاجراً قالا له : لا جزاك الله عنا خيراً فربّ مجلس سوء أجلستنا وعمل غير صالح أحضرتنا وكلام قبيح أسمعتنا فلا جزاك الله عنا خيراً .

فذلك شخوص بصر الميت إليهما ولا يرجع إلى الدنيا أبدا .

* * *

البحث الثالث

مشاهدة العصاة مواقعهم من النار

(**الداهية الثالثة**) : مشاهدة العصاة مواضعهم من النار وخوفهم قبل المشاهدة ؛ فأنهم فى حال السكرات قد تخاذلت قواهم واستسلمت للخروج أرواحهم ، ولن تخرج أرواحهم ما لم يسمعوا نغمة ملك الموت بأحد البشريين . إما أبشر يا عدوّ الله بالنار ، أو أبشر يا وليّ الله بالجنة .

ومن هذا كان خوف أرباب الألباب .

وقد قال النبى ﷺ : « لن يخرج أحدكم من الدنيا حتى يعلم أين مصيره ، وحتى يرى مقعده من الجنة أو النار » [1] .

وقال صلى الله عليه وسلم : « من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه » فقالوا : كلنا نكره الموت . قال : « ليس ذاك بذاك إن المؤمن إذا فرج له عما هو قادم عليه أحب لقاء الله وأحب الله لقاءه »[2] .

وروى أن حذيفة بن اليمان قال لابن مسعود ـ وهو لما به من آخر الليل ـ قم فانظر أىّ ساعة هى ؟ فقام ابن مسعود ثم جاءه فقال : قد

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب الرقاق باب سكرات الموت (٣٦٢/١١) ولفظه : « إذا مات أحدكم عرض عليه مقعده غدوة وعشيا ، إما النار ، وإما الجنة . فيقال : هذا مقعدك حتى تبعث إليه » والترمذى فى كتاب الجنائز باب ما جاء فيمن أحب لقاء الله حديث رقم (١٠١/٣) وقال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح ولفظه : « قالت السيدة عائشة : يا رسول الله كلنا يكره الموت . قال : ليس كذلك ولكن المؤمن إذا بشر برحمة الله ورضوانه وجنته أحب لقاء الله وأحب الله لقاءه ، وإن الكافر إذا بشر بعذاب الله وسخطه كره لقاء الله وكره الله لقاءه .

(٢) أخرجه البخارى فى كتاب الرقاق باب ٤١ ج ١١ /٤٥٧ ، ومسلم فى كتاب الذكر والدعاء (٩/١٧) شرح النووى والترمذى فى كتاب الزهد باب ٤ حديث رقم ٢٤١١ وابن ماجة فى كتاب الزهد باب ذكر الموت ١٤٢٥/٢ والنسائى فى كتاب الجنائز باب فيمن أحب لقاء الله ٩/٤ ، ١٠ .

طلعت الحمراء ! فقال حذيفة : أعوذ بالله من صباح إلى النار » .

ودخل مروان على أبى هريرة فقال مروان : اللهم خفف عنه ، فقال أبوهريرة: اللهم اشدد ! ثم بكى أبو هريرة وقال: والله ما أبكى حزناً على الدنيا ولا جزعاً من فراقكم ولكن أنتظر إحدى البشريين من ربى بجنة أم بنار .

وروى فى الحديث عن النبى ﷺ أنه قال : « إن الله إذا رضى عن عبد قال : يا ملك الموت اذهب إلى فلان فأتنى بروحه لأريحه ، حسبى من عمله، قد بلوته فوجدته حيث أحبّ ، فينزل ملك الموت ومعه خمسمائه من الملائكة ومعهم قضبان الريحان وأصول الزعفران كل واحد منهم يبشره ببشارة سوى بشارة صاحبه ، وتقوم الملائكة صفين لخروج روحه ، معهم الريحان ، فإذا نظر إليهم إبليس وضع يده على رأسه ثم صرخ » قال : فيقول له جنوده : مالك يا سيدنا ، فيقول : أما ترون ما أعطى هذا العبد من الكرامة؟ أين كنتم من هذا ؟ قالوا : قد جهدنا به فكان معصوماً »[1] .

وقال الحسن : لا راحة للمؤمن إلا فى لقاء الله ، ومن كانت راحته فى لقاء الله تعالى فيوم الموت يوم سروره وفرحه وأمنه وعزه وشرفه .

وقيل لجابر بن زيد ـ عند الموت ـ ما تشتهى ؟ قال : نظرة إلى

---

(١) أخرجه النسائى فى كتاب الجنائز باب ما يلقى به المؤمن من الكرامة عند خروج نفسه ٨/٤ ولفظه : أن النبى ﷺ قال : « إذا حضر المؤمن أتته ملائكة الرحمة بحريرة بيضاء فيقولون : اخرجى راضية مرضيا عنك إلى روح الله وريحان ورب غير غضبان ، فتخرج كأطيب ريح المسك حتى أنه ليناوله بعضهم بعضا حتى يأتون به باب السماء فيقولون : ما أطيب هذه الريح التى جاءتكم من الأرض فيأتون به باب أرواح المؤمنين ، فلهم أشد فرحاً به من أحدكم بغائبه يقدم عليه فيسألونه ماذا فعل فلان ، ماذا فعل فلان ، فيقولون دعوه فإنه كان فى غم الدنيا فإذا قال أما أتاكم قالوا ذهب به إلى أمه الهاوية وإن الكافر إذا احتضر أتته ملائكة العذاب بمسح فيقولون : اخرجى ساخطة مسخوطا عليك إلى عذاب الله عز وجل ، فتخرج كأنتن ريح جيفة حتى يأتون به باب الأرض فيقولون ما أنتن هذه الريح حتى يأتون به أرواح الكفار . وذكره صاحب كنز العمال فى (١٥٩/٣) وعزاه لأحمد بن حنبل وابن حبان عن أبى سعيد وذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد كتاب الزهد باب فيمن رضى الله عنه (٢٧٢/١٠) ثم قال رواه أحمد وأبو يعلى إلا أنه قال تسعة أضعاف ، ورجاله وثقوا على ضعف فى بعضهم .

الحسن ؛ فلما دخل عليه الحسن قيل له : هذا الحسن ! فرفع طرفه إليه ثم قال : يا إخواناه الساعة والله أفارقكم إلى النار أو إلى الجنة .

وقال محمد بن واسع ـ عند الموت ـ يا إخواناه عليكم السلام ! إلى النار أو يعفو الله .

وتمنى بعضهم أن يبقى فى النزع أبداً ولا يبعث لثواب ولا عقاب .

فخوف سوء الخاتمة قطع قلوب العارفين وهو من الدواهى العظيمة عند الموت .

وقد ذكرنا معنى سوء الخاتمة وشدة خوف العارفين منه فى كتاب الخوف والرجاء وهو لائق بهذا الموضع ، ولكننا لا نطول بذكره وإعادته[1] .

* * *

(١) انظر : الإحياء (٤/٢١٥) .

البحث الرابع

بيان ما يستحب من أحوال المحتضر عند الموت

اعلم أن المحبوب عند الموت من صورة المحتضر هو الهدوء والسكون ! ومن لسانه أن يكون ناطقاً بالشهادة ، ومن قلبه أن يكون حسن الظن بالله تعالى .

(**أما الصورة**) : فقد روى عن النبى ﷺ أنه قال : « ارقبوا الميت عند ثلاث : إذا رشح جبينه ، ودمعت عيناه ، ويبست شفتاه ، فهى من رحمة الله قد نزلت به ، وإذا غط غطيط المخنوق واحمر لونه وأربدّت شفتاه ، فهو من عذاب الله قد نزل به »[1] .

(**وأما انطلاق لسانه بكلمات الشهادة**) : فهى علامة الخير .

(وأما حسن الظن) : فهو مستحب فى هذا الوقت ــ وقد ذكرنا فى كتاب الرجاء ــ وقد وردت الأخبار بفضل حسن الظن بالله .

دخل وائلة بن الأسقع على مريض فقال : أخبرنى كيف ظنك بالله ؟ قال : أغرقتنى ذنوبى لى وأشرفت على هلكة ، ولكنى أرجو رحمة ربى ! فكبر وائلة وكبر أهل البيت بتكبيره وقال : ولله أكبر سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يقول الله تعالى أنا عند ظن عبدى بى فليظن بى ما شاء »[2] .

(١) ذكره صاحب كنز العمال فى (٥٦٢/١٥) وعزاه للحكيم الترمذى والخليلى فى مشيخته عن سليمان ، وصاحب اتحاف السادة المتقين فى (٢٧٣/١٠) ثم قال عنه قال العراقى : رواه الحكيم الترمذى فى نوادر الأصول من حديث سلمان ولا يصح أ هـ . وقال أيضاً : قلت : وكذلك رواه الخليلى فى مشيخته ولفظهما : ارقبوا الميت عند وفاته فإذا ذرفت عيناه ورشح جبينه وانتشر منخراه فهى رحمة من الله قد نزلت به ، وإذا غط غطيط البكر المخنوق وكمد لونه وأزبد شدقاه فهو عذاب من الله قد نزل به وقد وردت فى رشح الجبين أحاديث أوردها السيوطى فى أمالى الدرة الفاخرة .

(٢) أخرجه البخارى فى كتاب التوحيد باب قول الله : « ويحذركم الله نفسه » (٣٨٤/١٣) ومسلم فى كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار (٢/١٧ ، ٣) وابن ماجة فى كتاب الأدب باب فضل العمل (١٢٥٥/٢) .

ودخل النبى ﷺ على شاب وهو يموت فقال : « كيف تجدك ؟ » قال : أرجو الله ، وأخاف ذنوبى ، فقال النبى ﷺ : « ما اجتمعا فى قلب عبد فى مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله الذى يرجو وآمنه من الذى يخاف »[1]

وقال ثابت البنانى : كان شاب به حدّة وكان له أم تعظه كثيراً وتقول له : يا بنى إن لك يوماً فاذكر يومك . فلما نزل به أمر الله تعالى أكبّت عليه أمه وجعلت تقول له : يا بنى قد كنت أحذرك مصرعك هذا وأقول إن لك يوما ، فقال : يا أمه : إن لى رباً كثير المعروف وإنى لأرجو أن لا يعد منى اليوم بعض معروفه ، قال ثابت : فرحمه الله بحسن ظنه بربه .

وقال جابر بن وداعة : كان شاب به رهق[2] فاحتضر ، فقالت له أمه : يا بنى توصى بشىء ؟ قال : نعم ، خاتمى لا تسلبينيه فإن فيه ذكر الله تعالى فلعل الله يرحمنى ، فلما دفن رؤى فى المنام فقال : أخبروا أمى أن الكلمة قد نفعتنى وأن الله قد غفر لى .

ومرض أعرابى فقيل له : إنك تموت ، فقال : أين يُذْهبُ بى ؟ قالوا: إلى الله ، قال : فما كراهتى أن أذهب إلى من لا يُرَى الخير إلا منه .

وقال أبو المعتمر بن سليمان : قال أبى لما حضرته الوفاة : يا معتمر حدثنى بالرخص لعلى ألقى الله عز وجل وأنا حسن الظنّ به .

وكانوا يستحبون أن يذكر للعبد محاسن عمله عند موته لكى يحسن الظن بربه .

* * *

(١) أخرجه الترمذى فى كتاب الجنائز باب ١٠ حديث رقم ٩٨٨ ، وقال أبو عيسى : هذا حديث غريب ، وقد روى بعضهم هذا الحديث عن ثابت عن النبى ﷺ مرسلاً ، وأخرج ابن ماجة فى كتاب الزهد باب ذكر الموت والاستعداد له (١٤٣٣/٢) .

(٢) فى اللسان : الرُّهق بمعنى : الخفة فى العقل ، أو العربدة ، أو الحمق والجهل والسفه ، أو الكبر ، أو الظلم ... إلخ (انظر : مادة « رهق ») .

البحث الخامس

مشروعية التلقين وبيان ما ينبغى للملقن

قال أبو سعيد الخدرى : قال رسول الله ﷺ : « لقّنوا موتاكم : لا إله إلا الله » [1] .

وفى رواية حذيفة : « فإنها تهدم ما قبلها من الخطايا »[2] .

وقال عثمان : قال رسول الله ﷺ : « من مات وهو يعلم أن لا إله إلا الله دخل الجنة »[3] وقال عبيد الله : « وهو يشهد » .

وقال عثمان : إذا احتضر الميت فلقنوه : « لا إله إلا الله » فإنه ما من عبد يختم له بها عند موته إلا كانت زاده إلى الجنة .

وقال عمر رضى الله عنه : احضروا موتاكم وذكروهم فإنهم يرون ما لا ترون ولقنوهم : « لا إله إلا الله » .

وقال أبو هريرة : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « حضر ملك الموت رجلاً يموت فنظر فى قلبه فلم يجد فيه شيئاً ، ففكّ لحييْه فوجد طرف لسانه لاصقاً بحنكه يقول : لا إله إلا الله فغفر له بكلمة الإخلاص »[4] .

---

(١) أخرجه الإمام مسلم فى كتاب الجنائز باب تلقين الموتى « لا إله إلا الله » (٢١٩/٦) شرح النووى والترمذى فى كتاب الجنائز باب ما جاء فى تلقين المريض حديث رقم ٩٨٣ ، وابن ماجة فى كتاب الجنائز باب ما جاء فى تلقين الميت « لا إله إلا الله » ، وأبو داود فى كتاب الجنائز باب فى التلقين (١٨٧/٣) ، والنسائى فى كتاب الجنائز باب تلقين الميت ٥/٤ ، وأحمد فى المسند ٣/٣ .

(٢) ذكره صاحب كنز العمال فى (٥٦٨/١٥) وعزاه للديلمى عن أبى هريرة وصاحب اتحاف السادة المتقين فى (٢٧٤/١٠) ثم قال عنه : والذى فى كتاب المحتضرين لابن أبى الدنيا أنه من حديث ابن مسعود وقد روى نحوه الديلمى من حديث أبى هريره .

(٣) أخرجه مسلم فى كتاب الإيمان باب من مات على التوحيد دخل الجنة (٢١٨/١) ، والحاكم فى المستدرك فى كتاب الإيمان (٧٢/١) وقال عنه : وله شاهد بهذا الإسناد عن عثمان ولم يخرجاه .

(٤) ذكره صاحب كنز العمال فى (٤١٧/١) وعزاه لابن أبى الدنيا فى كتاب المحتضرين =

وينبغى للملقن أن لا يلح فى التلقين ولكن يتلطف ، فربما لا ينطق لسان المريض فيشق عليه ذلك ويؤدى إلى استثقاله التلقين وكراهيته للكلمة، ويخشى أن يكون ذلك سبب سوء الخاتمة .

وإنما معنى هذه الكلمة أن يموت الرجل وليس فى قلبه شيء غير الله، فإذا لم يبق له مطلوب سوى الواحد الحق كان قدومه بالموت على محبوبه غاية النعيم فى حقه . وإن كان القلب مشغوفاً بالدنيا ملتفتاً إليها متأسفاً على لذاتها وكانت الكلمة على رأس اللسان ، ولم ينطبق القلب على تحقيقها ، وقع الأمر في خطر المشيئة ، فإن مجرد حركة اللسان قليل الجدوى إلا أن يتفضل الله تعالى بالقبول .

* * *

= والبيهقى عن أبى هريرة أ هـ . وذكره البغدادى فى تاريخه (١٢٥/٩) .

البحث السادس

بيان الحسرة عند لقاء ملك الموت بحكايات يعرب لسان الحال عنها

قال أشعث بن أسلم : سأل إبراهيم عليه السلام ملك الموت ـ واسمه عزرائيل وله عينان . عين فى وجهه ، وعين فى قفاه ـ فقال : يا ملك الموت ما تصنع ! إذا كان نفس بالمشرق ونفس بالمغرب ووقع الوباء بأرض والتقى الزحفان كيف تصنع ؟ قال : أدعو الأرواح بإذن الله فتكون بين أصبعى هاتين .

وقال : قد دُحِيَتْ له الأرض فتركت مثل الطست بين يديه يتناول منها ما يشاء . قال : وهو يبشره بأنه خليل الله عز وجل .

وقال سليمان بن داود عليهما السلام لملك الموت : ما لى لا أراك تعدل بين الناس تأخذ هذا وتدع هذا ؟

قال : ما أنا بذلك بأعلم منك ! إنما هى صحف أو كتب تلقى إلىّ فيها أسماء .

وقال وهب بن منبه : كان ملك من الملوك أراد أن يركب إلى أرض ، فدعا بثياب ليلبسها ، فلم تعجبه فطلب غيرها ، حتى لبس ما أعجبه ـ بعد مرات ـ وكذلك طلب دابة فأتى بها فلم تعجبه ، حتى أتى بدواب فركب أحسنها ؛ فجاء إبليس فنفخ فى منخره نفخة فملأه كبراً ، ثم سار وسارت معه الخيول وهو لا ينظر إلى الناس كبراً .

فجاءه رجل رَثُّ الهيئة فسلم فلم يردّ عليه السلام ، فأخذ بلجام دابته فقال : أرسل اللجام فقد تعاطيت أمراً عظيماً ! قال : إن لى إليك حاجة . قال : اصبر حتى أنزل . قال : لا الأن فقهره على لجام دابته فقال أذكرها

قال هو سر فأدنى له رأسه فساره وقال أنا ملك الموت فتغير لون الملك واضطرب لسانه ثم قال دعنى حتى أرجع إلى أهلى وأقضى حاجتى وأودعهم قال : لا والله لا ترى أهلك وثقلك أبداً ! فقبض روحه فخرّ كأنه خشبة .

ثم مض فلقى عبداً مؤمناً فى تلك الحال فسلم عليه فردّ عليه السلام فقال : إن لى إليك حاجة أذكرها فى أذنك فقال : هات فسارّه وقال : أنا ملك الموت ! فقال : أهلاً ومرحباً بمن طالت غيبته علىّ فوالله ما كان فى الأرض غائب أحب إلىّ أن ألقاه منك ! فقال ملك الموت : أقض حاجتك التى خرجت لها ، فقال : مالى حاجة أكبر عندى ولا أحب من لقاء الله تعالى ! قال : فاختر على أى حال شئت أن أقبض روحك ؟ فقال : تقدر على ذلك ؟ قال : نعم إنى أمرت بذلك ، قال: فدعنى حتى أتوضأ وأصلى ثم اقبض روحى وأنا ساجد ، فقبض روحه وهو ساجد .

وقال أبو بكر بن عبد الله المزنى : جمع رجل من بنى إسرائيل مالا فلما أشرف على الموت قال لبنيه : أرونى أصناف أموالى ؟ فأتى بشىء كثير من الخيل والإبل والرقيق وغيره ، فلما نظر إليه بكى تحسراً عليه ، فرآه ملك الموت وهو يبكى فقال له : ما يبكيك ؟ فوالذى خولك ما أنا بخارج من منزلك حتى أفرّق بين روحك وبدنك ! قال : فالمهلة حتى أفرّقه . قال : هيهات انقطعت عنك المهلة ! فهلا كان ذلك قبل حضور أجلك ؟

فقبض روحه .

وروى أنّ رجلاً جمع مالاً فأوعى ولم يدع صنفاً من المال إلا اتخذه ، وابتنى قصراً وجعل عليه بابين وثيقين وجمع عليه حرساً من غلمانه ، ثم جمع أهله وصنع لهم طعاماً وقعد على سريره ورفع إحدى رجليه على الأخرى وهم يأكلون ، فلما فرغوا قال : يا نفس أنعمى لسنين فقد جمعت لك ما يكفيك ؟ فلم يفرغ من كلامه حتى أقبل إليه ملك الموت فى هيئة رجل عليه خلقان من الثياب وفى عنقه مخلاة يتشبه بالمساكين ، فقرع الباب بشدّة عظيمة قرعاً أفزعه وهو على فراشه ، فوثب إليه الغلمان وقالوا :

ما شأنك ؟ فقال : ادعوا إليّ مولاكم . فقالوا : وإلى مثلك يخرج مولانا ؟ قال : نعم فأخبروه بذلك . فقال : هلا فعلتم به وفعلتم ، فقرع الباب قرعة أشدّ من الأولى ، فوثب إليه الحرس فقال : أخبروه أنى ملك الموت فلما سمعوه ألقى عليهم الرعب ووقع على مولاهم الذل والتخشع ، فقال : قولوا له قولاً ليناً وقولوا هل تأخذ به أحداً ؟ فدخل عليه وقال : اصنع فى مالك ما أنت صانع ، فإنى لست بخارج منها حتى أخرج روحك ، فأمر بماله حتى وضع بين يديه فقال حين رآه : لعنك الله من مال ! أنت شغلتنى عن عبادة ربى ومنعتنى أن أتخلى لربى ، فأنطق الله المال فقال : لم تسبنى وقد كنت تدخل على السلاطين بى ويرد المتقى عن بابهم ، وكنت تنكح المتنعمات بى ، وتجلس مجالس الملوك بى وتنفقنى فى سبيل الشر ، فلا أمتنع منك ، ولو أنفقتنى فى سبيل الخير نفعتك ؟ خلقت يا ابن آدم من تراب فمنطلق ببر ومنطلق بإثم .

ثم قبض ملك الموت روحه فسقط .

وقال وهب بن منبه : قبض ملك الموت روح جبار من الجبابرة ما فى الأرض مثله ! ثم عرج إلى السماء فقالت الملائكة : لمن كنت أشدّ رحمة ممن قبضت روحه ؟ قال : أمرت بقبض نفس امرأة فى فلاة من الأرض فأتيتها وقد ولدت مولوداً فرحمتها لغربتها ورحمت ولدها لصغره وكونه فى فلاة لا متعهد له بها . فقالت الملائكة : الجبار الذى قبضت الآن روحه هو ذلك المولود الذى رحمته . فقال ملك الموت : سبحان اللطيف لما يشاء !

قال عطاء بن يسار : إذا كان ليلة النصف من شعبان دفع إلى ملك الموت صحيفة فيقال : اقبض فى هذه السنة من فى هذه الصحيفة .

قال : فإن العبد ليغرس الغراس وينكح الأزواج ويبنى البنيان وإنّ اسمه فى تلك الصحيفة وهو لا يدرى .

وقال الحسن : ما من يوم إلا وملك الموت يتصفح كل بيت ثلاث مرات ، فمن وجده منهم قد استوفى رزقه وانقضى أجله قبض روحه ، فإذا

قبض روحه أقبل أهله برنة وبكاء ، فيأخذ ملك الموت بعُضادَتَى الباب فيقول: والله ما أكلت له رزقاً ولا أفنيت له عمراً ولا انتقصت له أجلاً ، وإنّ لى فيكم لعودة بعد عودة حتى لا أُبقى منكم أحداً . قال الحسن : فوالله لو يرون مقامه ويسمعون كلامه لذهلوا عن ميتهم ولبكوا على أنفسهم .

وقال يزيد الرقاشي : بينما جبار من الجبابرة من بنى إسرائيل جالس فى منزله قد خلا ببعض أهله ، إذ نظر إلى شخص قد دخل من باب بيته فثار إليه فزعاً مغضباً فقال له : من أنت ومن أدخلك علىّ دارى ؟ فقال : أما الذى أدخلنى الدار فربها ، وأما أنا فالذى لا يمنع من الحجاب ولا أستأذن على الملوك ولا أخاف صولة المتسلطنين ولا يمتنع منى كل جبار عنيد ولا شيطان مريد ؟

قال : فسقط فى يد الجبار وارتعد حتى سقط منكباً على وجهه ، ثم رفع رأسه إليه مستجدياً متذللاً له : أنت إذن ملك الموت ! قال : أنا هو ، قال : فهل أنت ممهلى حتى أحدث عهداً ؟ قال : هيهات ! انقطعت مدّتك وانقضت أنفاسك ونفذت ساعاتك ، فليس إلى تأخيرك سبيل ! قال : فإلى أين تذهب بى ؟ قال : إلى عملك الذى قدّمته وإلى بيتك الذى مهدته ، قال : فإني لم أقدّم عملاً صالحاً ولم أمهد بيتاً حسناً ، قال : فإلى لَظًى نزّاعةً للشوّى .

ثم قبض روحه فسقط ميتاً بين أهله ، فمن بين صارخ وباك .

قال يزيد الرقاشي : لو يعلمون سوء المنقلب كان العويل على ذلك أكثر .

وعن الأعمش عن خيثمة قال : دخل ملك الموت على سليمان بن داود عليهما السلام فجعل ينظر إلى رجل من جلسائه يديم النظر إليه ، فلما خرج قال الرجل : من هذا ؟ قال : هذا ملك الموت ، قال : لقد رأيته ينظر إلىّ كأنه يريدنى ، قال : فماذا تريد ؟ قال : أريد أن تخلصنى منه فتأمر الريح حتى تحملنى إلى أقصى الهند ! ففعلت الريح ذلك .

ثم قال سليمان لملك الموت بعد أن أتاه ثانياً : رأيتك تديم النظر إلى واحد من جلسائى ، قال : نعم كنت أتعجب منه لأنى كنت أمرت أن أقبضه بأقصى الهند فى ساعة قريبة وكان عندك فعجبت من ذلك ! .

* * *

الفصل الثانى :

فى وفاة رسول الله ﷺ والخلفاء الراشدين من بعده

المبحث الأول : وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم

المبحث الثانى : وفاة أبى بكر رضى الله عنه .

المبحث الثالث : وفاة عمـر رضى الله عنـه .

المبحث الرابع : وفاة عثمـان رضى الله عنه .

المبحث الخامس : وفاة علـى كـرم الله وجـهه .

المبحث السادس : وفاة الحسن والحسين رضى الله عنهما

البحث الأول
وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم

اعلم أن فى رسـول الله ﷺ أسوة حسنة ـ حياً وميتاً وفعلاً وقولاً ـ وجميع أحواله عبرة للناظرين وتبصرة للمتبصرين ، إذ لم يكن أحد أكرم على الله منه ، إذ كان خليل الله وحبيبه ونجيه ، وكان صفيه ورسوله ونبيه ، فانظر هل أمهله ساعة عند انقضاء مدته ؟ وهل أخره لحظة بعد حضور منيتـه؟ لا ، بل أرسل إليـه الملائكة الكرام الموكلين بقبض أرواح الأنام ، فجدوا بروحه الزكيـة الكريمة لينقلوها ، وعالجوها ليرحلوها عن جسده الطاهر إلى رحمة ورضوان ، وخيرات حسان ، بل إلى مقعد صدق فى جوار الرحمن ، فاشتد مع ذلك فى النزع كربه وظهر أنينه ، وترادف قلقه وارتفع حنينه ، وتغير لونه وعرق جبينه ، واضطربت فى الانقباض والانبساط شماله ويمينه ، حتى بكى لمصرعه من حضره ، وانتحب لشدة حاله من شاهد منظره ، فهل رأيت منصب النبوة دافعاً عنه مقدوراً ؟ وهل راقب الملك فيه أهلاً وعشيرا ؟ وهل سامحه إذ كان للحق نصيرا وللخلق بشيرا ونذيرا ؟ هيهات ! بل امتثل ما كان به مأموراً واتبع ما وجده فى اللوح مسطوراً .

فهذا كان حاله وهو عند الله ذو المقام المحمود ، والحوض المورود ، وهو أوّل من تنشق عنه الأرض ، وهو صاحب الشفاعة يوم العرض .

فالعجب أنا لا نعتبر به ولسنا على ثقة فيما نلقاه ، بل نحن أسراء الشهوات ! وقرناء المعاصى والسيآت ! فما بالنا لا نتعظ بمصرع محمد سيد المرسلين وإمام المتقين وحبيب رب العالمين ، لعلنا نظن أننا مخلدون ، أو نتوهم أنا مع سوء أفعالنا عند الله مكرمون ، هيهات ! هيهات ! بل نتيقن أنا جميعاً على النار واردون ، ثم لا ينجوا منها إلا المتقون ، فنحن للورود مستيقنون ، وللصدور عنها متوهمون ، لا ، بل ظلمنا أنفسنا إن كنا كذلك

لغالب الظن منتظرين، فما نحن والله من المتقين ، وقد قال الله رب العالمين: ﴿ **وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا** ﴾[1] فلينظر كل عبد إلى نفسه إنه إلى الظالمين أقرب أم إلى المتقين ؟ فانظر إلى نفسك بعد أن تنظر إلى سيرة السلف الصالحين ، فلقد كانوا مع ما وفقوا له من الخائفين . ثم انظر إلى سيد المرسلين فإنه كان من أمره على يقين ، إذ كان سيد النبيين وقائد المتقين ، واعتبر كيف كان كربه عند فراق الدنيا! وكيف اشتد أمره عند الانقلاب إلى جنة المأوى.

قال ابن مسعود رضى الله عنه : دخلنا على رسول الله ﷺ فى بيت أمنا عائشة رضى الله عنها حين دنا الفراق ، فنظر إلينا فدمعت عيناه صلى الله عليه وسلم ثم قال : « مرحباً بكم حياكم الله وآواكم الله ، نصركم الله ، وأوصيكم بتقوى الله ، وأوصى بكم الله ، إنى لكم منه نذير مبين ، ألا تعلوا على الله فى بلاده وعباده وقد دنا الأجل ، والمنقلب إلى الله وإلى سدرة المنتهى ، وإلى جنة المأوى ، وإلى الكأس الأوفى ، فاقرءوا على أنفسكم وعلى من دخل فى دينكم بعدى منى السلام ورحمة الله »[2] .

وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال لجبريل عليه السلام عند موته : « من لأمتى بعدى » فأوحى الله تعالى إلى جبريل : أن بشر حبيبى أنى لا أخذله فى أمته ، وبشره بأنه أسرع الناس خروجاً من الأرض إذا بعثوا ، وسيدهم إذا جمعوا ، وأن الجنة محرمة على الأمم حتى تدخلها أمته . فقال : « الآن قرت عينى »[3] .

---

(١) سورة مريم الآيتان : ٧١ ، ٧٢ .

(٢) ذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد فى كتاب علامات النبوة باب فى وداعه ﷺ (٣٥/٩) ثم قال : رواه البزار وقال : روى هذا عن مرة عن عبد الله من غير وجه والأسانيد عن مرة متقاربة وعبد الرحمن لم يسمع هذا من مرة إنما أخبره عن مرّة ولا تعلم رواه عن عبد الله غير مرة ، قلت : رجاله رجال الصحيح غير محمد بن إسماعيل بن سمرة الأحمس وهو ثقة ، ورواه الطبرانى فى الأوسط بنحوه إلا أنه قال قبل موته بشهر ، وذكر فى إسناده ضعفاء منهم أشعث بن طابق قال الأزدى لا يصح حديثه. والله أعلم .

(٣) ذكره صاحب إتحاف السادة المتقين (٢٨٦/١٠) ثم قال عنه : قال العراقى : رواه =

وقالت عائشة رضى الله عنها : أمرنا رسول الله ﷺ أن نغسله بسبع قرب من سبعة آبار ، ففعلنا ذلك فوجد راحة ، فخرج فصلى بالناس واستغفر لأهل أحد ودعا لهم وأوصى بالأنصار فقال : « أما بعد : يا معشر المهاجرين فإنكم تزيدون وأصبحت الأنصار لا تزيد على التى هى عليها اليوم ، وإنّ الأنصار عيبتى التى أويت إليها فأكرموا كريمهم - يعنى محسنهم - وتجاوزوا عن مسيئهم » ثم قال : « إن عبدا خُيِّرَ بين الدنيا وبين ما عند الله فاختار ما عند الله » فبكى أبو بكر رضى الله عنه وظنّ أنه يريد نفسه ، فقال النبى ﷺ : « على رسلكَ يا أبا بكر سدّوا هذه الأبواب الشوارع فى المسجد إلا باب أبى بكر فإنى لا أعلم أفضل عندى فى الصحبة من أبى بكر »[1] قالت عائشة رضى الله عنها: فَقُبِضَ صلى الله عليه وسلم فى بيتى وفى يومى وبين سَحْرى ونَحرى وجمع الله بين ريقى وريقه عند الموت ، فدخل علىّ أخى عبد الرحمن وبيده سواك فجعل ينظر إليه فعرفت أنه يعجبه ذلك ، فقلت له: آخذه لك ، فأومأ برأسه أن : نعم ، فناولته إياه فأدخله فى فيه ، فاشتدّ عليه فقلت : ألينه لك ؟ فأومأ برأسه أن نعم ، فلينته وكان بين يديه ركوة ماء فجعل يدخل فيها يده ويقول : « لا إله إلا الله إنّ للموت لسكرات » ثم نصب يديه بقول : « الرفيق الأعلى .. الرفيق الأعلى » فقلت : إذن والله لا يختارنا[2] .

= الطبرانى فى الكبير من حديث جابر وابن عباس من حديث طويل فيه : « من لأمتى المصطفاة من بعدى » قال : أبشر يا حبيب الله فإن الله عز وجل يقول قد حرمت الجنة على جميع الأنبياء والأمم حتى تدخلها أنت وأمتك قال : الآن طابت نفسى » وإسناده ضعيف أ هـ . ثم قال : قلت : فيه عبد المنعم بن إدريس بن سفيان عن أبيه عن وهب ابن منبه عن جابر وابن عباس وعبد المنعم وأبوه ضعيفان والحديث طويل جداً فى ورقتين كبار .

(١) أخرجه الدارمى فى كتاب المقدمة باب وفاة النبى ﷺ (٣٨/١) وذكره الهيثمى فى كتاب المناقب باب فى فضل الأنصار (٣٩/١٠) ثم قال : رواه الطبرانى فى الأوسط ورجاله رجال الصحيح .

(٢) أخرجه البخارى فى كتاب المغازى باب مرض النبى ﷺ ووفاته (١٣٨/٨) ومسلم فى كتاب فضائل الصحابة باب فضائل أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها (١٠٩/١٥) والحاكم فى المستدرك فى كتاب معرفة الصحابة باب عائشة هى زوجة النبى ﷺ فى الدنيا والآخرة ٧/٤ .

وروى سعيد بن عبد الله عن أبيه قال[1] : لما رأت الأنصار أن النبى ﷺ يزداد ثقلاً أطافوا بالمسجد ، فدخل العباس رضى الله عنه على النبى ﷺ فأعلمه بمكانهم وإشفاقهم ، ثم دخل عليه الفضل فأعلمه بمثل ذلك ، ثم دخل عليه على رضى الله عنه فأعلمه بمثله ، فمدّ يده وقال : « ها » فتناولوه ، فقال : « ما تقولون ! » قالوا : نقول نخشى أن تموت ، وتصايح نساؤهم لاجتماع رجالهم إلى النبى ﷺ ، فثار رسول الله ﷺ فخرج متوكئاً على علىّ والفضل ، والعباس أمامه ، ورسول الله ﷺ معصوب الرأس يخط برجليه حتى جلس على أسفل مرقاة من المنبر ، وثاب الناس إليه فحمد الله وأثنى عليه وقال : « أيها الناس إنه بلغنى أنكم تخافون علىّ الموت كأنه استنكار منكم للموت ، وما تنكرون من موت نبيكم . ألم أنع إليكم وتنعى إليكم أنفسكم ؟ هل خلد نبى قبلى فيمن بعث فأخلد فيكم ؟ ألا إنى لاحق بربى وإنكم لاحقون به وإنى أوصيكم بالمهاجرين الأوّلين خيراً وأوصى المهاجرين فيما بينهم فإنّ الله عز وجل قال ﴿ **والعصر إنّ الإنسان لفى خسْر إلا الذين آمنوا** ﴾[2] ـ إلى آخرها ـ وإن الأمور تجرى بإذن الله فلا يحملنكم استبطاء أمر على استعجاله ، فإن الله عز وجل لا يعجل لعجلة أحد ومن غالب الله غلبه ، ومن خادع الله خدعه ﴿ **فهل عَسَيْتُمْ إن تَوَلَّيْتُمْ أن تُفْسِدُوا فى الأرض وتُقطِّعُوا أرحامكم** ﴾[3] وأوصيكم بالأنصار خيراً فإنهم الذين تبوّءوا الدار والإيمان من قبلكم أن تحسنوا إليهم ، ألم يشاطروكم الثمار ، ألم يوسعوا عليكم فى الديار ، ألم يؤثروكم على

---

(١) ذكره صاحب إتحاف السادة المتقين فى (٢٨٩/١٠ ، ٢٩٠) ثم قال عنه : قال العراقى : هو مرسل ضعيف وفيه نكارة ولم أجد له أصلا وأبو عبد الله بن ضرار بن الأزور تابعى روى عن ابن مسعود قال أبو حاتم فيه ، وفيه ابنه سعيد ليس بالقوى أ هـ . ثم قال : أيضاً قلت أسنده سيف بن عمر فى كتاب الفتوح هكذا ، وأورده الفكهانى فى الفجر المنير من طريقة قال الذهبى سعيد بن عبد الله بن ضرار عن أنس قال : أبو حاتم : ليس بالقوى وعبد الله بن ضرار عن أبيه وغيره قال يحى لا يكتب حديثا .

(٢) سورة العصر .

(٣) سورة محمد ﷺ الآية : ٢٢ .

أنفسهم وبهم الخصاصة ؟ ألاَ فمن ولى أن يحكم بين رجلين فليقبل من محسنهم وليتجاوز عن مسيئهم ، ألا ولا تستأثرون عليهم ألا وإنى فرط لكم وأنتم لاحقون بى ، ألا وإنّ موعدكم الحوض ، حوض أعرض مما بين بصْرى الشام وصنعاء اليمن ، يصبّ فيه ميزاب الكوثر ، ماؤه أشدّ بياضاً من اللبن وألين من الزبد ، وأحلى من الشهد ، من شرب منه لم يظمأ أبداً ، حصباؤه اللؤلؤ وبطحاؤه المسك ، من حرمه فى الموقف غداً حرم الخير كله ، ألا فمن أحب أن يَرِدَه علىّ غداً فليكفف لسانه ويده إلا مما ينبغى » فقال العباس : يا نبى الله أوْص بقريش ! فقال : « إنما أوصى بهذا الأمر قريشاً والناس تَبَعٌ لقريش برُّهم لبرْهم وفاجرهم لفاجرهم ، فاستوصوا آل قريش بالناس خيراً ، يا أيها الناس إنّ الذنوب تغير النعم وتبدل القسم ، فإذا برّ الناس أئمتهم وإذا فجر الناس عقُّوهُمْ قال الله تعالى : ﴿ **وكذلك نولى بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون** ﴾ [1] .

وروى ابن مسعود رضى الله عنه : أن النبى ﷺ قال لأبى بكر رضى الله عنه : « سل يا أبا بكر » فقال : يا رسول الله دنا الأجل ؟ فقال : « قد دنا الأجل وتدلى » فقال : ليهنك يا نبى الله ما عند الله ! فليت شعرى عن منقلبنا ، فقال : « إلى الله وإلى سدرة المنتهى ثم إلى جنة المأوى والفردوس الأعلى والكأس الأوفى والرفيق الأعلى والحظ والعيش المهنا » فقال : يا نبى الله من يلى غسلك ؟ قال : « رجال من أهل بيتى الأدنى فالأدنى » قال : ففيم نكفنك ؟ فقال : « فى ثيابى هذه وفى حلة يمانية وفى بياض مصر » فقال : كيف الصلاة عليك منا ؟ وبكينا وبكى ثم قال : « مهلاً غفر الله لكم وجزاكم عن نبيكم خيراً ، إذا غسلتمونى وكفنتمونى فضعونى على سريرى فى بيتى هذا على شفير قبرى ، ثم اخرجوا عنى ساعة ، فإن أوّل من يصلى علىّ الله عز وجل ﴿ **هو الذى يصلى عليكم وملائكته** ﴾ [2] ثم

(١) سورة الأنعام الآية : ١٢٩ .
(٢) سورة الأحزاب الآية : ٤٣ .

يأذن للملائكة فى الصلاة علىّ ، فأوّل من يدخل علىّ من خلق الله جبريل ، ثم ميكائيل ، ثم إسرافيل ، ثم ملك الموت مع جنود كثيرة ، ثم الملائكة بأجمها صلى الله عليهم أجمعين ، ثم أنتم فادخلوا علىّ أفواجاً فصلوا علىّ أفواجاً زمرة زمرة وسلموا تسليما ، ولا تؤذونى بتزكية ولا صيحة ولا رنة وليبدأ منكم الإمام وأهل بيتى الأدنى فالأدنى ، ثم زمر النساء ثم زمر الصبيان » قال : فمن يدخل القبر ؟ قال : « زمر من أهل بيتى الأدنى فالأدنى مع ملائكة كثيرة لا ترونهم وهم يرونكم قوموا فأدّوا عنى إلى من بعدى »[1] .

وقال عبد الله بن زمعة : جاء بلال فى أوّل شهر ربيع الأوّل فأذن بالصلاة فقال رسول الله ﷺ : « مروا أبا بكر يصلى بالناس » [2] فخرجت فلم أر بحضرة الباب إلا عمر فى رجال ليس فيهم أبو بكر ، فقلت : قم يا عمر فصلّ بالناس ، فقام عمر فلما كبر وكان رجلاً صيتا سمع رسول الله ﷺ صوته بالتكبير فقال : « أين أبو بكر ؟ يأبى الله ذلك والمسلمون » قالها ثلاث مرات : « مروا أبا بكر فليصل بالناس » فقالت عائشة رضى الله عنها : يا رسول الله إن أبا بكر رجل رقيق القلب إذا قام مقامك غلبه البكاء! فقال: « إنكنّ صويحبات يوسف مروا أبا بكر فليصلّ بالناس » قال : فصلى أبو بكر بعد الصلاة التى صلى عمر ، فكان عمر يقول لعبد الله بن زمعة ـ بعد ذلك ـ ويحك ما ذا صنعت بى ! والله لولا أنى ظننت أن رسول الله ﷺ أمرك ما فعلت . فيقول عبد الله : إنى لم أر أحداً أولى بذلك منك ! قالت عائشة رضى الله عنها : وما قالت ذاك ولا صرفته عن أبى بكر إلا رغبة به عن الدنيا ، ولما فى الولاية من الخاطرة والهلكة إلا من سلم الله ،

---

(١) ذكره صاحب إتحاف السادة المتقين فى (١٠/٢٩٠) ثم قال عنه : قال العراقى : رواه ابن سعد فى الطبقات عن محمد هو الواقدى بإسناد ضعيف إلى ابن عون عن ابن مسعود وهو مرسل ضعيف كما تقدم أ هـ . ثم قال أيضاً : قلت : رواه الطبرانى فى الدعاء والواحدى فى التفسير بسند واه جداً إلى ابن مسعود بألفاظ قريبة ، ورواه أيضاً أبو يعلى فى مسنده مختصراً .

(٢) أخرجه البخارى فى كتاب الأذان باب حد المريض أن يشهد الجماعة (٢/١٥١) ومسلم فى كتاب الصلاة باب استخلاف الإمام إذا عرض له عذر (٤/١٤٠ ، ١٤١) شرح النووى .

وخشيت أيضاً أن لا يكون الناس يحبون رجلاً صلى فى مقام النبى ﷺ وهو حى أبداً، إلا أن يشاء الله ، فيحسدونه ويبغون عليه ويتشاءمون به فإذن الأمر أمر الله والقضاء قضاؤه ، وعصمه الله من كل ما تخوفت عليه من أمر الدنيا والدين (١).

وقالت عائشة رضى الله عنها : فلما كان اليوم الذى مات فيه رسول الله ﷺ رأوا منه خفة فى أوّل النهار ، فتفرق عنه الرجال إلى منازلهم وحوائجهم مستبشرين ، وأخلوا رسول الله ﷺ بالنساء ، فبينا نحن على ذلك لم نكن على مثل حالنا فى الرجاء والفرح قبل ذلك ، قال رسول الله ﷺ : « أخرجن عنى ! هذا الملك يستأذن علىّ » فخرج من فى البيت غيرى ورأسه فى حجرى فجلس وتنحيت فى جانب البيت فناجى الملك طويلاً ، ثم إنه دعانى فأعاد رأسه فى حجرى وقال للنسوة : « ادخلن » فقلت : ما هذا بحس جبريل عليه السلام ؟ فقال رسول الله ﷺ : « أجل يا عائشة هذا ملك الموت جاءنى فقال : إن الله عز وجل أرسلنى وأمرنى أن لا أدخل عليك إلا بإذن ، فإن لم تأذن لى أرجع ، وإن أذنت لى دخلت ، وأمرنى أن لا أقبضك حتى تأمرنى فماذا أمرك ؟ فقلت : أكفف عنى حتى يأتينى جبريل عليه السلام ، فهذه ساعة جبريل » فقالت عائشة رضى الله عنها : فاستقبلنا بأمر لم يكن له عندنا جواب ولا رأى ، فوجمنا وكأنما ضربنا بصاخّة ما نحير إليه شيئاً وما يتكلم أحد من أهل البيت إعظاماً لذلك الأمر وهيبة ملأت أجوافنا ، قالت : وجاء جبريل فى ساعته فسلم فعرفت

---

(١) حديث عبد الله بن زمعة : جاء بلال فى أول ربيع الأول فأذن بالصلاة فقال النبى ﷺ : «مروا أبا بكر فليصل بالناس » فخرجت فلم أر بحضرة الباب إلا عمر فى رجال ليس فيهم أبو بكر ... الحديث » أخرجه أبو داود بإسناد جيد نحوه مختصراً دون قوله : « فقالت عائشة : إن أبا بكر رجل رقيق ... إلى آخره » ولم يقل : فى أول ربيع الأول . وقال « مروا من يصلى بالناس » وقال : « يأبى الله ذلك والمؤمنون » مرتين وفى رواية له فقال : « لا لا لا ... ليصل للناس ابن أبى قحافة » يقول ذلك مغضبا ، وأما ما فى آخره من قول عائشة ففى الصحيحين من حديثها فقالت عائشة : يا رسول الله إن أبا بكر رجل رقيق إذا قام مقامك لم يسمع الناس من البكاء ! إنكن صواحبات يوسف مروا أبا بكر فليصل بالناس » .

حسه وخرج أهل البيت فدخل فقال : إن الله عز وجل يقرأ عليك السلام ويقول: كيف تجدك وهو أعلم بالذى تجد منك ، ولكن أراد أن يزيدك كرامة وشرفاً وأن يتم كرامتك وشرفك على الخلق وأن تكون سنة فى أمتك فقال : «أجدنى وجعا » فقال : أبشر فإن الله تعالى أراد أن يبلغك ما أعد لك . فقال: « يا جبريل إن ملك الموت استأذن على » وأخبره الخبر فقال جبريل : يا محمد إن ربك إليك مشتاق ألم يعلمك الذى يريد بك ؟ لا والله ما استأذن ملك الموت على أحد قط ولا يستأذن عليه أبداً ، إلا أن ربك متمٌ شرفك وهو إليك مشتاق ، قال : « فلا تبرح إذن حتى يجىء » وأذن للنساء فقال : « يا فاطمة ادنى » فأكبت عليه فناجاها فرفعت رأسها وعيناها تدمع وما تطيق الكلام ، ثم قال : « ادنى منى رأسك » فأكبت عليه فناجاها فرفعت رأسها وهى تضحك وما تطيق الكلام ، فكان الذى رأينا منها عجباً ، فسألتها بعد ذلك فقالت : أخبرنى وقال : « إنى ميت اليوم » فبكيت ، ثم قال : « إنى دعوت الله أن يلحقك بى فى أوّل أهلى وأن يجعلك معى » فضحكت ، وأدنت ابنيها منها فشمهما قالت : وجاء ملك الموت واستأذن فأذن له فقال الملك : ما تأمرنا يا محمد ؟ قال : « الحقنى بربى الآن » فقال : بلى من يومك هذا أما إن ربك إليك مشتاق ولم يتردد عن أحد تردده عنك ، ولم ينهنى عن الدخول على أحد إلا بإذن غيرك ، ولكن ساعتك أمامك ، وخرج ، قالت : وجاء جبريل فقال السلام عليك يا رسول الله هذا آخر ما أنزل فيه إلى الأرض أبداً « طوى الوحى وطويت الدنيا وما كان لى فى الأرض حاجة غيرك ، وما لى فيها حاجة إلا حضورك ، ثم لزوم موقفى، لا والذى بعث محمداً بالحق ما فى البيت أحد يستطيع أن يحير إليه فى ذلك كلمة ولا يبعث إلى أحد من رجاله ، لعظم ما يسمع من حديثه ووجدنا وإشفاقنا ، قالت : فقمت إلى النبى ﷺ حتى أضع رأسه بين ثديى وأمسكت بصدره ، وجعل يغمى عليه حتى يغلب وجبهته ترشح رشحاً ما رأيته من إنسان قط ، فجعلت أسلت ذلك العرق وما وجدت

رائحة شيء أطيب منه فكنت أقول له ـ إذا أفاق ـ بأبى أنت وأمى ونفسى وأهلى ما تلقى جبهتك من الرشح ؟ فقال : « يا عائشة إن نفس المؤمن تخرج بالرشح ونفس الكافر تخرج من شدقيه كنفس الحمار » فعند ذلك ارتعنا وبعثنا إلى أهلنا ، فكان أوّل رجل جاءنا ولم يشهده أخى ، بعثه إلىّ أبى ، فمات رسول الله ﷺ قبل أن يجيء أحد ، وإنما صدّهم الله عنه لأنه ولاه جبريل وميكائيل، وجعل إذا أغمى عليه قال : « بل الرفيق الأعلى » كأن الخيرة تعاد عليه ، فإذا أطاق الكلام قال : « الصلاة الصلاة إنكم لا تزالون متماسكين ما صليتم جميعاً » الصلاة الصلاة كان يوصى بها حتى مات وهو يقول : « الصلاة الصلاة »[1] .

قالت عائشة رضى الله عنها : مات رسول الله ﷺ بين ارتفاع

(١) حديث عائشة : لما كان اليوم الذى مات فيه رسول الله ﷺ رأوا منه خفة فى أول النهار فتفرق عنه الرجال إلى منازلهم وحوائجهم مستبشرين وأخلوا رسول الله ﷺ بالنساء ، فبينما نحن عل ذلك لم يكن على هذا حالنا فى الرجاء والفرح قبل ذلك قال رسول الله ﷺ : « اخرجن عنى ، هذا الملك يستأذن علىّ ... الحديث » بطوله فى مجىء ملك الموت ثم ذهابه ثم مجىء جبريل ثم مجىء ملك الموت ووفاته صلى الله عليه وسلم ، أخرجه الطبرانى فى الكبير من حديث جابر وابن عباس مع اختلاف فى حديث طويل فيه : فلما كان يوم الاثنين اشتد الأمر وأوحى الله إلى ملك الموت أن أهبط إلى حبيبى وصفى محمد ﷺ فى أحسن صورة وارفق به فى قبض روحه ، وفيه دخول ملك الموت واستئذانه فى قبضه فقال : « يا ملك الموت أين خلفت حبيبى جبريل » قال خلفته فى سماء الدنيا والملائكة يعزونه فيك ، فما كان بأسرع أن أتاه جبريل فقعد عند رأسه وذكر بشارة جبريل له بما أعد الله له ، وفيه أدن يا ملك الموت فانته إلى ما أمرت به ... الحديث . وفيه : فدنا ملك الموت يعالج قبض روح النبى ﷺ وذكر كربه لذلك ، إلى أن قال : فقبض رسول الله ﷺ ، وهو حديث طويل فى ورقتين كبار وهو منكر ، وفيه عبد المنعم بن إدريس بن سنان عن أبيه عن وهب بن منبه قال أحمد : كان يكذب على وهب بن منبه ، وأبوه إدريس أيضاً متروك قاله الدارقطنى ، ورواه الطبرانى أيضاً من حديث الحسين ابن علي : أن جبريل جاءه أولاً فقال له عن ربه كيف تجدك ثم جاءه جبريل اليوم الثالث ومعه ملك الموت وملك الهواء إسماعيل وأن جبريل دخل أولاً فسأله ثم استأذن ملك الموت وقوله : « امض لما أمرت به » وهو منكر أيضاً فيه عبد الله بن ميمون القداح قال البخارى ذاهب الحديث ورواه أيضاً من حديث ابن عباس فى مجيء ملك الموت أولاً واستئذانه قوله : إن ربك يقرئك السلام فقال : « أين جبريل » فقال هو قريب منى الآن يأتى فخرج ملك الموت حتى نزل عليه جبريل ... الحديث وفيه المختار بن نافع منكر الحديث .

الضحى وانتصاف النهار يوم الاثنين[1] .

قالت فاطمة رضى الله عنها : ما لقيت من يوم الاثنين ، والله لا تزال الأمة تصاب فيه بعظيمة .

وقالت أم كلثوم ـ يوم أصيب علىّ كرّم الله وجه بالكوفة ـ مثلها : ما لقيت من يوم الاثنين ؛ مات فيه رسول الله ﷺ ، وفيه قتل علىّ ، وفيه قتل أبى ، فما لقيت من يوم الاثنين .

وقالت عائشة رضى الله عنها : لما مات رسول الله ﷺ اقتحم الناس ـ حين ارتفعت الرنة ، وسجّى رسول الله ﷺ الملائكةُ بثوبه .

واختلفوا فكذب بعضهم بموته ، وأخرس بعضهم فما تكلم إلا بعد البعد ، وخلط آخرون فلاثوا الكلام بغير بيان ، وبقى آخرون معهم عقولهم، وأقعد آخرون .

فكان عمر بن الخطاب فيمن كذب بموته ، وعلىّ فيمن أقعد ، وعثمان فيمن أخرس .

فخرج عمر على الناس وقال: إِن رسول الله ﷺ لم يمت، ولَيُرْجعنّه الله عز وجل ، وليقطعنّ أيدى وأرجلَ رجال من المنافقين يتمنون لرسول الله ﷺ الموت ، إنما واعده الله عز وجل كما واعد موسى وهو آتيكم[2] .

وفى رواية أنه قال[3] : يا أيها الناس كفوا ألسنتكم عن رسول الله

---

(١) ذكره صاحب إتحاف السادة المتقين فى (٢٩٧/١٠) ثم قال عنه : قال العراقى : رواه ابن عبد البر إنتهى . وقال أيضاً : وجزم موسى بن عقبة عن الزهرى بأنه صلى الله عليه وسلم مات حين زاغت الشمس وكذا لأبى الأسود عن عروة وروى ابن سعد عن عائشة إن دخول النبى ﷺ فى بيتها كان يوم الاثنين وموته يوم الاثنين .

(٢) ذكره إتحاف السادة المتقين فى (٢٩٨/١٠) ثم قال عنه : قال العراقى هذا السياق بطوله منكر لم أجد له أصلاً إنتهى . وقال أيضاً : قلت : بل رواه ابن أبى الدنيا من حديث ابن عمر بسند ضعيف وعزاه صاحب المواهب لابن المنير .

(٣) أخرجه البخارى فى كتاب الجنائز باب الدخول على الميت بعد الموت إذا ادرج فى أكفانه (١١٣/٣) فتح البارى وابن ماجة فى كتاب الجنائز باب ذكر وفاته صلى الله عليه وسلم ٥٢٠/١٠ وأحمد فى المسند (٢٢٠/٦) .

ﷺ فإنه لم يمت ، والله لا أسمع أحداً يذكر أن رسول الله ﷺ قد مات إلا علوته بسيفي هذا .

وأمّا عليّ فإنه أقعد فلم يبرح البيت .

وأما عثمان فجعل لا يكلم أحداً ـ يؤخذ بيده فيجاء به ويذهب به .

ولم يكن أحد من المسلمين في مثل حال أبي بكر والعباس فقال : والله الذي لا إله إلا هو لقد ذاق رسول الله ﷺ الموت ، ولقد قال وهو بين أظهركم ﴿ **إنك ميّت وإنهم ميتون ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون** ﴾ [1] .

وبلغ أبا بكر الخبر وهو في بني الحرث بن الخزرج فجاء ودخل على رسول الله ﷺ فنظر إليه ثم أكبّ عليه فقبله ثم قال [1] : (بأبي أنت وأمي يا رسول الله ما كان الله ليُذيقك الموت مرتين ، فقد والله توفى رسول الله ﷺ ، ثم خرج إلى الناس فقال : أيها الناس من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد رب محمد فإنه حي لا يموت . قال الله تعالى : ﴿ **وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قُتلَ انقلبتم على أعقابكم** ... ﴾ الآية [1] » فكأن الناس لم يسمعوا هذه الآية إلا يومئذ .

---

(١) سورة الزمر الآيتان : ٣٠ ، ٣١ .

(٢) حديث : بلغ أبا بكر الخبر وهو في بني الحارث بن الخزرج فجاء فدخل على رسول الله ﷺ فنظر إليه ثم أكب عليه فقبله وبكى ثم قال : بأبي أنت وأمي ما كان الله ليذيقك الموت مرتين ... الحديث إلى آخر قوله : وكأن الناس لم يسمعوا هذه الآية إلا يومئذ . أخرجه البخاري ومسلم من حديث عائشة : أن أبا بكر أقبل على فرس من مسكنه بالسنح حتى نزل ودخل المسجد ، فلم يكلم الناس حتى دخل على عائشة فيمم رسول الله ﷺ وهو مغشى بثوب حبرة ، فكشف عن وجهه ثم أكب عليه فقبله وبكى ثم قال : بأبي وأمي أنت ، والله لا يجمع الله عليك موتتين ، أما الموتة التي كتبت عليك فقد متها . ولهما من حديث ابن عباس : أنا أبا بكر خرج وعمر يكلم الناس ... الحديث . وفيه : والله لكأن الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر . لفظ البخاري فيهما .

(٣) سورة آل عمران الآية : ١٤٤ .

وفى رواية : أن أبا بكر رضى الله عنه لما بلغه الخبر دخل بيت رسول الله ﷺ - وهو يصلى على النبى ﷺ وعيناه تهملان وغصصه ترتفع كقصع الجرّة ، وهو فى ذلك جلد الفعل والمقال - فأكب عليه فكشف عن وجهه وقبل جبينه ومسح وجهه وجعل يبكى ويقول : بأبى أنت وأمى ونفسى وأهلى طِبْتَ حياً وميتاً انقطع لموتك ما لم ينقطع لموت أحد من الأنبياء والنبوة ، فعظمت عن الصفة وجللت عن البكاء وخصصت حتى صرت مسلاة وعممت حتى صرنا فيك سواء ، ولولا أن موتك كان اختياراً منك لجدنا لحزنك بالنفوس ، ولولا أنك نهيت عن البكاء لأنفدنا عليك ماء العيون ، فأما ما لا نستطيع نفيه عنا فكمد وادّكار محالفان لا يبرحان ، اللهم فأبلغه عنا ، اذكرنا يا محمد صلى الله عليك عند ربك ، ولنكن من بالك ، فلولا ما خلفت من السكينة لم يقم أحد لما خلفت من الوحشة ، اللهم أبلغ نبيك عنا واحفظه فينا [1] .

وعن ابن عمر[2] : أنه لما دخل أبو بكر البيت وصلى وأثنى عج أهل

---

(١) حديث : إن أبا بكر لما بلغه الخبر دخل بيت رسول الله ﷺ - وهو يصلى على النبى ﷺ وعيناه تهملان وغصصه ترتفع كقصع الجرة وهو فى ذلك جلد الفعل والمقال - فأكب عليه فكشف الثوب عن وجهه ... الحديث ، إلى قوله : « واحفظه فينا » أخرجه ابن أبى الدنيا فى كتاب العزاء من حديث ابن عمر بإسناد ضعيف : جاء أبو بكر ورسول الله ﷺ مسجى فكشف الثوب عن وجهه ... الحديث إلى آخره .

(٢) حديث ابن عمر فى سماع التعزية به صلى الله عليه وسلم : إن فى الله خلفا من كل أحد ودركاً لكل رغبة ونجاة من كل مخالفة فالله فارجوا وبه فثقوا . ثم سمعوا آخر بعده : إن فى الله عزاء من كل مصيبة وعوضاً من كل رغيبة فالله فأطيعوا وبأمره فاعملوا . فقال أبو بكر: هذا الخضر واليسع. لم أجد فيه ذكر « اليسع » وأما ذكر « الخضر » فى التعزية فأنكر النووى وجوده فى كتب الحديث وقال : إنما ذكره الأصحاب . قلت : بلى قد رواه الحاكم فى المستدرك فى حديث أنس ولم يصححه ولا يصح ، ورواه ابن أبى الدنيا فى كتاب العزاء من حديث أنس أيضاً قال : لما قبض رسول الله ﷺ اجتمع أصحابه حوله يبكون فدخل عليهم رجل طويل شعر المنكبين فى إزار ورداء يتخطى أصحاب رسول الله ﷺ حتى أخذ يعضادتى باب البيت فبكى على رسول الله ﷺ ثم أقبل على أصحابه فقال : إن فى الله عزاء من كل مصيبة وعوضا من كل فائت وخلفاً من كل هالك فإلى الله تعالى فأنيبوا ونظره إليكم فى البلاء فانظروا فإن المصاب من لم يجبره الثواب. ثم ذهب الرجل فقال أبو بكر : على الرجل، فانتظروا يميناً وشمالاً فلم يروا أحداً ، فقال أبو بكر : لعل هذا الخضر أخو نبينا عليه =

البيت عجيجاً سمعه أهل المصلى ، كلما ذكر شيئاً ازدادوا ، فما سكن عجيجهم إلا تسليم رجل على الباب صيت جلد قال : السلام عليكم يا أهل البيت ﴿ **كل نفس ذائقة الموت** ﴾ [1] الآية إن فى الله خلفاً من كل أحد ودركاً لكل رغبة ونجاة من كل مخافة ، فالله فارجوا وبه فثقوا . فاستمعوا له وأنكروه وقطعوا البكاء فلما انقطع البكاء فقد صوته فاطلع أحدهم فلم ير أحداً . ثم عادوا فبكوا فناداهم مناد آخر لا يعرفون صوته : يا أهل البيت اذكروا الله واحمدوه على كل حال تكونوا من المخلصين ، إنّ فى الله عزاء من كل مصيبة وعوضاً من كل رغيبة ، فالله فأطيعوا وبأمره فاعملوا .

فقال أبو بكر : هذا الخضر واليسع عليهما السلام حضر النبى ﷺ .

واستوفى القعقاع بن عمرو حكاية خطبة أبى بكر رضى الله عنه فقال : قام أبو بكر فى الناس خطيباً حيث قضى الناس عبرتهم بخطبة جلها على النبى ﷺ فحمد الله وأثنى عليه على كل حال وقال : أشهد أن لا إله إلا الله وحده صدق وعده ونصر عبده وغلب الأحزاب وحده فللّه الحمد وحده وأشهد أن محمداً عبده ورسوله وخاتم أنبيائه ، وأشهد أن الكتاب كما نزل وأن الدين كما شرع ، وأن الحديث كما حدث ، وأن القول كما قال ، وأن الله هو الحق المبين ، اللهم فصل على محمد عبدك ورسولك ونبيك وحبيبك وأمينك وخيرتك وصفوتك بأفضل ما صليت به على أحد من خلقك ، اللهم واجعل صلواتك ومعافاتك ورحمتك على سيد المرسلين

= السلام جاء يعزينا . ورواه الطبرانى فى الأوسط وإسناده ضعيف جداً ، ورواه ابن أبى الدنيا أيضاً من حديث على ابن أبى طالب : لما قبض رسول الله ﷺ جاء آت نسمع حسه ولا نرى شخصه قال السلام عليكم ورحمة الله وبركاته إن فى الله عوضاً من كل مصيبة وخلفا من كل هالك ودركا من كل فائت ، فبالله فثقوا وإياه فارجوا فإن المحروم من حرم الثواب والسلام عليكم . فقال على : تدرون من هذا ؟ هو الخضر . وفيه محمد بن جعفر الصادق تكلم فيه وفيه انقطاع بين على بن الحسين وبين جده على والمعروف عن على بن الحسين مرسلاً من غير ذكر على كما رواه الشافعى فى الأم وليس فيه ذكر «الخضر» .

(١) سورة آل عمران الآية : ١٨٥ .

وخاتم النبيين وإمام المتقين محمد قائد الخير وإمام الخير ورسول الرحمة ، اللهم قرّب زلفته وعظم برهانه وكرم مقامه وابعثه مقاماً محموداً يغبطه به الأولون والآخرون ، وانفعنا بمقامه المحمود يوم القيامة ، واخلفه فينا فى الدنيا والآخرة ، وبلغه الدرجة والوسيلة فى الجنة ، اللهم صلى على محمد وعلى آل محمد وبارك على محمد وعلى آل محمد ، كما صليت وباركت على إبراهيم إنك حميد مجيد ، أيها الناس إنه من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حى لم يمت ، وإن الله قد تقدّم إليكم فى أمره فلا تدعوه جزعاً ، فإن الله عز وجل قد اختار لنبيه صلى الله عليه وسلم ما عنده على ما عندكم وقبضه إلى ثوابه وخلف فيكم كتابه وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، فمن أخذ بهما عرف ومن فرق بينهما أنكر ﴿ **يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط** ﴾ [1] ولا يشغلنكم الشيطان بموت نبيكم ولا يفتننكم عن دينكم ، وعاجلوا الشيطان بالخير تعجزوه ، ولا تستنظروه فيلحق بكم ويفتنكم .

وقال ابن عباس : لما فرغ أبو بكر من خطبته قال يا عمر أنت الذى بلغنى أنك تقول ما مات نبى الله صلى الله عليه وسلم ؟ أما ترى أن نبى الله صلى الله عليه وسلم قال يوم كذا : كذا وكذا ، ويوم كذا : كذا وكذا ، وقال تعالى فى كتابه : ﴿ **إنك ميت وإنهم ميتون** ﴾ [2] فقال : والله لكأنى لم أسمع بها فى كتاب الله قبل الآن لما نزل بنا ، أشهد أن الكتاب كما أنزل ، وأن الحديث كما حدث ، وأن الله حى لا يموت ﴿ **إنا لله وإنا إليه راجعون** ﴾ [3] وصلوات الله على رسوله وعند الله نحتسب رسوله ﷺ . ثم جلس إلى أبى بكر .

وقالت عائشة رضى الله عنها : لما اجتمعوا لغسله قالوا : والله ما ندرى

---

(١) سورة النساء الآية : ١٣٥ .

(٢) سورة الزمر الآية : ٣٠ .

(٣) سوزة البقرة الاية : ١٥٦ .

كيف نغسل رسول الله ﷺ أنجرده عن ثيابه كما نصنع بموتانا ، أو نغسله فى ثيابه ؟ قالت : فأرسل الله عليهم النوم حتى ما بقى منهم رجل إلا واضع لحيته على صدره نائما ثم قال قائل ـ لا يدرى من هو ـ غسلوا رسول الله ﷺ فى ثيابه ، فانتبهوا ففعلوا ذلك فغسل رسول الله ﷺ فى قميصه ، حتى إذا فرغوا من غسله كفن .

وقال علىٌّ كرم الله وجهه : أردنا خلع قميصه فنودينا لا تخلعوا عن رسول الله ﷺ ثيابه . فأقررناه فغسلناه فى قميصه كما نغسل موتانا مستلقياً ما نشاء أن يقلب لنا منه عضو لم يبالغ فيه إلا قلب لنا حتى نفرغ منه ، وإن معنا لحفيفا فى البيت كالريح الرخاء ويصوت بنا ارفقوا برسول الله ﷺ فإنكم ستكفون .

فهكذا كانت وفاة رسول الله ﷺ ولم يترك سبدا ولا لبدا[1] إلا دفن معه .

قال أبو جعفر : فرش لحده بمفرشه وقطيفته ، وفرشت ثيابه عليها التى كان يلبس يقظان على القطيفة والمفرش ، ثم وضع عليها فى أكفانه فلم يترك بعد وفاته مالا ولا بنى فى حياته لبنة على لبنة ولا وضع قصبة على قصبة [2].

ففى وفاته عبرة تامة ، وللمسلمين به أسوة حسنة .

* * *

---

(١) أى : لم يترك قليلا ولا كثيراً . (انظر : لسان العرب .. مادة « سبد » .

(٢) حديث أبى جعفر : فرش لحده بمفرشه وقطيفته ، وفيه : فلم يترك بعد وفاته مالا ولا بنى فى حياته لبنة على لبنة ولا وضع قصبة على قصبة . أما وضع المفرشة فالذى وضع القطيفة شقران مولى رسول الله ﷺ وليس ذكر ذلك من شرط كتابنا ، وأما كونه لم يترك مالا فقد تقدم حديث عائشة وغيرها ، وأما كونه ما بنى فى حياته فتقدم أيضاً .

البحث الثـانـي

وفاة أبى بكر الصديق رضى الله تعالى عنه

لمـا احتضر أبو بكر رضى الله تعالى عنه جاءت عائشة رضى الله عنها فتمثلت بهذا البت :

لعَمْرُك ما يُغْنى الثراء عن الفتى إذ حَشْرَجَتْ يوما وضاق بها الصدر

فكشف عن وجهه وقال : ليس كذا ولكن قولى : ﴿ **وجاءت سكْرةُ الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد** ﴾[1] انظروا ثوبىَّ هذين فاغسلوهما وكفنونى فيهما فإن الحى إلى الجديد أحوج من الميت .

وقالت عائشة رضى الله عنها عند موته :

وأبيض يستسقى الغَمَامُ بوجهه رَبيعُ اليتامى عِصْمَةٌ للأرامل

فقال أبو بكر : ذاك رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ودخلوا عليه فقالوا : ألا ندعوا لك طبيباً ينظر إليك ؟ قال قد نظر إلىّ طبيبى وقال : إنى فعال لما أريد .

ودخل عليه سلمان الفارسى رضى الله تعالى عنه يعوده فقال : يا أبا بكرأوصنا . فقال : إن الله فاتح عليكم الدنيا فلا تأخذنّ منها إلا بلاغك ، واعلم أَن من صلى صلاة الصبح فهو فى ذمة الله ، فلا تخفرن الله فى ذمته فيكبك فى النار على وجهك .

ولما ثقل أبو بكر رضى الله تعالى عنه وأراد الناس منه أن يستخلف ، فاستخلف عمر رضى الله عنه . فقال الناس له : استخلفت علينا فظاً غليظاً فماذا تقول لربك ؟ فقال : أقول استخلفت على خلقك خير خلقك .

---

(١) سورة ق الآية : ١٩ .

ثم أرسل إلى عمر رضى الله عنه، فجاء ، فقال : إنى موصيك بوصية؛ اعلم أن لله حقاً فى النهار لا يقبله فى الليل ، وأن لله حقاً فى الليل لا يقبله فى النهار ، وأنه لا يقبل النافلة حتى تؤدى الفريضة ، وإنما ثقلت موازين من ثقلت موازينهم يوم القيامة باتباعهم الحق فى الدنيا وثقله عليهم ، وحق لميزان لا يوضع فيه إلا الحق أن يثقل . وإنما خفت موازين من خفت موازينهم يوم القيامة باتباع الباطل وخفته عليهم ، وحق لميزان لا يوضع فيه إلا الباطل أن يخف ، وإن الله ذكر أهل الجنة بأحسن أعمالهم وتجاوز عن سيئاتهم ، فيقول القائل : أنا دون هؤلاء ولا أبلغ مبلغ هؤلاء ، فإن الله ذكر أهل النار بأسوأ أعمالهم .

وردّ عليهم صالح الذى عملوا ، فيقول القائل : أنا أفضل من هؤلاء ، وإن الله ذكر آية الرحمة وآية العذاب ليكون المؤمن راغباً راهباً ولا يلقى بيديه إلى التهلكة ولا يتمنى على الله غير الحق . فإن حفظت وصيتى هذه فلا يكون غائب أحب إليك من الموت ولا بدّ لك منه ، وإن ضيعت وصيتى فلا يكون غائب أبغض إليك من الموت ولا بدّ لك منه ، ولست بمعجزه .

وقال سعيد بن المسيب : لما احتضر أبو بكر رضى الله عنه أتاه ناس من الصحابة فقالوا : يا خليفة رسول الله ﷺ زوّدنا فإنا نراك لما بك . فقال أبو بكر : من قال هؤلاء الكلمات ثم مات جعل الله روحه فى الأفق المبين ، قالوا : وما الأفق المبين ؟ قال : قاع بين يدى العرش فيه رياض الله وأنهار وأشجار ، يغشاه كل يوم مائة رحمة ، فمن قال هذا القول جعل الله روحه فى هذا المكان .

« اللهم إنك ابتدأت الخلق من غير حاجة بك إليهم ، ثم جعلتهم فريقين فريقاً للنعيم وفريقاً للسعير فاجعلنى للنعيم ولا تجعلنى للسعير .

اللهم إنك خلقت الخلق فرقا وميزتهم قبل أن تخلقهم فجعلت منهم شقياً وسعيداً وغوياً ورشيداً ، فلا تشقنى بمعاصيك .

اللهم إنك علمت ما تكسب كل نفس قبل أن تخلقها فلا محيص لها مما علمت ، فاجعلنى ممن تستعمله بطاعتك .

اللهم إنّ أحداً لا يشاء حتى تشاء ، فاجعل مشيئتك أن أشاء ما يقربنى إليك .

اللهم إنك قد قدّرت حركات العباد فلا يتحرّك شيء إلا بإذنك ، فأجعل حركاتى فى تقواك .

اللهم إنك خلقت الخير والشر وجعلت لكل واحد منهما عاملاً يعمل به ، فاجعلنى من خير القسمين .

اللهم إنك خلقت الجنة والنار وجعلت لكل واحدة منهما أهلاً ، فاجعلنى من سكان جنتك .

اللهم إنك أردت بقوم الضلال وضيقت به صدورهم ، فاشرح صدرى للإيمان وزينه فى قلبى .

اللهم إنك دبرت الأمور وجعلت مصيرها إليك ، فأحينى بعد الموت حياة طيبة وقربنى إليك زلفى .

اللهم من أصبح وأمسى ثقته ورجاؤه غيرك ، فأنت ثقتى ورجائى ولا حول ولا قوة إلا بالله » .

قال أبو بكر : هذا كله فى كتاب الله عز وجل .

* * *

البحث الثالث

وفاة عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه

قال عمرو بن ميمون : كنت قائما غداة أُصيبَ عمر ، ما بينى وبينه إلا عبد الله بن عباس ، وكان إذا مرّ بين الصفين قام بينهما ، فإذا رأى خللاً قال : استووا ، حتى إذا مر لم ير فيهم خللاً تقدّم فكبر . قال : وربما قرأ سورة يوسف أو النحل ـ أو نحو ذلك ـ فى الركعة الأولى حتى يجتمع الناس ، فما هو إلا أن كبر فسمعته يقول : قتلنى ـ أو أكلنى ـ الكلب ، حين طعنه أبو لؤلؤة .

وطار العلج[1] بسكين ذات طرفين لا يمرّ على أحد يميناً أو شمالاً إلا طعنه ، حتى طعن ثلاثة عشر رجلاً ، فمات منهم تسعة ـ وفى رواية سبعة .

فلما رأى ذلك رجل من المسلمين طرح عليه برنسا[2] .

فلما ظنّ العلج أنه مأخوذ نحر نفسه .

وتناول عمر رضى الله تعالى عنه عبد الرحمن بن عوف فقدّمه ، فأما من كان يلى عمر فقد رأى ما رأيت ، وأما نواحى المسجد ما يدرون ما الأمر؟ غير أنهم فقدوا صوت عمر وهم يقولون : سبحان الله سبحان الله .

فصلى بهم عبد الرحمن صلاة خفيفة .

فلما انصرفوا قال : يا ابن العباس انظر من قتلنى ! قال : فغاب ساعة ثم جاء فقال غلام المغيرة بن شعبة ، فقال عمر رضى الله عنه : قاتله الله لقد كنت أمرت به معروفاً . ثم قال : الحمد لله الذى لم يجعل منيتى بيد رجل مسلم ، قد كنت أنت وأبوك تحبان أن يكثر العلوج بالمدينة ! وكان

---

(١) العلج : الرجل من كفار العجم (لسان العرب : مادة علج) .

(٢) البُرنس : : كل ثوب رأسه منه ملتزق به (انظر : اللسان) .

العباس أكثرهم رقيقاً . فقال ابن عباس : إن شئت فعلت ؛ أى إن شئت قتلناهم ، قال : بعدما تكلموا بلسانكم وصلوا إلى قبلتكم وحجوا حجكم ! فاحتمل إلى بيته فانطلقنا معه .

قال [١] : وكأن الناس لم تصبهم مصيبة قبل يومئذ !

قال : فقائل يقول أخاف عليه ، وقائل يقول لا بأس .

فأتى بنبيذ فشرب منه فخرج من جوفه ، ثم أتى بلبن فشرب منه فخرج من جوفه ، فعرفوا أنه ميت .

قال : فدخلنا عليه وجاء الناس يثنون عليه ، وجاء رجل شابّ فقال : أبشر يا أمير المؤمنين ببشرى من الله عز وجل ؛ قد كان لك صحبة من رسول الله ﷺ ، وقدم فى الإسلام ما قد علمت ، ثم وليت فعدلت ، ثم شهادة ، فقال : وددت أن ذلك كان كفافا لا علىّ ولا لى . فلما أدبر الرجل إذا إزاره يمس الأرض ، فقال : ردّوا على الغلام ، فقال : يا ابن أخى ارفع ثوبك فإنه أنقى لثوبك وأتقى لربك . ثم قال : يا عبد الله انظر ما علىّ من الدّين ؟ فحسبوه فوجدوه ستة وثمانين ألفا أو نحوه ، فقال : إن وفى به مال آل عمر فأدّه من أموالهم ؛ وإلا فسل فى بنى عدى بن كعب ، فإن لم تف أموالهم فسل فى قريش ولا تعدهم إلى غيرهم . وأدّ عنى هذا المال ، وانطلق إلى أمّ المؤمنين عائشة فقل: عمر يقرأ عليك السلام ، ولا تقل أمير المؤمنين فإنى لست اليوم للمؤمنين أميراً ، وقل يستأذن عمر بن الخطاب أن يدفن مع صاحبيه .

فذهب عبد الله فسلم واستأذن ثم دخل عليها ، فوجدها قاعدة تبكى ، فقال : يقرأ عليك عمر بن الخطاب السلام ويستأذن أن يدفن مع صاحبيه ، فقالت : كنت أريده لنفسى ولأوثرنه اليوم على نفسى .

فلما أقبل قيل هذا عبد الله بن عمر قد جاء فقال : ارفعونى ، فأسنده رجل إليه فقال : ما لديك ؟ قال : الذى تحب يا أمير المؤمنين قد أذنتْ

(١) أى : عمرو بن ميمون .

قال: الحمد لله ما كان شيء أهم إليّ من ذلك ! فإذا أنا قبضت فاحملوني . ثم سلّم وقل يستأذن عمر ! فإن أذنتْ لي فأدخلوني وإن ردّتني ردُّوني إلى مقابر المسلمين .

وجاءت أم المؤمنين حفصة والنساء يسترنها ، فلما رأيناها قمنا فولجت عليه فبكت عنده ساعة .

واستأذن الرجال فولجت داخلاً فسمعنا بكاءها من داخل فقالوا : أوص يا أمير المؤمنين واستخلف .

فقال : ما أرى أحق بهذا الأمر من هؤلاء النفر الذين توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راض ؛ فسمى علياً وعثمان والزبير وطلحة وسعداً وعبد الرحمن وقال : يشهدكم عبد الله بن عمر وليس له من الأمر شيء ، كهيئة التعزية له ، فإن أصابت الإمارة سعد فذاك ، وإلا فليستعن به أيكم أمّر ، فإني لم أعزلْه من عجز ولا خيانة .

وقال : أوصي الخليفة من بعدي .

بالمهاجرين الأوّلين أن يعرف لهم فضلهم ويحفظ لهم حرمتهم .

وأوصيه بالأنصار خيراً الذين تبوّءوا الدار والإيمان من قبلهم ، أن يقبل من محسنهم وأن يعفو عن مسيئهم .

وأوصيه بأهل الأمصار خيراً ؛ فإنهم ردْء الإسلام ، وجباة الأموال ، وغيظ العدوّ ، وأن لا يأخذ منهم إلا فضلهم عن رضا منهم .

وأوصيه بالأعراب خيراً ، فإنهم أصل العرب ، ومادة الإسلام ، وأن يأخذ من حواشي أموالهم ، ويردّ على فقرائهم .

وأوصيه بذمة الله عز وجل ، وذمة رسول الله ﷺ ، أن يوفي لهم بعدهم، وأن يقاتل لهم من وراءهم ، ولا يكلفهم إلا طاقتهم .

قال[1] : فلما قبض خرجنا به فانطلقنا نمشي ، فسلم عبد الله بن عمر

(١) أي : عمرو بن ميمون .

وقال : يستأذن عمر بن الخطاب ، فقالت : أدخلوه ، فأدخلوه فى موضع هنالك مع صاحبيه ... الحديث .

وعن النبى ﷺ قال : « قال لى جبريل عليه السلام ليبك الإسلام على موت عمر » (١) .

وعن ابن عباس قال : وضع عمر على سريره فتكنفه الناس يدعون ويصلون قبل أن يرفع وأنا فيهم ، فلم يرعنى إلا رجل قد أخذ بمنكبى فالتفت فإذا هو علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه فترحم علي عمر وقال : ما خلفت أحد أحب إلىّ أن ألقى الله بمثل عمله منك ! وأيم الله إن كنت لأظن ليجعلنك الله مع صاحبيك ، وذلك أنى كنت كثيراً أسمع النبى ﷺ يقول : « ذهبت أنا وأبو بكر وعمر وخرجت أنا وأبو بكر وعمر ودخلت أنا وأبو بكر وعمر »(٢) فإنى كنت لأرجو أو لأظنّ ـ أن يجعلك الله معهما .

* * *

(١) ذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد فى كتاب علامات النبوة باب وفاة عمر رضى الله عنه (٧٤/٩) ثم قال : رواه الطبرانى وفيه حبيب كاتب مالك وهو متروك . والمناوى فى فيض القدير (٥٠٠/٤) وعزاه للطبرانى والديلمى عن أُبى بن كعب ثم قال : قال الهيثمى : فيه حبيب كاتب مالك وهو متروك كذاب وقال شيخه الحافظ العراقى : رواه عن الآجرى فى كتاب الشريعة عن أبى بسند ضعيف جداً وأورده ابن الجوزى فى الموضوع .

(٢) أخرجه البخارى فى كتاب فضائل الصحابة باب مناقب عمر بن الخطاب (٤١/٧ ، ٤٢) ومسلم فى كتاب فضائل الصحابة باب فضائل عمر بن الخطاب رضى الله عنه (١٥٨/١٥) شرح النووى . والحاكم فى المستدرك فى كتاب معرفة الصحابة باب فضيلة الشيخين من لسان على رضى الله عنهم (٦٨/٤) .

البحث الرابع
وفاة عثمان رضى الله عنه

الحديث فى قتله مشهور .

وقد قال عبد الله بن سلام : أتيت أخى عثمان لأسلم عليه وهو محصور ، فدخلت عليه فقال : مرحباً يا أخى ! رأيت رسول الله ﷺ الليلة فى هذه الخوخة ـ وهى خوخة فى البيت ـ فقال : « يا عثمان حصروك؟ » قلت : نعم ، قال : « عطشوك » قلت : نعم ، فأدلى إلىّ دلواً فيه ماء فشربت حتى رويت ـ حتى إنى لأجد برده بين ثدبى وبين كتفى ـ وقال لى « إن شئت نصرت عليهم وإن شئت أفطرت عندنا » فاخترت أن أفطر عنده ! فقتل ذلك اليوم رضى الله عنه .

وقال عبد الله بن سلام لمن حضر تَشَحُّطَ عثمان فى الموت حين جرح: ماذا قال عثمان وهو يتشحط ؟ قالوا سمعناه يقول : اللهم اجمع أمّة محمد ﷺ ـ ثلاثا ـ قال والذى نفسى بيده لو دعا الله أن لا يجتمعوا أبداً ما اجتمعوا إلى يوم القيامة .

وعن ثمامة بن حزن القشيرى قال : شهدت الدار حين أشرف عليهم عثمان رضى الله عنه فقال : أئتونى بصاحبيكم اللذين ألباكم علىّ ! قال فجئ بهما كأنما هما حملان أو حماران، فأشرف عليهم عثمان رضى الله عنه فقال أنشدكم بِالله وبِالإسلام هلِ تعلمون أنّ رسول الله ﷺ قدم المدينة وليس بها ماء يستعذب غير بئر رومة فقال من يشترى رومة، يجعل دلوه مع دلاء المسلمين ، بخير له منها فى الجنة ؟ فاشتريتها من صلب مالى ، فأنتم اليوم تمنعونى أن أشرب منها ومن ماء البحر ؟ قالوا : اللهم نعم ، قال أنشدكم الله والإسلام هل تعلمون أنى جهزت جيش العسْرة من

مالى ؟ قالوا: نعم ، قال : أنشدكم الله والإسلام هل تعلمون أن المسجد كان قد ضاق بأهله فقال رسول الله ﷺ : « من يشترى بقعة ال فلان فيزيدها فى المسجد بخير منها فى الجنة ؟ » فاشتريتها من صلب مالى فأنتم اليوم تمنعونى أن أصلى فيها ركعتين ؟ قالوا : اللهم نعم ، قال : أنشدكم الله والإسلام هل تعلمون أن رسول الله ﷺ كان على ثبير بمكة ومعه أبو بكر وعمر وأنا ، فتحرك الجبل حتى تساقط حجارته بالحضيض قال : فركضه برجله وقال « اسكن ثبير فما عليك إلا نبى وصديق وشهيدان ؟ » قالوا : اللهم نعم ، قال : الله أكبر شهدوا لى ورب الكعبة أنى شهيد (١).

وروى عن شيخ من ضبّة : أن عثمان حين ضرب والدماء تسيل على لحيته جعل يقول : ﴿ **لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين** ﴾ (٢) اللهم إنى أستعديك عليهم وأستعينك على جميع أمورى وأسألك الصبر على ما ابتليتنى .

* * *

(١) أخرجه النسائى فى كتاب الأحباس باب وقف المساجد (٢٣٥/٦ ، ٢٣٦) والترمذى فى كتاب مناقب الصحابة باب ٧٦ حديث رقم ٣٧٨٧ ، وقال أبو عيسى هذا حديث حسن ، وأحمد بن حنبل فى المسند (٧٥/١) ، والدارقطنى فى كتاب الأحباس باب وقف المساجد والسياقات (١٩٦/٤).

(٢) سورة الأنبياء الآية : ٨٧ .

البحث الخامس

وفاة علي كرم الله وجهه

قال الأصبغ الحنظلى : لما كانت الليلة التى أصيب فيها علىٌّ كرم الله وجهه ، أتاه ابن التياح حين طلع الفجر يؤذنه بالصلاة وهو مضطجع متثاقل، فعاد الثانية وهو كذلك ، ثم عاد الثالثة فقام علىّ يمشى وهو يقول :

اشْدُدْ حَيَازيمَكَ للموْ ... ت فإنّ الموتَ لاقيكا
ولا تَجْزَعْ من الموتِ ... إذا حَلّ بِوَادِيكا

فلما بلغ الباب الصغير شدّ عليه ابن مُلْجمْ فضربه . فخرجت أم كلثوم ابنة على رضى الله عنه فجعلت تقول : مالى ولصلاة الغداة ! قتل زوجى أمير المؤمنين صلاة الغداة ، وقتل أبى صلاة الغداة .

وعن شيخ من قريش أن علياً كرم الله وجهه لما ضربه ابن ملجم قال : فُزتُ ورب الكعبة .

وعن محمد بن علىّ : أنه لما ضرب أوصى بنيه ، ثم لم ينطق إلا بلا إله إلا الله ، حتى قبض .

* * *

البحث السادس

وفاة الحسن والحسين رضى الله عنهما

ولما ثقل الحسن بن عليّ رضى الله عنهما دخل عليه الحسين رضى الله عنه فقال : يا أخى لأى شيء تجزع ؟ تقدم على رسول الله ﷺ وعلى عليّ بن أبى طالب وهما أبواك وعلى خديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد وهما أمّاك ، وعلى حمزة وجعفر وهما عماك ! قال : يا أخى أقدم على أمر لم أقدم على مثله .

وعن محمد بن الحسن رضى الله عنهما قال : لما نزل القوم بالحسين رضى الله عنه وأيقن أنهم قاتلوه قام فى أصحابه خطيباً ! فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : قد نزل من الأمر ما ترون ! وإنّ الدنيا قد تغيرت وتنكرت وأدبر معروفها ، وانشمرت حتى لم يبق منها إلا كصبابة الإناء ، ألا حسبى من عيش كالمرعى الوبيل ، ألا ترون الحق لا يعمل به والباطل لا يتناهى عنه ، ليرغبَ المؤمن فى لقاء الله تعالى ، وإنى لا أرى الموت إلا سعادة ، والحياة مع الظالمين إلا جرماً .

* * *

الفصل الثالث :

من أقوال المحتضرين
من الخلفاء والأمراء والصالحين

وفيه :

البحث الأول : أقوال بعض الخلفاء وبعض الأمراء عند الوفاة .

البحث الثانى : أقوال بعض الصحابة عند الوفاة.

البحث الثالث : أقوال بعض الصالحين عند الوفاة

البحث الأول

من أقوال بعض الخلفاء والأمراء عند الوفاة

لما حضرت معاوية بن أبى سفيان الوفاة قال : أقعدونى ، فأقعد فجعل يسبح الله تعالى ويذكره ثم بكى وقال : تَذْكُرُ ربك يا معاوية بعد الهرم والانحطاط ! ألا كان هذا وغصن الشباب نضرٌ ريَّان! وبكى حتى علا بكاؤه وقال : يا رب ارحم الشيخ العاصى ذا القلبَ القاسى اللهم أقِلِ العثْرَة واغفر الزلة وعُدْ بحلمك على من لا يرج غيرك ولم يثق بأحد سواكَ .

ويروى عن شيخ من قريش : أنه دخل مع جماعة عليه فى مرضه فرأوا فى جلده غضوناً ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أما بعد ؛ فهل الدنيا أجمع إلا ما جرَّبْنَا ورأينا ، أما والله لقد استقبلنا زهرتها بجدّتنا وباستلذاذنا بعيشنا ، فما لبثتنا الدنيا أن نقضت ذلك منا حالاً بعد حال وعُرْوَةً بعد عروة، فأصبحت الدنيا وقد وَتَرَتْنا وأخلفتنا واستْلأمت إلينا أف للدنيا من دار، ثم أف لها من دار .

ويروى أنّ آخر خطبة خطبها معاوية أن قال : أيها الناس إنى من زرع قد استُحْصِدَ وإنى وَليتكم ولن يَلِيَكم أحد من بعدى إلا وهو شر منى ، كما كان مَنْ قَبلى خيراً منى ! ويا يزيد إذا وفى أجلِي فول غسلى رجلاً لبيباً فإن اللبيب من الله بمكان ، فليعلم الغسل ولْيَجْهَرْ بالتكبير ، ثم اعْمَدْ إلى منديل فى الخزانة فيه ثوب من ثياب النبى ﷺ وقراضة من شعره وأظفاره فاستودع القراضة أنفى وفمى وأذنى وعينى ، واجعل الثوب على جلدى دون أكفانى ، ويا يزيد احفظ وصية الله فى الوالدين ، فإذا أدرجتمونى فى جديدى ووضعتمونى فى حفرتى فخلوا معاوية وأرْحم الراحمين .

وقال محمد بن عُقبة : لما نزل بمعاوية المَوت قال : يا ليتنى كنت رجلاً من قريش بذى طُوى وإنى لم آلِ من هذه الأمر شيئاً .

ولما حضرت عبد الملك بن مروان الوفاة نظر إلى غسال بجانب دمشق يلوى ثوباً بيده ثم يضرب به المغسلة ، فقال عبد الملك : ليتنى كنت غسالاً أكل من كسب يدى يوماً بيوم ولم آل من أمر الدنيا شيئاً ، فبلغ ذلك أبا حازم فقال : الحمد لله الذى جعل إذا حضرهم الموت يتمنون ما نحن فيه ، وإذا حَضَرَنا الموت لم نتمنّ ما هم فيه .

وقيل لعبد الملك بن مروان فى مرضه الذى مات فيه : كيف تجدك يا أمير المؤمنين ! قال أجدنى كما قال الله تعالى : ﴿ **ولقد جئتمونا فُرادَى كما خلقناكم أوّل مرة وتركتم ما خوّلْناكم وراء ظهوركم** ﴾ [1] الآية ومات .

وقالت فاطمة بنت عبد الملك بن مروان ـ امرأة عمر بن عبد العزيز ـ كنت أسمع عمر فى مرضه الذى مات فيه يقول : اللهم اخْفِ عليهم موتى ولو ساعة من نهار ، فلما كان اليوم الذى قبض فيه خرجتُ من عنده فجلست فى بيت آخر ـ بينى وبينه باب وهو فى قبة له ـ فسمعته يقول : ﴿ **تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوّاً فى الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين** ﴾ [2] ثم هدأ فجعلت لا أسمع حركة ولا كلاماً فقلت لوَصيفٍ له : انظر أنائم هو ؟ فلما دخل صاح ، فوثبت فإذا هو ميت .

وقيل له لما حضره الموت : أعهد يا أمير المؤمنين ! قال : أحذِّركم مثل مصرعى هذا فإنه لا بده لكم منه .

وروى أنه لما ثقل عمر بن عبد العزيز دعى له طبيب ، فلما نظر إليه قال : أرى الرجل قد سقى السم ولا آمن عليه الموت فرفع عمر بصره وقال : ولا تأمن الموت أيضاً على من لم يسْقَ السم ! قال الطبيب : هل أحسست بذلك يا أمير المؤمنين ؟ قال : نعم قد عرفت ذلك حين وقع فى بطنى قال: فتعالج يا أمير المؤمنين فإنى أخاف أن تذهب نفسك ؛ قال : ربى خير مذهوب إليه، والله لو علمت أن شفائى عند شحمة أذنى ما رفعت يدى إلى

---

(١) سورة الأنعام الآية : ٩٤ .
(٢) سورة القصص الآية : ٨٣ .

أذنى فتناولته . الهم خرْ لعمر فى لقائك! فلم يلبث إلا أياماً حتى مات .

وقيل : لما حضرته الوفاة بكى فقيل له : ما يبكيك يا أمير المؤمنين ؟ أبشر فقد أحيا الله بك سُنَناً وأظهر بك عدلاً ! فبكى ثم قال : أليس أوقف فأسئل عن أمر هذا الخلق ، فوالله لو عدلت فيهم لخفت على نفسى أن لا تقوم بحجتها بين يدى الله إلا أن يلقنها الله حجتها ؛ فكيف بكثير مما ضيعنا؟ وفاضت عيناه ، فلم يلبث إلا يسيراً حتى مات .

ولما قرب وقت موته قال : أجلسونى ! فأجلسوه فقال : أنا الذى أمَرتنى ونهيتنى فعصَيْتُ ـ ثلاث مرات ـ ولكن لا إله إلا الله ، ثم رفع رأسه فأحَدّ النظر فقيل له فى ذلك فقال : إنى لأرى خضرة ؛ ما هم بإنس ولا جن ، ثم قبض رحمه الله .

وحكى عن هرون الرشيد أنه انتقى أكفانه بيده عند الموت ، وكان ينظر إليها ويقول : ﴿ **ما أغْنى عنى ماليهْ هلك عنى سُلْطانيهْ** ﴾ [1].

وفرش المأمون رماداً واضطجع عليه وكان يقول : يا من لا يزول ملكه ارحم من قد زال ملكه .

وكان المعتصم يقول عند موته : لو علمت أن عمرى هكذا قصير ما فعلت .

وكان المنتصر يضطرب على نفسه عند موته فقيل له : لا بأس عليك يا أمير المؤمنين ! فقال : ليس إلا هذا ؛ لقد ذهبت الدنيا وأقبلت الآخرة .

وقال عمرو بن العاص عند الوفاة ـ وقد نظر إلى صناديق لبنيه : من يأخذها بما فيها ليته كان بعراً .

وقال الحجاج عند موته : اللهم اغفر لى فإن الناس يقولون إنك لا تغفر لى . فكان عمر بن عبد العزيز تعجبه هذه الكلمة منه ويغبطه عليها ، ولما حكى ذلك للحسن قال : أقالها ؟ قيل نعم ، قال : عسى .

(١) سورة الحاقة الآيتان : ٢٨ ، ٢٩ .

البحث الثاني

من أقوال بعض الصحابة عند الوفاة

بيان أقاويل جماعة من خصوص الصالحين من الصحابة والتابعين ومن بعد من أهل التصوّف رضى الله عنهم أجمعين

لما حضرت معاذاً رضى الله عنه الوفاة قال : اللهم إنى قد كنت أخافك وأنا اليوم أرجوك ، اللهم إنك تعلم أنى لم أكن أحب الدنيا وطول البقاء فيها لِجَرْى الأنهار ولا لغرس الأشجار ، ولكن لظمأ الهواجر ومكابدة الساعات ومَزاحمة العلماء بالركب عند حلق الذكر .

ولما اشتد به النزع ونزع نزعاً لم ينزعه أحد كان كلما أفاق من غمرة فتح طرْفَه ثم قال رب ما أخنقنى خنقك فوعزتك إنك تعلم أن قلبى يحبك.

ولما حضرت سلمان الوفاة بكى . فقيل له : ما يبكيك ؟ قال : ما أبكى جزعاً على الدنيا ، ولكن عهد إلينا رسول الله ﷺ أن تكون بُلْغَةُ أحدنا من الدنيا كزاد الراكب [1] ، فلما مات سلمان نُظِرَ فى جميع ما ترك فإذا قيمته بضعة عشر درهما .

ولما حضرت بلالاً الوفاة قالت امرأته : واحُزْناه فقال : بل واطَرَباه ! غداً نلقى الأحبة محمداً وحزبه .

* * *

---

(١) أخرجه ابن ماجة فى كتاب الزهد باب الزهد فى الدنيا (١٣٧٤/٢) وأحمد فى المسند (٤٣٨/٥) .

البحث الثالث

من أقوال الصالحين عند الوفاة

وقيل : فتح عبد الله بن المبارك عينه عند الوفاة وضحك وقال: ﴿ **لِمِثْلِ هذا فَلْيَعْمَلِ العاملون** ﴾ [1] .

ولما حضرت ابن المنكدر الوفاة بكى فقيل له : ما يبكيك ؟ فقال : والله ما أبكي لذنب أعلم أنى أتيته ؛ ولكن أخاف أنى أتيت شيئاً حسبته هيناً وهو عند الله عظيم .

ولما حضرت عامر بن عبد القيس الوفاة بكى فقيل له : ما يبكيك ؟ قال ما أبكى جزعاً من الموت ولا جزعاً على الدنيا ، ولكن أبكى على ما يفوتنى من ظمأ الهواجر ، وعلى قيام الليل فى الشتاء !

ولما حضرت فضيلاً الوفاة غشى عليه ، ثم فتح عينيه وقال : وأُبْعَدَ سَفَرَاهُ وَاقلَّهَ زَادَهُ .

ولما حضرت ابن المبارك الوفاة قال لنصر مولاه : اجعل رأسى على التراب .

فبكى نصر فقال له : ما يبكيك ؟ قال ذكرت ما كنت فيه من النعمى وأنت هو ذا تموت فقيرا غريباً ! قال : اسكت ! فإنى سألت الله تعالى أن يحيينى حياة الأغنياء وأن يميتنى موت الفقراء .

ثم قال له : لَقِّنى ولا تُعِدْ علىّ ما لم أتكلم بكلام ثان .

وقال عطاء بن يسار : تبدى إبليس لرجل عند الموت فقال له : نَجَوْتَ ! فقال : ما آمنك بعد .

وبكى بعضهم عند الموت فقيل له : ما يبكيك ؟ قال : آية فى كتاب

(١) سورة الصافات الاية : ٦١ .

الله تعالى ، قوله عز وجل : ﴿**إنما يتقبل الله من المتقين**﴾[1].

ودخل الحسن رضى الله عنه على رجل يجود بنفسه فقال : إن أمراً هذا أوله لَجَديرٌ أن يتّقى آخره وإن أمراً هذا آخره لجدير أن يُزْهَدَ فى أوله .

وقال الجريرى : كنت عند الجنيد فى حال نزعه ـ وكان يوم الجمعة ويوم النيروز ـ وهو يقرأ القرآن فختم ، فقلت له : فى هذه الحالة يا أبا القاسم؟

فقال : ومن أولى بذلك منى وهو ذا تطوى صحيفتى ؟

وقال رُوَيْمُ حضرتُ وفاة أبى سعيد الخراز وهو يقول :

حَنِينُ قلوب العارفين إلى الذكر	وتَذْكارُهم وقت المناجاة للسر
أُدِيرَتْ كؤوس للمنايا عليهم	فأغْفَوْا عن الدنيا كإغفاء ذى الشكر
همومهمو جَوّالة بمعسكر	به أهل وُدِّ الله كالأنجم الزُّهْرِ
فأجسامهم فى الأرض قَتْلَى بحبه	وأرواحهم فى الحُجْب نَحْوَ الْعُلا تسْرى
فما عَرَّسُوا إلا بقُربْ حبيبهم	وما عَرَّجُوا مِنْ مَسٍّ بؤس ولا ضُرِّ

وقيل للجنيد : إن أبا سعيد الخراز كان كثير التواجد عند الموت ، فقال: لم يكن بعجب أن تطير روحه اشتياقاً .

وقيل لذى النون ـ عند موته : ما تشتهى ؟ قال : أن أعرفه قبل موتى بلحظة .

وقيل لبعضهم وهو فى النزع ! قل ألله فقال: إلى متى تقولون الله وأنا محترق بالله .

وقال بعضهم : كنت عند ممشاد الدينورى فقدم فقير وقال : السلام عليكم ؛ هل هنا موضع نظيف يمكن الإنسان أن يموت فيه ؟ قال فأشاروا إليه بمكان ـ وكان ثَمَّ عين ماء ـ فجدد الفقير الوضوء وركع ما شاء الله ، ومضى إلى ذلك المكان ومدّ رجليه ومات .

(١) سورة المائدة الآية ٢٧ .

كان أبو العباس الدينورى يتكلم فى مجلسه ، فصاحت امرأة تَوَاجدا فقال لها موتى ، فقامت المرأة ، فلما بلغت باب الدار التفتت إليه وقالت : قد مُتُّ ووقعت ميتة .

ويحكى عن فاطمة ـ اخت أبى على الروذبارى ـ قالت : لما قرب أجل أبى على الروذبارى ـ وكان رأسه فى حجرى ـ فتح عينيه وقال : هذه أبواب السماء . قد فتحت وهذه الجنان قد زُيِّنت وهذا قائل يقول يا أبا علىّ قد بَلَّغْنَاكَ الرتبة القُصْوى وإن لم يُرِدْها ثم أنشأ يقول :

وحقِّك لا نظرتُ إلى سواكا   بعـين مُـوَدَّة حـتى أراكـا
أراك مـعـذِّبى بِفتـورِ لحـظٍ   وبالْخَـدِّ الْمُـورَّدِ من حيَاكا

وقيل للجنيد : قل لا إله إلا الله ، فقال : ما نسيته فأذكره .

وسأل جعفر بن نصير بكران الدينورى ـ خادم الشبلى ـ ما الذى رأيت منه ؟

فقال : قال عَلَىَّ درهم مظلمة ، وتصدّقت عن صاحبه بألوف فما على قلبى شغل أعظم منه !

ثم قال : وضئنى للصلاة ففعلت فنسيت تخليل لحيته ـ وقد أمسك على لسانه ـ فقبض على يدى وأدخلها فى لحيته ثم مات . فبكى جعفر وقال : ما تقولون فى رجل لم يفته فى آخر عمره أدب من آداب الشريعة ؟

وقيل لبشر بن الحرث لما احتضر ـ وكان يشق عليه ـ كأنك تحب الحياة ؟

فقال : القدوم على الله شديد .

وقيل لصالح بن مسمار : أما توصى بابنك وعيالك ؟ فقال : إنى لأستحيى من الله أن أوصى بهم إلى غيره !

ولما احتضر أبو سليمان الدارانى أتاه أصحابه فقالوا : أَبْشِرْ فإنك تقدم على رب غفور رحيم .

فقال لهم : ألا تقولون احذر فإنك تقدم على رب يحاسبك بالصغير ويعاقبك بالكبير ؟

ولما احتضر أبو بكر الواسطى قيل له : أوصنا . فقال : احفظوا مراد الحق فيكم .

واحتضر بعضهم فبكت امرأته فقال لها: ما يبكيك ؟ فقالت : عليك أبكى ! فقال : إن كنت باكية فابكى على نفسك ! فلقد بكيت لهذا اليوم أربعين سنة .

وقال الجنيد : دخلت على سَرِى السقطى أعوده فى مرض موته فقلت: كيف تجدك ؟

فأنشأ يقول :

كيف أشكو إلى طبيبى ما بى   والذى بى أصابنى من طبيبى

فأخذت المروحة لأروّحه ، فقال : كيف يجد ريح المروحة مَن جوفه يحترق ؟

ثم أنشأ يقول :

القلب محترق والدمع مُسْتَبق   والكرب مجتمع والصبر مفترقُ
كيف القرارُ على من لا قَرارَ له   مما جناه الهوى والشوق والقَلَقِ
يا رب إن يك شيء فيه لى فرج   فامننْ علىّ به ما دام بى رمَق

وحكى أنّ قوماً من أصحاب الشبلى دخلوا عليه وهو فى الموت فقالوا له : قل لا إله إلا الله ،

فأنشأ يقول :

إنَّ بيتاً أنت ساكنه   غير محتاج إلى السُّرُجِ
وجْهُك المأمول حُجَّتُنا   يوم يأتى الناس بالحجج
لا أتاح الله لى فرجا   يوم أدعو منك بالفرج

وحكى أنّ أبا العباس بن عطاء دخل على الجنيد فى وقت نزعه فسلم عليه فلم يجبه ، ثم أجاب بعد ساعة وقال : اعذرنى فإنى كنت فى وردْى ! ثم ولّى وجهه إلى القبلة وكبّر ومات .

وقيل للكنانى لما حضرته الوفاة ما كان عملك ؟ فقال : لو لم يقرب أجلى ما أخبرتكم به ! وقفت على باب قلبى أربعين سنة فكلما مرّ فيه غير الله حجبته عنه .

وحكى عن المعتمر قال : كنت فيمن حضر الحكم بن عبد الملك حين جاءه الحق ، فقلت : اللهم هوّن عليه سكرات الموت فإنه كان وكان ـ فذكرت محاسنه ـ فأفاق فقال : من المتكلم ؟ فقلت : أنا ! فقال : إنّ ملك الموت عليه السلام يقول لى : إنى بكل سخى رفيق ثم طفئ .

ولما حضرت يوسف بن أسباط الوفاة شهده حذيفة فوجده قلقاً فقال لى : يا أبا محمد هذا أوان القلق والجزع ؟

فقال : يا أبا عبد الله وكيف لا أقلق ولا أجزع وإنى لا أعلم أنى صدقت الله فى شىء من عملى !

فقال حذيفة : واعجباه لهذا الرجل الصالح يحلف عند موته أنه لا يعلم أنه صدق الله فى شىء من عمله .

وعن المغازلى قال : دخلت على شيخ لى من أصحاب هذه الصفة ـ وهو عليل ـ وهو يقول : يمكنك أن تعمل ما تريد فارفق بى .

ودخل بعض المشايخ على ممشاد الدينورى فى وقت وفاته فقال له : فعل الله تعالى وصنع ـ من باب الدعاء ـ فضحك ثم قال : منذ ثلاثين سنة تعرض على الجنة بما فيها فما أعرْتها طَرفى .

وقيل لرويم عند الموت : قل لا إله إلا الله ،

فقال : لا أحسن غيره .

ولما حضرت الثورى الوفاة قيل له : قل لا إله إلا الله ، فقال : أليس ثم أمر ؟ .

ودخل المزنى على الشافعى رحمه الله عليهما فى مرضه الذى توفى فيه فقال له : كيف أصبحت يا أبا عبد الله ؟ فقال : أصبحت من الدنيا راحلاً وللإخوان مفارقاً ولسوء عملى ملاقياً ولكأس المنية شارباً وعلى الله تعالى واردا ، ولا أدرى أروحى تصير إلى الجنة فأهنيها أم إلى النار فأعزيها ؟ ثم أنشأ يقول :

ولما قسا قلبى وضاقت مذاهبى ... جلعت رجائى نحو عفوك سلما
تعاظمنى ذنبى فلما قرنته ... بعفوك ربى كان عفوك أعظما
فما زلتَ ذاعفو عن الذنب لم تزل ... تجود وتعفو منّة وتكرمًا
ولولاك لم يغْوَى بإبليس عابد ... فكيف وقد أغوىَ صَفِيِّك آدما

ولما حضرت أحمد بن خضرويه الوفاة سئل عن مسئلة فدمعت عيناه وقال : يا بنىّ باب كنت أدقه خمسا وتسعين سنة هو ذا يفتح الساعة لى ، لا أدرى أيفتح بالسعادة أو الشقاوة ؟ فآن لى أوان الجواب .

فهذه أقاويلهم ..!!

وإنما اختلفت بحسب اختلاف أحوالهم .

فغلب على بعضهم الخوف .

وعلى بعضهم الرجاء .

وعلى بعضهم الشوق والحب .

فتكلم كل واحد منهم على مقتضى حاله ، والكل صحيح بالإضافة إلى أحوالهم .

* * *

الباب الثالث

الجنائز والمقابر

وفيه :

- الفصل الأول : الجنائز .
- الفصل الثانى : المقابر .
- الفصل الثالث : موت الولد .
- الفصل الرابع : زيارة القبور .

الفصل الأول :

الجنـــــائز

وفيه :

البحث الأول : الجنائز عظة وعبرة .

البحث الثانى : آداب حضور الجنائز .

البحث الأول

الجنائز عظة وعبرة

اعلم أن الجنائز عبرة للبصير وفيها تنبيه وتذكير لأهل الغفلة ، فإنها لا تزيدهم مشاهدتها إلا قساوة ، لأنهم يظنون أنهم أبداً إلى جنازة غيرهم ينظرون ، ولا يحسبون أنهم لا محالة على الجنائز يحملون ، أو يحسبون ذلك ولكنهم على القرب لا يقدرون ، ولا يفتكرون أنّ المحمولين على الجنائز هكذا كانوا يحسبون ، فبطل حسبانهم وانقرض على القرب زمانهم ، فلا ينظر عبد إلى جنازة إلا ويقدّر نفسه محمولاً عليها ، فإنه محمول عليها ، على القرب وكأنه قد ، ولعله فى غد أو بعد غدٍ .

ويروى عن أبى هريرة : أنه كان إذا رأى جنازة قال : اُمضوا فإنا على الأثر .

وكان مكحول الدمشقى إذا رأى جنازة قال : اغدوا فإنا رائحون . موعظة بليغة وغفلة سريعة يذهب الأوّل والآخر لا عقل له .

وقال أسيد بن حضير : ما شهدت جنازة فحدثتنى نفسى بشىء سوى ما هو مفعول به وما هو صائر إليه .

ولما مات أخو مالك بن دينار خرج مالك فى جنازته يبكى ويقول : والله لا تَقَرُّ عينى حتى أعلم إلى ماذا صرت إليه ، ولا أعلم ما دمت حيا .

وقال الأعمش : كنا نشهد الجنائز فلا ندرى من نُعزّى ؟ لحزن الجميع .

وقال ثابت البنانى : كنا نشهد الجنائز فلا نرى إلا متقنعا باكيا .

فهكذا كان خوفهم من الموت .

والآن ! لا ننظر إلى جماعة يحضرون جنازة إلا وأكثرهم يضحكون

ويلهون ، ولا يتكلمون إلا فى ميراثه وما خلفه لورثته ، ولا يتفكر أقرانه وأقاربه إلا فى الحيلة التى بها يتناول بعض ما خلفه ، ولا يتفكر واحد منهم ـ إلا ما شاء الله ـ فى جنازة نفسه وفى حاله إذا حمل عليها .

ولا سبب لهذه الغفلة إلا قسوة القلوب بكثرة المعاصى والذنوب ، حتى نسينا الله تعالى واليوم الآخر والأهوال التى بين أيدينا فصرنا نلهو ونشتغل بما لا يعنينا .

فنسأل الله تعالى اليقظة من هذه الغفلة فإن أحسن أحوال الحاضرين على الجنائز بكاؤهم على الميت ، ولو عقلوا لبكوا على أنفسهم لا على الميت .

نظر إبراهيم الزيات إلى أناس يترحمون على الميت فقال : لو تترحمون على أنفسكم لكان خيراً لكم ، إنه نجا من أهوال ثلاثة : وجه ملك الموت وقد رأى ، ومرارة الموت وقد ذاق ، وخوف الخاتمة وقد أمن .

وقال أبو عمرو بن العلاء : جلست إلى جرير وهو يملى على كاتبه شعرا فأطلعت جنازة فأمسك وقال : شيبتنى والله هذه الجنائز . وأنشأ يقول .

تُروِّعنا الجنائز مُقبلات ... ونلهو حين تذهب مدبراتِ
كروعة ثُلَّة لمُغَار ذئب ... فلما غاب عادت راتعاتِ

* * *

البحث الثاني

آداب حضور الجنائز

فمن آداب حضور الجنائز : التفكر والتنبه والاستعداد والمشى أمامها على هيئة التواضع ـ كما ذكرنا آدابه وسننه فى فن الفقه ـ ومن آدابه حسن الظن بالميت وإن كان فاسقاً ، وإساءة الظن بالنفس وإن كان ظاهرها الصلاح ، فإن الخاتمة مخطرة لا تدرى حقيقتها .

ولذلك روى عن عمر بن ذرّ أنه مات واحد من جيرانه ، وكان مسرفا على نفسه ، فتجافى كثير من الناس عن جنازته ، فحضرها هو وصلى عليها، فلما دُلى فى قبره وقف على قبره وقال : يرحمك الله يا أبا فلان فلقد صحبت عمرك بالتوحيد وعفرت وجهك بالسجود ، وإن قالوا مذنب وذو خطايا ؟ فمن منا غير مذنب وغير ذى خطايا ؟

ويحكى أنّ رجلاً من المنهمكين فى الفساد مات فِي بعض نواحى البصرة ، فلم تجد امرأته من يعينها على حمل جنازته إذ لم يدرِ بها أحد من جيرانه لكثرة فسقه ، فاستأجرت حمالين وحملتها إلى المصلى فما صلى عليه أحد ، فحملتها إلى الصحراء للدفن ؛ فكان على جبل قريب من الموضع زاهد من الزهاد الكبار ، فرأته كالمنتظر للجنازة ثم قصد أن يصلى عليها ، فانتشر الخبر فى البلد بأن الزاهد نزل ليصلى على فلان ، فخرج أهل البلد فصلى الزاهد وصلوا عليه ، وتعجب الناس من صلاة الزاهد عليه، فقال : قيل لى فِي المنام انزل إلى مُوضع فلان ترى فيه جنازة ليس معها أحد إلا امرأة فصلِّ عليه فإنه مغفور له فزاد تعجب الناس ! فاستدعى الزاهد امرأته وسألها عن حاله وأنه كيف كانت سيرته ؟ قالت : كما عرف كان طول نهاره فى الماخور مشغولاً بشرب الخمر ! فقال : انظرى هل تعرفِينِ منه شيئاً من أعمال الخير ؟ قالت : نعم ؛ ثلاثة أشياء : كان كل يوم يفِق من

سكره وقت الصباح يبدل ثيابه ويتوضأ ويصلى الصبح فى جماعة ثم يعود إلى الماخور ويشتغل بالفسق (والثانى) أ نه كان أبداً لا يخلو بيته من يتيم أو يتيمين وكان إحسانه إليهم أكثر من إحسانه إلى أولاده ، وكان شديد التفقد لهم . (والثالث) أنه كان يفيق فى أثناء سكره فى ظلام الليل فيبكى ويقول : يا رب أى زاوية من زوايا جهنم تريد أن تملأها بهذا الخبيث؟ يعنى نفسه . فانصرف الزاهد وقد ارتفع إشكاله من أمره .

وعن صلة بن أشيم وقد دفن أخ له فقال على قبره :

فإن تنجُ منها تنج من ذى عظيمة وإلا فإنى لا أخالَكَ ناجيا

* * *

الفصل الثانى :

المقـــابر

وفيه :

البحث الأول : حال القبر وأقوال الصالحين عند القبور .

البحث الثانى : أبيات وجدت مكتوبة على بعض القبور .

البحث الأول

بيان حال القبر وأقاويلهم عند القبور

قال الضحاك : قال رجل يا رسول الله من أزهد الناس ؟ قال : « من لم يَنْسَ القبر والبلِى وترك فضل زينة الدنيا وآثر ما يبقى على ما يفنى ، ولم يَعُدّ غداً من أيامه وَعَدّ نفسه من أهل القبور » [1] .

وقيل لعلي كرّم الله وجهه : ما شأنك جاورت المقبرة ؟ قال : إنى أجدهم خير جيران أجدهم جيران صدق يكفون الألسنة ويذكرون الآخرة .

وقال رسول الله ﷺ : « ما رأيت منظراً إلا والقبر أفظع منه »[2] .

وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى المقابر فجلس إلى قبر وكنت أدنى القوم منه ، فبكى وبكيت وبكوا فقال : « ما يبكيكم ؟ » قلنا : بكينا لبكائك ! قال : « هذا قبر أمى آمنة بنت وهب استأذنت ربى فى زيارتها فأذن لى ، فاستأذنته أن أستغفر لها فأبى علىّ، فأدركنى ما يدرك الولد من الرقة »[3] .

وكان[4] عثمان بن عفان رضى الله عنه إذا وقف على قبر بكى حتى

(١) أخرجه ابن أبى شيبة فى كتاب الزهد (٢٢٢/١٣ ، ٢٢٣/ ١٦١٦٥) وذكره صاحب الإتحاف فى (٣٥١/١٠) ثم قال : رواه البيهقى فى الشعب عن الضحاك مرسلاً .

(٢) أخرجه الترمذى فى كتاب الزهد باب ٣ حديث رقم (٢٤١٠) وقال أبو عيسى هذا حديث حسن غريب ، وابن ماجة فى كتاب الزهد باب ذكر القبر والبلى (١٤٢٦/٢) ، وأحمد فى المسند (٦٤/١) .

(٣) أخرجه مسلم فى كتاب الجنائز باب استئذان النبى ﷺ ربه فى زيارة قبر أمه حديث رقم ٩٧٦ وأبو داود فى كتاب الجنائز باب فى زيارة القبور (٥٥٧/٣٠) والنسائى فى كتاب الجنائز باب ١٠١ حديث رقم ٢٠٣٦ وابن ماجة فى كتاب الجنائز باب زيارة قبور المشركين حديث رقم ١٥٧٢ وأحمد فى المسند ٤٤١/٢ والبيهقى فى دلائل النبوة (١٨٩/١ ، ١٩٠) وابن كثير فى البداية والنهاية (٢٧٩/٢) ثم قال (غريب ولم يخرجوه) .

(٤) أخرجه ابن ماجة فى كتاب الزهد باب ذكر القبر والبلى (١٤٢٦/٢) والترمذى فى كتاب الزهد باب ٣ حديث رقم ٢٤١٠ وقال أبو عيسى هذا حديث حسن غريب وأحمد فى المسند ٦٣/١.

يبل لحيته ، فسئل عن ذلك وقيل له : تذكر الجنة والنار فلا تبكى ! وتبكى إذا وقفت على قبر ؟ فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن القبر أوّل منازل الآخرة فإن نجا منه صاحبه فما بعده أيسر منه ، وإن لم ينجُ منه فما بعده أشد »[1] .

وقيل : إنّ عمرو بن العاص نظر إلى المقبرة فنزل وصلى ركعتين ، فقيل له : هذا شيء لم تكن تصنعه ؟ فقال : ذكرت أهل القبور وما حيل بينهم وبينه فأحببت أن أتقرّب إلى الله بهما .

وقال مجاهد : أوّل ما يكلم ابن آدم حفرته فتقول أنا بيت الدود وبيت الوحدة ، وبيت الغربة ، وبيت الظلمة ؛ هذا ما أعددتُ لك فما أعددتَ لى ؟

وقال أبو ذرّ : ألا أخبركم بيوم فقرى ؛ يوم أوضع فى قبرى .

وكان أبو الدرداء يقعد إلى القبور ، فقيل له فى ذلك فقال : أجلس إلى قوم يذكّرونى معادى وإذا قمت لم يغتابونى .

وكان جعفر بن محمد يأتى القبور ليلاً ويقول : يا أهل القبور مالى إذا دعوتكم لا تجيبونى ! ثم يقول : حيل والله بينهم وبين جوابى وكأنى بى أكون مثلهم ، ثم يستقبل الصلاة إلى طلوع الفجر .

وقال عمر بن عبد العزيز لبعض جلسائه : يا فلان لقد أرقْتُ الليلة أتفكر فى القبر وساكنه ، إنك لو رأيت الميت بعد ثلاثة فى قبره لاستوحشت من قربه بعد طول الأُنْس منك به ! ولرأيت بيتا تجول فيه الهوام ويجرى فيه الصديد ، وتخترقه الديدان مع تغير الريح وبلى الأكفان ، بعد حسن الهيئة وطيب الريح ، ونقاء الثوب ، قال : ثم شهق شهقة خرّ مغشياً عليه .

---

(١) إن القبر أول منازل الآخرة ... إلخ

أخرجه الحاكم فى المستدرك فى كتاب الجنائز باب إن القبر منازل الآخرة (٣٧١/١) وقال عنه الذهبى : رواه هشام بن يوسف عنه (قلت) ابن بحير ليس بالعمدة ومنهم من يقويه وهانى روى عنه جماعة ولا ذكر له فى الكتب الستة .

وكان يزيد الرقاشي يقول : أيها المقبور في حفرته ، والمتخلي في القبر بوحدته ، المستأنس في بطن الأرض بأعماله ، ليت شعري بأي أعمالك استبشرت وبأي إخوانك اغتبطت ؟ ثم يبكي حتى يبل عمامته ، ثم يقول : استبشر والله بأعماله الصالحة ، واغتبط والله بإخوانه المتعاونين على طاعة الله تعالى .

وكان إذا نظر إلى القبور خار كما يخور الثور .

وقال حاتم الأصم : من مر بالمقابر فلم يتفكر لنفسه ولم يَدْعُ لهم فقد خان نفسه وخانهم .

وكان بكر العابد يقول : يا أماه ليتك كنت بي عقيما إن لابنك في القبر حبساً طويلا ومن بعد ذلك منه رحيلا .

وقال يحيى بن معاذ : يا ابن آدم دعاك ربك إلى دار السلام ، فانظر من أين تجيبه .. ؟ إن أجبته من دنياك واشتغلت بالرحلة إليه : دخلتها ، وإن أجبته من قبرك منعتها!

وكان الحسن بن صالح إذا أشرف على المقابر يقول : ما أحسن ظواهرك إنما الدواهي في بواطنك !

وكان عطاء السلمي إذا جن عليه الليل خرج إلى المقبرة ثم يقول : يا أهل القبور متم فواموتاه ! وعاينتم أعمالكم فواعملاه ! ثم يقول : غداً عطاء في القبور غداً عطاء في القبور ، فلا يزال ذلك دأبه حتى يصبح .

وقال سفيان : من أكثر من ذكر القبر وجده روضة من رياض الجنة ، ومن غفل عن ذكره وجده حفرة من حفر النار .

وكان الربيع بن خثيم قد حفر في داره قبراً ، فكان إذا وجد في قلبه قساوة دخل فيه فاضطجع ومكث ما شاء الله ثم يقول : ﴿ **رب ارجعون لعلي أعمل صالحاً فيما تركت** ﴾ [1] يرددها ، ثم يردّ على نفسه : يا ربيع قد رجعتك فاعمل .

---

(1) سورة المؤمنون الآيتان : ٩٩ ، ١٠٠ .

وقال أحمد بن حرب : تتعجب الأرض من رجل يمهد مضجعه ويسوى فراشه للنوم ، فتقول : يا ابن آدم لم لا تذكر طول بلاك وما بينى وبينك شىء !

وقال ميمون بن مهران : خرجت مع عمر بن العزيز إلى المقبرة فلما نظر إلى القبور بكى ثم أقبل علىّ فقال : يا ميمون هذه قبور آبائى بنى أمية وكأنهم لم يشاركوا أهل الدنيا فى لذاتهم وعشيهم ! أما تراهم صرعى قد حلت بهم المثلات ، واستحكم فيهم البلى ، وأصابت الهوَامُّ مقيلا فى أبدانهم ؟ ثم بكى وقال : والله ما أعلم أحداً أنعم ممن صار إلى هذه القبور وقد أمن من عذاب الله .

وقال ثابت البنانى : دخلت المقابر فلما قصدت الخروج منها فإذا بصوت قائل يقول : يا ثابت لا يغرنك صموت أهلها فكم من نفس مغمومة فيها .

ويروى أن فاطمة بنت الحسين نظرت إلى جنازة زوجها الحسن بن الحسن فغطت وجهها وقالت :

وكانوا رَجاءً ثم أمسوا رزيةً ... لقد عَظُمتْ تلك الرزايا وجلّتِ

وقيل إنها ضربت على قبره فسطاطاً واعتكفت عليه سنة ، فلما مضت السنة قلعوا الفسطاط ودخلت المدينة ، فسمعوا صوتاً من جانب البقيع : هل وجدوا ما فقدوا ؟ فسمعوا من الجانب الآخر : بل يئسوا فانقلبوا .

وقال أبو موسى التميمى : توفيت امرأة الفرزدق فخرج فى جنازتها وجوه البصرة ـ وفيهم الحسن ـ فقال له الحسن : يا أبا فراس ماذا أعددت لهذا اليوم ؟ فقال : شهادة أن لا إله إلا الله منذ ستين سنة . فلما دفنت أقام الفرزدق على قبرها فقال :

أخاف وراء القبر إن لم تعافنِي ... أشدّ من القبر التهابا وأضيقا

إذا جاءنى يوم القيامة قائد ... عنيف وسوّاق يسوق الفرزدقا

لقد خاب من أولاد آدم من مشى ... إلى النار مغلول القلادة أزرقا

وقد أنشدوا فى أهل القبور :

قف بالقبور وقل على ساحاتها ... من منكم المغمور فى ظلماتها
ومن المكرّم منكم فى قعرها ... قد ذاق بَرْدَ الأمن من روعاتها
أما السكون لذى العيون فواجد ... لا يَسْتبين الفضل فى درجاتها
لو جاوبوك لأخبروك بألسُنٍ ... تصفُ الحقائق بعد من حالاتها
أما المطيع فنازل فى روضة ... يُفْضِى إلى ما شاء من دَوْحاتها
والمجرم الطاغى بها متقلب ... فى حفرة يأوى إلى حيّاتها
وعقارب تسعى إليه فُرُوحُهُ ... فى شدّة التعذيب من لدغاتها

ومرّ داود الطائى على امرأة تبكى على قبر وهى تقول :

عدمت الحياة ولا نلتها ... إذا كنت فى القبر قد ألحدوكا
فكيف أذوق لطعم الكرى ... وأنت بيمناك قد وسدوكا

ثم قالت : يا ابناه بأى خديك بدأ الدود ؟ فصعق داود مكانه وخرّ مغشياً عليه .

وقال مالك بن دينار : مررت بالمقبرة فأنشأت أقول :

أتيت القبور فناديها ... فأين المعظم والمحتقر
وأين المُدِلُّ ... وأين المزكى إذا ما افتخر

قال : فنوديت من بينها ، أسمع صوتاً ولا أرى شخصاً وهو يقول :

تفانوا جميعاً فما مُخْبِرٌ ... وماتوا جميعاً ومات الخبر
تروح وتغدو بنات الثرى ... فتمحو محاسن تلك الصور
فيا سائلى عن أناس مَضَوْا ... أمالك فيما ترى معتبر

قال : فرجعت وأنا باك .

* * *

البحث الثاني

أبيات وجدت مكتوبة على القبور

وجد مكتوباً على قبر :

تناجيك أحداث وهن صُمُوتُ   وسكانها تحت التراب خُفُوتُ
أيا جامع الدنيا لغير بَلاغه   لمن تجمع الدنيا وأنت تموت

ووجد على قبر آخر مكتوباً :

أيا غانم أما ذُرَاكَ فواسع   وقبرك معمورُ الجوانب مُحْكَمُ
وما ينفع المقبور عمرانُ قبره   إذا كان فيه جسمه يتهدم

وقال ابن السماك : مررت على المقابر فإذا على قبر مكتوب :

يمرّ أقاربى جَنَبَات قبرى   كأن أقاربى لم يعرفونى
ذوو الميراث يقتسمون مالى   وما يألون أن جحدوا ديونى
وقد أخذوا سهامهم وعاشوا   فيالله أسرع ما نسونى

ووجد على قبر مكتوباً :

إن الحبيب من الأحباب مختلسُ   لا يمنع الموتَ بوابٌ ولا حَرَسٌ
فكيف تفرح بالدنيا ولذتها   يا من يُعَدُّ عليه اللفظ والنَّفس
أصبحت يا غافلا فى النقص منغمسا   وأنت دهرك فى اللذات منغمس
لا يرحم الموت فى قبر وقفت به   ولا الذى كان منه العلم يُقْتَبَس

كم أخرس الموت فى قبر وقفت به ... عن الجواب لسانا ما به خرس
قد كان قصرك معموراً له شرف ... فقبرك اليوم فى الأجداث مندرس

ووجد على قبر آخر مكتوباً :

وقفت على الأحبة حين صُفّتْ ... قبورُهُمُ كأفراس الرهان
فلما أن بَكيْتُ وفاض دمعى ... رأت عيناى بينهم مكانى

ووجد على قبر طبيب مكتوباً :

قد قلت لما قال لى قائل ... صار لقمان إلى رمسه
فأين ما يوصف من طبه ... وحذقه فى الماء مع جسه
هيهات لا يدفع عن غيره ... من كان لا يدفع عن نفسه

ووجد على قبر آخر مكتوباً :

يا أيها الناس كان لى أمل ... قصَّر بى عن بلوغه الأجل
فليتق الله رَبَّهُ رجل ... أمكنه فى حياته العمل
ما أنا وحدى نُقِلت حيث ترى ... كلٌّ إلى مثله سينتقل

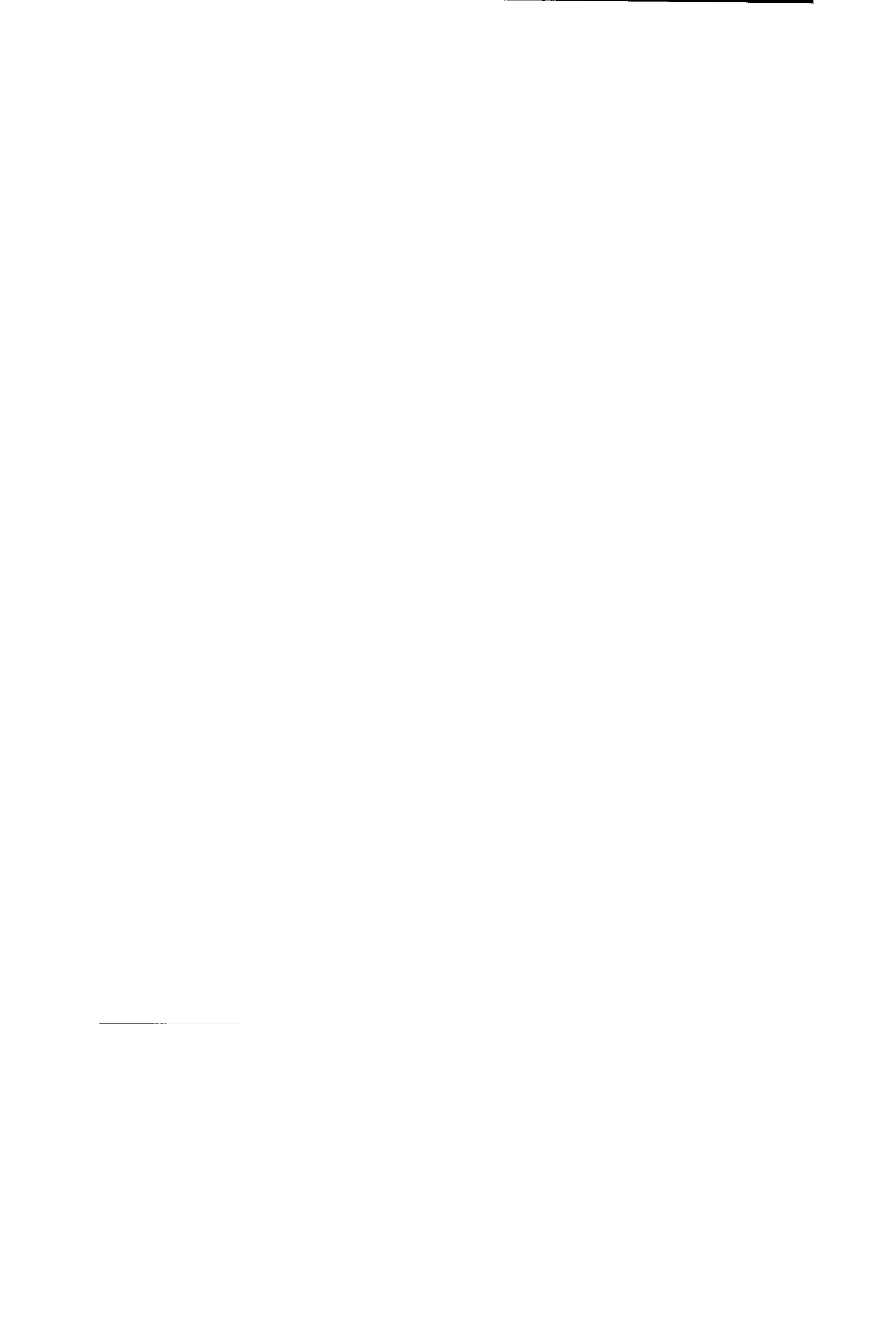
فهذه أبيات كتبت على قبور لتقصير سكانها عن الاعتبار قبل الموت .

والبصير هو الذى ينظر إلى قبر غيره فيرى مكانه بين أظهرهم ، فيستعد للحوق بهم ، ويعلم أنهم لا يبرحون من مكانهم ما لم يلحق بهم ، وليتحقق أنه لو عرض عليهم يوم من أيام عمره الذى هو مضيع له لكان ذلك أحب إليهم من الدنيا بحذافيرها ، لأنهم عرفوا قدر الأعمار وانكشفت لهم حقائق الأمور ، فإنما حسرتهم على يوم من العمر ليتدارك المقصر به تقصيره فيتخلص من العقاب، وليستزيد الموفق به رتبته فيتضاعف له الثواب ،

فإنهم إنما عرفوا قدر العمر بعد انقطاعه فحسرتهم على ساعة من الحياة وأنت قادر على تلك الساعة ، ولعلك تقدر على أمثالها ثم أنت مضيع لها ، فوطّنْ نفسك على التحسر على تضييعها عند خروج الأمر من الاختيار إذا لم تأخذ نصيبك من ساعتك على سبيل الابتدار .

فقد قال بعض الصالحين : رأيت أخاً لى فى الله ـ فيما يرى النائم ـ فقلت : يا فلان عشت الحمد لله رب العالمين ، قال : لأن أقدر على أن أقولها ـ يعنى الحمد لله رب العالمين ـ أحب إلىّ من الدنيا وما فيها ، ثم قال ألم تر حيث كانوا يدفنوننى فإن فلاناً قد قام فصلى ركعتين لأن أكون أقدر على أن أصليهما أحب إلىّ من الدنيا وما فيها .

* * *



الفصل الثالث :

مـوت الـولد

وفيه :

البحث الأول : ما ورد من أقاويلهم عند موت الولد .

البحث الثانى : ماذا يفعل الوالد لولده عند المـوت ؟

البحث الأول

ما ورد من أقاويلهم عند موت الولد

حق على من مات ولده أو قريب من أقاربه أن ينزله ـ فى تقدّمه عليه فى الموت ـ منزلة ما لو كانا فى سفر فسبقه الولد إلى البلد الذى هو مستقره ووطنه ، فإنه لا يعظم عليه تأسفه لعلمه أنه لاحق به على القرب ، وليس بينهما إلا تقدّم وتأخر .

وهكذا الموت فإن معناه السبق إلى الوطن إلى أن يلحق المتأخر ، وإذا اعتقد هذا قلّ جزعه وحزنه ، لا سيما وقد ورد فى موت الولد من الثواب ما يعزى به كل مصاب .

قال رسول الله ﷺ : « لأن أقــدم سقْطا أحب إلىّ من أن أخلف مائة فارس كلهم يقاتل فى سبيل الله » [(١)] ، وإنما ذكر السقط تنبيهاً بالأدنى على الأعلى وإلا فالثواب على قدر محل الولد من القلب .

وقال زيد بن أسلم : توفى ابن لداود عليه السلام فحزن عليه حزناً شديداً فقيل له : ما كان عدله عندك ؟ قال : ملء الأرض ذهباً ! قيل له : فإن لك من الأجر فى الآخرة مثل ذلك .

وقال رسول الله ﷺ : « لا يموت لأحد من المسلمين ثلاثة من الولد فيحتسبهم إلا كانوا له جُنّةً من النار » فقالت امرأة عند رسول الله ﷺ : أو اثنان ؟ قال « أو اثنان » [(٢)] .

---

(١) أخرجه ابن ماجة فى كتاب الجنائز باب ما جاء فيمن أصيب بسقط (٥١٣/١) وفى الزوائد قلت : قال المزى فى تهذيب الأطراف يزيد لم يدرك أبا هريرة ، ويزيد بن عبد الملك وإن وثقه ابن سعد، فقد ضعفه أحمد وابن معين وخلف .

(٢) أخرجه البخارى فى كتاب الجنائز باب فضل من مات له ولد فاحتسب (١١٨/٣) ومسلم فى كتاب البر والصلة باب فضل من يموت له ولد فيحتسبه (١٨٠/١٦ ، ١٨١) والنسائى فى كتاب الجنائز باب من يتوفى له ثلاثة فيحتسبهم مع الأحياء (٢٥/٤) .

البحث الثاني

ماذا يفعل الوالد عند موت ولده ..؟

وليخلص الوالد الدعاء لولده عند الموت ، فإنه أرجى دعاء وأقربه إلى الأجابة .

وقف محمد بن سليمان على قبر ولده فقال : اللهم إنى أصبحت أرجوك له وأخافك عليه ، فحقق رجائى وآمن خوفى .

ووقف أبو سنان على قبر ابنه فقال : اللهم إنى قد غفرت له ما وجب لى عليه ، فاغفر له ما وجب لك عليه ، فإنك أجود وأكرم .

ووقف أعرابى على قبر ابنه فقال : اللهم إنى قد وهبت له ما قصر فيه من برى ، فهب له ما قصر فيه من طاعتك .

ولما مات ذرّ بن عمر بن ذر : قال أبوه عمر بن ذر ـ بعد ما وضعه فى لحده ـ يا ذرّ لقد شغلنا الحزن لك عن الحزن عليك ، فليت شعرى ماذا قلت ؟ وماذا قيل لك ؟ ثم قال : اللهم إن هذا ذر متّعْتنى به ما متعتنى ووفيته أجله ورزقه ولم تظلمه ، اللهم وقد كنت ألزمته طاعتك وطاعتى ، اللهم ما وعدتنى عليه من الأجر فى مصيبتى فقد وهبت له ذلك ، فهب لى عذابه ولا تعذبه ، فأبْكى الناس ، ثم قال عند انصرافه : ما علينا بعدك من خصاصة يا ذرّ وما بنا إلى إنسان مع الله حاجة ، فلقد مضينا وتركناك ولو أقمنا ما نفعناك .

ونظر رجل إلى امرأة بالبصرة فقال : ما رأيت مثل هذه النضارة وما ذاك إلا من قلة الحزن ! فقالت : يا عبد الله إنى لفى حزن ما يشركنى فيه أحد ، قال : فكيف ؟ قالت : إن زوجى ذبح شاة فى يوم عيد الأضحى وكان لى

صبيان مليحان يلعبان فقال أكبرهما للآخر : أتريد أن أريك كيف ذبح أبى الشاه ؟ قال : نعم ، فأخذه وذبحه وما شعرنا به إلا متشحطا فى دمه ، فلما ارتفع الصراخ هرب الغلام فلجأ إلى جبل فَرَهَقَهُ ذئب فأكله ، وخرج أبوه يطلبه فمات عطشان من شدّة الحر ، قالت : فأردانى الدهر كما ترى .

فأمثال هذه المصائب ينبغى أن تتذكر عند موت الأولاد ليتسلى بها عن شدّة الجزع ، فما من مصيبة إلا ويتصوّر ما هو أعظم منها وما يدفعه الله فى كل حال فهو الأكثر .

* * *

الفصل الرابع :

زيارة القبور

وفيه :

البحث الأول : حكم زيارة القبور .

البحث الثانى : من فوائد زيارة القبور .

البحث الثالث : المستحب فى زيارة القبور .

البحث الرابع : قراءة القرآن على القبور .

البحث الخامس : المقصود من زيارة القبور .

البحث السادس : حكم الثناء على الميت .

البحث الأول

حكم زيارة القبور

زيارة القبور مستحبة على الجملة للتذكر والاعتبار .

وزيارة قبور الصالحين مستحبة لأجل التبرك مع الاعتبار .

وقد كان رسول الله ﷺ ينهى عن زيارة القبور ثم أذن في ذلك بعد[1] .

روى عن عليّ رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال : « كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فإنها تذكركم الآخرة غير أن لا تقولوا هجْراً »[2] .

وزار رسول الله ﷺ قبر أمه في ألف مقنع فلم ير باكياً أكثر من يومئذ »[3] .

وفى هذا اليوم قال : « أذن لى فى الزيارة دون الاستغفار »[4] .

---

(١) عن رسول ﷺ أنه قال : « كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها » .

أخرجه مسلم فى كتاب الجنائز باب استئذان النبى ﷺ فى زيارة قبر أمه (٤٦/٧) حديث رقم ٩٧٧ ، وأبو داود فى كتاب الجنائز باب فى زيارة القبور (٥٥٨/٣) والنسائى فى كتاب الأشربة باب الإذن فى شىء منها (٣١١/٨) ، والحاكم فى المستدرك فى كتاب الجنائز باب زيارة النبى ﷺ قبر أمه (٣٧٦/١) وقال عنه الذهبى : وروى بإسناد آخر عن أنس .

(٢) الحديث السابق وأخرجه ـ كذلك ـ الإمام أحمد فى المسند (٦٦/٣ ، ٢٣٧) والنسائى فى كتاب الجنائز باب زيارة القبور (٨٩/٤) .

(٣) أخرجه الحاكم فى المستدرك فى كتاب الجنائز باب الرخصة فى زيارة القبور (٣٧٥/١) وقال الحاكم هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبى .

(٤) أخرجه الحاكم فى كتاب الجنائز باب زيارة النبى ﷺ قبر أمه (٣٧٥/١) وصححه الحاكم وقال الذهبى على شرط مسلم والنسائى فى كتاب الجنائز باب زيارة قبر المشرك (٩٠/٤) .

وقال ابن أبى مليكة : أقبلت عائشة رضى الله عنها يوما من المقابر فقلت : يا أمّ المؤمنين من أين أقبلت ؟ قالت : من قبر أخى عبد الرحمن ، فقلت : « أليس كان رسول الله ﷺ نهى عنها ؟ قالت : نعم ، ثم أمر بها »[1].

ولا ينبغى أن يتمسك بهذا فيؤذن للنساء فى الخروج إلى المقابر ، فإنهن يكثرن الهجر على رءوس المقابر فلا يفى خير زيارتهن بشرها ، ولا يخلون فى الطريق عن تكشف وتبرج وهذه عظائم ، والزيارة سنة فكيف يحتمل ذلك لأجلها . نعم لا بأس بخروج المرأة فى ثياب بذْلة تَرُدّ أعين الرجال عنها وذلك بشرط الاقتصار على الدعاء وترك الحديث على رأس القبر .

* * *

(١) أخرجه الحاكم فى المستدرك فى كتاب الجنائز باب زيارة الرسول ﷺ قبر أمه (٣٧٦/١) وصححه الحاكم والذهبى .

البحث الثاني

من فوائد زيارة القبور

قال أبو ذر : قال رسول الله ﷺ : « زر القبور تذكر بها الآخرة ، واغسل الموتى فإن معالجة جسد خاو موعظة بليغة ، وصل على الجنائز لعل ذلك أن يحزنك فإن الحزين فى ظل الله »(١) .

وقال ابن أبى مليكة : قال رسول الله ﷺ : « زوروا موتاكم وسلموا عليهم فإن لكم فيهم عبرة »(٢) .

وعن نافع أن ابن عمر كان لا يمر بقبر أحد إلا وقف عليه وسلم عليه .

وعن جعفر بن محمد عن أبيه أن فاطمة بنت النبى ﷺ كانت تزور قبر عمها حمزة فى الأيام ، فتصلى وتبكى عنده .

وقال النبى ﷺ : « من زار قبر والديه أو أحدهما فى كل جمعة غفر له وكتب براً »(٣) .

---

(١) أخرجه الحاكم فى المستدرك فى كتاب الجنائز باب الحزين فى ظل الله (٣٧٧/١) ثم قال: هذا حديث رواته كلهم ثقات ، وقال الذهبى : قلت : لكنه منكر ويعقوب هو القاضى أبو يوسف حسن الحديث ويحيى لم يدرك أبا مسلم فهو منقطع أو أن أبا مسلم رجل مجهول .

(٢) ذكر الهيثمى فى مجمع الزوائد فى كتاب الجنائز باب زيارة القبور (٥٧/٣ ، ٥٨) بلفظ قريب . ثم قال : رواه الطبرانى فى الكبير وفيه يحيى بن المتوكل وهو ضعيف . كما ذكره صاحب إتحاف السادة المتقين فى (٣٦٣/١٠) ثم قال عنه : قال العراقى : رواه ابن أبى الدنيا فى كتاب القبور هكذا مرسلاً وإسناده حسن أ هـ . ثم قال أيضاً : قلت : لفظ ابن أبى الدنيا فسلموا عليهم وصلوا عليهم ، وقد رواه الديلمى من حديث عائشة متصلاً بلفظ « زوروا إخوانكم وسلمو عليهم وصلوا فإن لكم فيهم عبرة » وذكره الديلمى كذلك فى (٤٢٠/٢) .

(٣) ذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد (٦٢/٣ ، ٦٣) كتاب الجنائز وقال رواه الطبرانى فى الأوسط والصغير وفيه عبد الكريم أبو أميه وهو ضعيف ، وفيض القدير (١٤١/٦) وعزاه إلى الحاكم عن أبى هريرة ورمز لصحته وللطبرانى كذلك عن أبى هريرة ثم قال : قال الهيثمى : وفيه عبد الكريم أبو أميه ضعيف .

وعن ابن سيرين قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الرجل ليموت والداه وهو عاق لهما فيدعو الله لهما من بعدهما فيكتبه الله من البارّين »(١) .

وقال النبى ﷺ : « من زار قبرى فقد وجبت له شفاعتى »(٢) .

وقال صلى الله عليه وسلم : « من زارنى بالمدينة محتسباً كنت له شفيعاً وشهيداً يوم القيامة »(٣) .

وقال كعب الأحبار ما من فجر يطلع إلا نزل سبعون ألفا من الملائكة حتى يحفوا بالقبر يضربون بأجنحتهم ويصلون على النبى ﷺ حتى إذا أمسوا عرجوا وهبط مثلهم فصنعوا مثل ذلك ، حتى إذا انشقت الأرض خرج فى سبعين ألفا من الملائكة يوقرونه .

---

(١) ذكره صاحب إتحاف السادة المتقين فى (٣٦٣/١٠) ثم قال عنه : قال العراقى : رواه ابن أبى الدنيا فى كتاب القبور وهو مرسل صحيح الإسناد ، ورواه ابن عدى من رواية يحيى بن عقبة بن أبى العيزار عن محمد بن حجادة عن أنس قال : رواه الصلت بن الحجاج عن أبى حجادة عن قتادة عن أنس ويحيى بن عقبة والصلت بن الحجاج كلاهما ضعيف أ هـ . وقال أيضاً : قلت : رواه ابن عساكر من حديث أنس وقال فيه : يحيى بن عقبة كذبه ابن معين ولفظه : « إن الرجل يموت والداه أو أحدهما وإنه لعاق لهما فلا يزال يدعو لهما ويستغفر لهما حتى يكتبه الله براً أ. هـ . وذكره السيوطى فى الدر المنثور فى (١٧٤/٤) .

(٢) ذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد فى كتاب الحج باب زيارة سيدنا محمد ﷺ (٥/٤) ثم قال : رواه البزار وفيه عبد الله بن إبراهيم العقارى وهو ضعيف ، كما ذكره العجلونى فى كشف الخفاء (٢٥٠/٢) وقال عنه : قال فى الأصل رواه أبو الشيخ وابن أبى الدنيا وغيرهما عن ابن عمر وهو فى صحيح ابن خزيمة وأشار إلى تضعيفه ، وعند أبى الشيخ والطبرانى وابن عدى والدارقطنى والبيهقى ولفظهم « كان كمن زارنى فى حياتى » وضعفه البيهقى . وقال الذهبى طرقه كلها لينة لكن يتقوى بعضها ببعض لأن ما فى رواتها متهم بالكذب . وقال : ومن أجودها إسناد حديث حاطب الذى أخرجه ابن عساكر وغيره « من زارنى بعد موتى فكأنما زارنى فى حياتى » وللطيالسى عن عمر مرفوعاً « من زار قبرى كنت له شفيعاً أو شهيداً » وللسبكى شفاء السقام فى زيارة خير الأنام وذكر فيه أحاديث كثيرة فى هذا المعنى ، وكذلك ذكر ابن حجر المكى فى كتابه الجوهر المنظم أحاديث من هذا النمط . ومنها قوله عليه السلام : « من زارنى أو من زار قبرى إلى المدينة كنت له شهيداً وشفيعاً يوم القيامة » وانظر فيض القدير (١٤٠/٦) .

(٢) سبق هذا الحديث فى تعليق العجلونى على الحديث السابق .

كما ذكر هذا الحديث صاحب إتحاف السادة المتقين (٣٦٤/١٠) والسيوطى فى الدر المنثور (٢٧٣/١) وصاحب كنز العمال فى (٤٢٥٨٤/٦٥٢/١٥) وعزاه للبيهقى .

البحث الثـالث

المستحب فى زيارة القبور

والمستحب فى زيارة القبور : أن يقف مستدبر القبلة مستقلاً بوجهه الميت ، وأن يسلم ، ولا يمسح القبر ، ولا يمسه ، ولا يقبله ، فإن ذلك من عادة النصارى .

قال نافع : كان ابن عمر - رأيته مائة مرة أو أكثر - يجىء إلى القبر فيقول : السلام على النبى ، السلام على أبى بكر ، السلام على أبى ، وينصرف .

وعن أبى أُمامة قال : رأيت أنس بن مالك أتى قبر النبى ﷺ ، فوقف فرفع يديه حتى ظننت أنه أفتتح الصلاة فسلم على النبى ﷺ ثم انصرف.

وقالت عائشة رضى الله عنها : قال رسول الله ﷺ : « ما من رجل يزور قبر أخيه ويجلس عنده إلا استأنس به وردّ عليه حتى يقوم »[1] .

وقال سليمان بن سحيم : رأيت رسول الله ﷺ فى النوم ، فقلت : يا رسول الله هؤلاء الذين يأتونك ويسلمون عليك أتفقه سلامهم ؟ قال نعم ، وأردّ عليهم .

وقال أبو هريرة : إذا مر الرجل بقبر لرجل يعرفه فسلم عليه ردّ عليه

---

(١)ذكره صاحب إتحاف السادة المتقين فى (٣٦٥/١٠) ثم قال عنه : قال العراقى : رواه ابن أبى الدنيا فى كتاب القبور وفيه عبد الله بن سمعان ولم أقف على حاله ورواه ابن عبد الله فى التمهيد من حديث ابن عباس نحوه وصححه عبد الحق الأشبلى أ هـ . ثم قال أيضاً : قلت وإن كان هو عبد الله بن محمد بن أبى يحيى لقبه سجيل واسم أبيه سمعان فهو ثقة وهو الظاهر فإنه ينسب إلى جده روى له البخارى فى الأدب المفرد وأبو داود مات سنة ٦٢هـ ويحتمل أن يكون هو عبد الله بن زياد بن سليمان بن سمعان المخزومى المدنى وهو أحد الضعفاء المشهورين اتهمه أبو داود بالكذب وقد روى له أبو داود فى المراسيل وابن ماجة وهذا هو الذى استقر عليه رأى السيوطى فى آمال الدرة ولم يذكر الذى قبله .

السلام وعرفه ، وإذا مر بقبر لا يعرفه وسلم عليه ردّ عليه السلام .

وقال رجل من آل عاصم الجحدرى : رأيت عاصما فى منامى بعد موته بسنتين فقلت : أليس قدمتّ ؟ قال : بلى ، فقلت : أين أنت ! فقال: أنا والله فى روضة من رياض الجنة أنا ونفر من أصحابى نجتمع كل ليلة جمعة وصبيحتها إلى أبى بكر بن عبد الله المزنى فنتلاقى أخباركم ، قلت : أجسامكم أم أرواحكم ؟ قال هيهات ! بليت الأجسام وإنما تتلاقى الأرواح. قال : قلت : فهل تعلمون بزيارتنا إياكم ؟ قال نعم نعلم بها عشية الجمعة ويوم الجمعة كله ، ويوم السبت إلى مطلع الشمس . قلت : وكيف ذاك دون الأيام كلها ؟ قال : لفضل يوم الجمعة وعظمه .

وكان محمد بن واسع يزور يوم الجمعة فقيل له : لو أخرت إلى يوم الاثنين ؟ قال : بلغنى أن الموتى يعلمون بزوّارهم يوم الجمعة ويوماً قبله ويوماً بعده .

وقال الضحاك : من زار قبراً قبل طلوع الشمس يوم السبت علم الميت بزيارته ، قيل : وكيف ذاك ؟ قال : لمكان يوم الجمعة .

وقال بشر بن منصور : لما كان زمن الطاعون كان رجل يختلف إلى الجبانة فيشهد الصلاة على الجنائز ، فإذا أمسى وقف على باب المقابر فقال: آنس الله وحشتكم ورحم غربتكم وتجاوز عن سيئاتكم وقبل الله حسناتكم لا يزيد على هذه الكلمات ، قال الرجل : فأمسيت ذات ليلة فانصرفت إلى أهلى ولم آت إلى المقابر فأدعو كما كنت أدعو ، فبينما أنا نائم إذا بخلق كثير قد جاءونى فقلت : ما أنتم وما حاجتكم ؟ قالوا : نحن أهل المقابر . قلت : ما جاء بكم ؟ قالوا : إنك قد عوّدتنا منك هدية عند انصرافك إلى أهلك ، قلت : وما هى ؟ قالوا : الدعوات التى كنت تدعو لنا بها ، قلت : فإنى أعود لذلك ، فما تركتها بعد ذلك .

وقال بشار بن غالب النجرنى : رأيت رابعة العدوية العابدة فى منامى وكنت كثير الدعاء لها فقالت لى : يا بشارة بن غالب هداياك تأتينا على

أطباق من نور مخمرة بمناديل الحرير . قلت : وكيف ذاك ؟ قالت : وهكذا دعاء المؤمنين الأحياء إذا دعوا للموتى فاستجيب لهم جعل ذلك الدعاء على أطباق النور وخمر مناديل الحرير ، ثم أتى به الميت فقيل له هذه هدية فلان إليك .

قال رسول الله ﷺ : « ما الميت فى قبره إلا كالغريق المتغوث ينتظر دعوة تلحقه من أبيه أو أخيه أو صديق له ، فإذا لحقته كانت أحب إليه من الدنيا وما فيها ، وإن هدايا الأحياء للأموات الدعاء والاستغفار »[1] .

وقال بعضهم : مات أخ لى فرأيته فى المنام فقلت : ما كان حالك حيث وضعت فى قبرك ؟ قال : أتانى بشهاب من نار فلولا أن داعياً دعا لى لرأيت أنه سيضربنى به .

ومن هذا يسحب تلقين الميت بعد الدفن ، والدعاء له .

قال سعيد بن عبد الله الأزدى : شهدت أبا أُمامة الباهلى وهو فى النزع فقال : يا سعيد إذ متُّ فاصنعوا بى كما أمرنا رسول الله ﷺ فقال : « إذا مات أحدكم فسوّيتَم عليه التراب فليقم أحدكم على رأس قبره ، ثم يقول : يا فلان ابن فلانة فإنه يسمع ولا يجيب ، ثم ليقل : يا فلان ابن فلانة الثانية فإنه يستوى قاعداً ، ثم ليقل : يا فلان ابن فلانة الثالثة فإنه يقول : أرشدنا يرحمك الله ولكن لا تسمعون فيقول له : أذكر ما خرجت عليه من الدنيا شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وأنك رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً وبالقرآن إماماً ، فإن منكراً ونكيراً يتأخر كل واحد منهما فيقول انطلق بنا ما يقعدنا عند هذا وقد لقن حجته ، ويكون الله عز وجل حجيجه دونهما » فقال رجل يا رسول الله : فإن لم يعرف اسم أمه؟ قال : « فلينسبه إلى حواء »[2] .

---

(١) ذكره صاحب فردوس الأخبار فى (٣٩١/٥) برقم ٦٦٦٤ . وانظر كنز العمال (٢٨٣/٦ ، ٢٨٤) وإتحاف السادة المتقين ٣٦٧/١٠ وقال صاحبه: رواه البيهقى فى الشعب. قال: وقال أبو على الحسين بن على الحافظ : هذا حديث غريب . وقال العراقى : رواه الديلمى فى مسند الفردوس من حديث ابن عباس وفيه الحسن بن على بن عبد الواحد حدث عن هشام بن عمار بحديث باطل .

(٢) ذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد كتاب الجنائز باب تلقين الميت « لا إله إلا الله » (٣٢٤/٢) ثم قال : رواه الطبرانى فى الكبير وفيه من لم أعرفه جماعة .

البحث الرابع

قراءة القرآن على القبور

ولا بأس بقراءة القرآن على القبور .

روى عن على بن موسى الحداد قال : كنت مع أحمد بن حنبل فى جنازة ومحمد بن قدامة الجوهرى معنا ، فلما دفن الميت جاء رجل ضرير يقرأ عند القبر فقال له أحمد : يا هذا إن القراءة عند القبر بدعة ، فلما خرجنا من المقابر قال محمد بن قدامة لأحمد : يا أبا عبد الله ما تقول فى مبشر ابن إسماعيل الحلبى ؟ قال : ثقة . قال : هل كتبت عنه شيئاً ؟ قال: نعم . قال : « أخبرنى مبشر بن إسماعيل عن عبد الرحمن بن علاء بن اللجلاج عن أبيه ، أنه أوصى إذا دفن أن يقرأ عند رأسه فاتحة البقرة وخاتمتها ، وقال سمعت ابن عمر يوصى بذلك ، فقال له : فارجع إلى الرجل فقل له يقرأ .

وقال محمد بن أحمد المروزى : سمعت أحمد بن حنبل يقول : إذا دخلتم المقابر فاقرءوا بفاتحة الكتاب والمعوّذتين وقل هو الله أحد ، واجعلوا ثواب ذلك لأهل المقابر فإنه يصل إليهم .

وقال أبو قلابة : أقبلت من الشام إلى البصرة فنزلت الخندق فتطهرت وصليت ركعتين بليل ، ثم وضعت رأسى على قبر فنمت ثم تنبهت فإذا صاحب القبر يشتكينى ويقول : لقد آذيتنى منذ الليلة ، ثم قال إنكم لا تعلمون ونحن نعلم ولا نقدر على العمل ، ثم قال للركعتان اللتان ركعتهما خير من الدنيا وما فيها ، ثم قال جزى الله عنا أهل الدنيا خيراً أقرئهم السلام فإنه قد يدخل علينا من دعائهم نوراً مثال الجبال .

* * *

البحث الخامس

المقصود من زيارة القبور

والمقصود من زيارة القبور : للزائر الاعتبار بها ، وللمزور الانتفاع بدعائه.

فلا ينبغي أن يغفل الزائر عن الدعاء لنفسه وللميت ، ولا عن الاعتبار به .

وإنما يحصل له الاعتبار بأن يصوّر فى قلبه الميت كيف تفرّقت أجزاؤه وكيف يبعث من قبره ؟ وأنه على القرب سيلحق به .

كما روى عن مطرف بن أبى بكر الهذلى قال : كانت عجوز فى عبد القيس متعبدة فكان إذا جاء الليل تحزمت ثم قامت إلى المحراب ، وإذا جاء النهار خرجت إلى القبور ، فبلغنى أنها عوتبت فى كثرة إتيانها المقابر ، فقالت : إنّ القلب القاسى إذا جفا لم يلينه إلا رسوم البلى ، وإنى لآتى القبور فكأنى أنظر وقد خرجوا من بين أطباقها وكأنى أنظر إلى تلك الوجوه المتعفرة وإلى تلك الأجسام المتغيرة وإلى تلك الأجفان الدسمة ، فيالها من نظرة لو أشربها العباد قلوبهم ما أنكل مرارتها للأنفس وأشدّ تلفها للأبدان !!

بل ينبغي أن يحضر من صورة الميت ما ذكره عمر بن عبد العزيز ؛ حيث دخل عليه فقيه فتعجب من تغير صورته لكثرة الجهد والعبادة فقال له : يا فلان لو رأيتنى بعد ثلاث وقد أدخلت قبرى وقد خرجت الحدقتان فسالتا على الخدّين وتقلصت الشفتان عن الأسنان ، وخرج الصديد من الفم وانفتح الفم ، ونتأ البطن فعلا الصدر وخرج الصلب من الدبر وخرج الدود والصديد من المناخر لرأيت أعجب مما تراه الآن .

* * *

البحث السادس

الثناء على الميت

ويستحب الثناء على الميت وألا يذكر إلا بالجميل .

قالت عائشة رضى الله عنها : قال رسول الله ﷺ : « إذا مات صاحبكم فدعوه ولا تقعوا فيه » [1] .

وقال صلى الله عليه وسلم : « لا تسبوا الأموات فإنهم قد أفضوا إلى ما قدّموا »[2] .

وقال صلى الله عليه وسلم : « لا تذكروا موتاكم إلا بخير فإنهم إن يكونوا من أهل الجنة تأثمون ، وإن يكونوا من أهل النار فحسبهم ما هم فيه »[3] .

وقال أنس بن مالك : مرت جنازة على رسول الله ﷺ فأثنوا عليها شرًّا فقال عليه السلام : « وَجَبَتْ » ومروا بأخرى فأثنوا عليها خيراً فقال رسول الله ﷺ : « وَجَبَتْ » فسأله عمر عن ذلك فقال : « إنَّ هذا أثنيتم عليه خيراً فوجبت له الجنة ، وهذا أثنيتم عليه شرًّا فوجبت له النار ، وأنتم شهداء الله فى الأرض »[4] .

---

(١) أخرجه أبو داود فى كتاب الأدب باب فى النهى عن سب الموتى (٢٠٦/٥) والدارمى فى كتاب النكاح باب فى حسن معاشرة النساء (١٥٩/٢) . وذكره صاحب فيض القدير (٤٣٩/١) ثم قال أخرجه أبو داود عن عائشة وصححه السيوطى وصاحب الفيض .

(٢) أخرج البخارى فى كتاب الجنائز باب ما ينهى عن سب الأموات (٢٥٨/٣) ومسلم فى كتاب فضائل الصحابة باب تحريم سب الصحابة (٩٢/١٦) والنسائى فى كتاب الجنائز باب النهى عن سب الأموات (٥٣/٤) .

(٣) أخرجه النسائى فى كتاب الجنائز باب النهى عن سب الأموات (٥٣/٤) ولفظه : « لا تسبوا الأموات فإنهم قد أفضوا إلى ما قدموا » وفى لفظ آخر عن السيدة عائشة قالت : ذكر عن النبى ﷺ هالك بسوء فقال : « لا تذكروا هلكاكم إلا بخير » .

(٤) أخرجه البخارى فى كتاب الجنائز باب ثناء الناس على الميت (٢٢٨/٣ ، ٢٢٩) ومسلم =

وقال أبو هريرة : قال رسول الله ﷺ : « إنَّ العبد ليموت فيثنى عليه القوم الثناء يعلم الله منه غيره فيقول الله تعالى لملائكته أشهدكم أنى قد قبلت شهادة عبيدى على عبدى ، وتجاوزت عن علمى فى عبدى »[1] .

* * *

= فى كتاب الجنائز باب فيمن يثنى عليه حديث رقم ٩٤٩ (١٨/٧ ، ١٩) وأبو داود فى كتاب الجنائز باب فى الثناء على الميت (٥٥٦/٣ ، ٥٥٧) وأحمد فى المسند (٢٤٥/٣ ، ٢٨١) .

(١) « إن العبد ليموت فيثنى عليه القوم الثناء » إلخ .

أخرجه أحمد بن حنبل فى المسند (٣٨٤/٢ ، ٤٠٨ ، ٤٠٩) (٢٤٢/٣) .

الباب الرابع

حقيقة الموت وحياة البرزخ

وفيـه :

- **الفصل الأول : بيان حقيقة الموت**
- **الفصل الثانى : حيـاة الـبرزخ**
- **الفصل الثالث : أحـوال الموتى**

الفصل الأول :

بيان حقيقة الموت

وفيه :

المبحث الأول : ظنون فاسدة .

المبحث الثانى : حقيقة الموت .

البحث الأول

ظنــون فاسـدة

اعلم أن للناس فى حقيقة الموت ظنوناً كاذبة قد أخطأوا فيها .

فظنّ بعضهم : أنّ الموت هو العدم ، وأنه لا حشر ولا نشر ولا عاقبة للخير والشر ، وأنّ موت الإنسان كموت الحيوانات وجفاف النبات ، وهذا رأى الملحدين ، وكل من لا يؤمن بالله واليوم الآخر .

وظنّ قوم : أنه ينعدم بالموت ولا يتألم بعقاب ولا يتنعم بثواب ما دام فى القبر إلى أن يعاد فى وقت الحشر .

وقال آخرون : إنّ الروح باقية لا تنعدم بالموت ، وإنما المثاب والمعاقب هى الأرواح دون الأجساد ، وإنّ الأجساد لا تبعث ولا تحشر أصلاً .

وكل هذه : ظنون فاسدة ، ومائلة عن الحق .

* * *

البحث الثاني

حقيقة المـوت

الذى تشـهـد له طرق الاعـتـبـار وتنطق به الآيات والأخـبـار أنّ الموت معنـاه : تغير حال فقط ، وأنّ الروح باقية بعد مفارقة الجسد إما معذبة وإما منعمة .

ومعنى مفارقتها للجسد انقطاع تصرفها عن الجسد بخروج الجسد عن طاعتها ، فإن الأعضاء آلات للروح تستعملها حتى إنها لتبطش باليد وتسمع بالأذن وتبصر بالعين وتعلم حقيقة الأشياء بالقلب .

والقلب ههنا عبارة عن الروح ، والروح تعلم الأشياء بنفسها من غير آلة ، ولذلك قد يتألم بنفسه بأنواع الحزن والغم والكمد ويتنعم بأنواع الفرح والسرور ، وكل ذلك لا يتعلق بالأعضاء . فكل ما هو وصف للروح بنفسها فيبقى معها بعد مفارقة الجسد ، وما هو لها بواسطة الأعضاء فيتعطل بموت الجسد إلى أن تعاد الروح إلى الجسد ، ولا يبعد أن تعاد الروح إلى الجسد فى القبر ، ولا يبعد أن تؤخر إلى يوم البعث . والله أعلم بما حكم به على كل عبد من عباده . وإنما تَعَطُّل الجسد بالموت يضاهى تعطل أعضاء الزَّمِنِ بفساد مزاج يقع فيه وبشدّة تقع فى الأعصاب تمنع نفوذ الروح فيها ، فتكون الروح العالمة العاقلة المدركة باقية مستعملة لبعض الأعضاء وقد استعصى عليها بعضها ، والموت عبارة عن استعصاء الأعضاء كلها . وكل الأعضاء آلات والروح هى المستعملة لها .

وأعنى بالروح : المعنى الذى يدرك من الإنسان العلوم وآلام الغمـوم ولذات الأفراح . ومهما بطل تصرفها فى الأعضاء لم تبطل منها العلوم والإدراكات ، ولا بطل منها الأفراح والغموم ، ولا بطل منها قبولها للآلام

واللذات . والإنسان بالحقيقة هو المعنى المدرك للعلوم وللآلام واللذات وذلك لا يموت ـ أى لا ينعدم ـ .

ومعنى الموت انقطاع تصرّفه عن البدن وخروج البدن عن أن يكون آلة له ، كما أنَّ معنى الزمانة خروج اليد عن أن تكون آلة مستعملة . فالموت زمانه مطلقة فى الأعضاء كلها ، وحقيقة الإنسان نفسه وروحه وهى باقية .

نعم تغير حاله من جهتين :

إحداهما : أنه سلب منه عينه وأذنه ولسانه ويده ورجله وجميع أعضائه، وسلب منه أهله وولده وأقاربه وسائر معارفه ، وسلب منه خيله ودوابه وغلمانه ودوره وعقاره وسائر أملاكه ، ولا فرق بين أن تسلب هذه الأشياء من الإنسان وبين أن يسلب الإنسان من هذه الأشياء، فإن المؤلم هو الفراق ، والفراق يحصل تارة بأن ينهب مال الرجل وتارة بأن يسبى الرجل عن الملك والمال والألم واحد فى الحالتين . وإنما معنى الموت سلب الإنسان عن أمواله بإزعاجه إلى عالم آخر لا يناسب هذا العالم ، فإن كان له فى الدنيا شىء يأنس به ويستريح إليه ويعتدّ بوجوده فيعظم تحسره عليه بعد الموت ويصعب شقاؤه فى مفارقته ، بل يلتفت قلبه إلى واحد واحد من ماله وجاهه وعقاره حتى إلى قميص كان يلبسه مثلاً ويفرح به ، وإن لم يكن يفرح إلا بذكر الله ولم يأنس إلا به عظم نعيمه وتمت سعادته إذا خلى بينه وبين محبوبه وقطعت عنه العوائق والشواغل ، إذ جميع أسباب الدنيا شاغلة عن ذكر الله . فهذا أحد وجهى المخالفة بين حال الموت وحال الحياة .

والثانى : أنه ينكشف له بالموت ما لم يكن مكشوفاً له فى الحياة ، كما قد ينكشف للمتيقظ ما لم يكن مكشوفاً له فى النوم . والناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا ، وأوّل ما ينكشف له ما يضرّه وينفعه من حسناته وسيئاته ، وقد كان ذلك مسطوراً فى كتاب مطوى فى سّر قلبه ، وكان يشغله عن الاطلاع عليه شواغل الدنيا ، فإذا انقطعت الشواغل انكشف له جميع أعماله فلا ينظر إلى سيئة إلا ويتحسر عليها تحسراً يؤثر أن يخوض غمرة النار

للخلاص من تلك الحسرة ، وعند ذلك يقال له : ﴿ **كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا** ﴾ [1] وينكشف كل ذلك عند انقطاع النَّفس وقبل الدفن ، وتشتغل فيه نيران الفراق أعنى فراق ما كان يطمئن إليه من هذه الدنيا الفانية دون ما أراد منها لأجل الزاد والبلغة ، فإن من طلب الزاد للبلغة فإذا بلغ المقصد فرح بمفارقته بقية الزاد إذ لم يكن يريد الزاد لعينه .

وهذا حال من لم يأخذ من الدنيا إلا بقدر الضرورة وكان يودّ أن تنقطع ضرورته ليتسغنى عنه ، فقد حصل ما كان يودّه واستغنى عنه .

وهذه أنواع من العذاب والآلام عظيمة تهجم عليه قبل الدفن .

ثم عند الدفن قد تردّ روحه إلى الجسد لنوع آخر من العذاب وقد يعفى عنه .

ويكون حال المتنعم بالدنيا المطمئن إليها كحال من تنعم عند غيبة ملك من الملوك فى داره وملكه وحريمه اعتماداً على أنّ الملك يتساهل فى أمره ، أو على أنّ الملك ليس يدرى ما يتعاطاه من قبيح أفعاله ، فأخذه الملك بغتة وعرض عليه جريدة قد دوّنت فيها جميع فواحشه وجناياته ذرّة ذرّة وخطوة خطوة ، والملك قاهر متسلط وغيور على حرمه ومنتقم من الجناة على ملكه وغير ملتفت إلى من يتشفع إليه فى العصاة عليه .

فانظر إلى هذا المأخوذ كيف يكون حاله قبل نزول عذاب الملك به من الخوف والخجلة والحياء والتحسر والندم .

فهذا حال الميت الفاجر المغتر بالدنيا المطمئن إليها قبل نزول عذاب القبر به ، بل عند موته نعوذ بالله منه ، فإنّ الخزى والافتضاح وهتك الستر أعظم من كل عذاب يحل بالجسد من الضرب والقطع وغيرهما .

فهذه إشارة إلى حال الميت عند الموت شاهدها أولوا البصائر بمشاهدة باطنة أقوى من مشاهدة العين ، وشهد لذلك شواهد الكتاب والسنة .

---

(١) سورة الإسراء الآية : ١٤ .

نعم لا يمكن كشف الغطاء عن كنه حقيقة الموت إذ لا يعرف الموت من لا يعرف الحياة ، ومعرفة الحياة بمعرفة حقيقة الروح فى نفسها وإدراك ماهية ذاتها ، ولم يؤذن لرسول الله ﷺ أن يتكلم فيها ، ولا أن يزيد على أن يقول [1] : ﴿ **الروح من أمر ربى** ﴾ [2] فليس لأحد من علماء الدين أن يكشف عن سر الروح وإن اطلع عليه ، وإنما المأذون فيه ذكر حال الروح بعد الموت .

ويدل على أن الموت ليس عبارة عن انعدام الروح وانعدام إدراكها آيات وأخبار كثيرة .

أما الآيات : فما ورد فى الشهداء إذ قال تعالى : ﴿ **ولا تحسبنَّ الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين** ﴾[3] ولما قتل صناديد قريش يوم بدر ناداهم رسول الله ﷺ فقال : « يا فلان يا فلان يا فلان قد وجدت ما وعدنى ربى حقاً فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً » فقيل يا رسول الله أتناديهم وهم أموات ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : « والذى نفسى بيده إنهم لأسمع لهذا الكلام منكم إلا أنهم لا يقدرون على الجواب »[4] .

فهذا نص فى روح الشقى وبقاء إدراكها ومعرفتها .

والآية نص فى أرواح الشهداء .

ولا يخلو الميت عن سعادة أو شقاوة .

---

(١) سورة الإسراء الآية : ٨٥ .

(٢) أخرجه مسلم فى كتاب صفة القيامة والجنة والنار ١٣٦/١٧ ، ١٣٧ باب سؤال اليهود النبى ﷺ عن الروح .

(٣) سورة آل عمران الآيتان : ١٦٩ ، ١٧٠ .

(٤) أخرجه مسلم فى كتاب الجنة وصفة نعيمها (٢٠٦/١٧) باب عرض مقعد الميت عليه وإثبات عذاب القبر والتعوذ منه . وأحمد فى المسند (٣١/٢ ، ٣٨ ، ١٣١ ، ١٠٤/٣ ، ١٤٥) .

وقال صلى الله عليه وسلم : « القبر إما حفرة من حفر النار أو روضة من رياض الجنة »[1] .

وهذا نص صريح على أن الموت معناه تغير حال فقط ، وأن ما سيكون من شقاوة الميت وسعادته يتعجل عند الموت من غير تأخر ، وإنما يتأخر بعض أنواع العذاب والثواب دون أصله .

* * *

---

(١)أخرجه البخارى فى كتاب الجنائز باب الميت يعرض عليه مقعده بالغداة والعشى (٢٤٣/٣) ولفظ البخارى : « إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشى ، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة ، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار ، فيقال هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة .

وانظر مجمع الزوائد (٤٦/٣) واتحاف السادة المتقين (٣٨٠/١ ، ٢٣/٥ ، ٣٠١/٦ ، ٣٨٠/١٠، ٣٩٧) وكنز العمال رقم ٤٢٣٩٧ .

الفصل الثانى :

حياة البرزخ

وفيه :

البحث الأول : صورة من أحوال الموتى .

البحث الثانى : كلام القبر للميت .

البحث الثالث : عذاب القبر بين القبول والإنكار.

البحث الرابع : سؤال الملكين وضغطة القبر .

البحث الأول

صور من أحوال الموتى

روى أنس عن النبى ﷺ أنه قال : « الموت القيامة فمن مات فقد قامت قيامته »[1] .

وقال صلى الله عليه وسلم : « إذا مات أحدكم عرض عليه مقعده غدوة وعشية إن كان من أهل الجنة فمن الجنة ، وإن كان من أهل النار فمن النار ، ويقال هذا مقعدك حتى تبعث إليه يوم القيامة »[2] .

وليس يخفى ما فى مشاهدة المقعدين من عذاب ونعيم فى الحال .

وعن أبى قيس قال : كنا مع علقمة فى جنازة فقال : أما هذا فقد قامت قيامته .

وقال على كرم الله وجهه : حرام على نفس أن تخرج من الدنيا حتى تعلم من أهل الجنة أم من أهل النار ؟ .

وقال أبو هريرة : قال رسول الله ﷺ : « من مات غريباً مات شهيداً ووقى فتانات القبر وغدى وريح عليه برزقه من الجنة »[3] .

---

(١) ذكره العجلونى فى كشف الخفاء (٢٧٩/١ ، ٢٨٠) بلفظ « من مات فقد قامت قيامته » ثم قال عنه : « قال فى المقاصد : له ذكر فى : أكثروا ذكر هادم اللذات ، ورواه الديلمى عن أنس رفعه بلفظ إذا مات أحدكم فقد قامت قيامته . وللطبرانى عن المغيرة بن شعبة قال : يقولون : القيامة وإنما قيامة الرجل موته ، ومن رواية سفيان عن أبى قبيس قال : شهدت جنازة فيها علقمة فلما دفن قال : أما هذا فقد قامت قيامته ، وروى عن أنس : أكثروا ذكر الموت فإنكم إن ذكرتموه فى غنى كدره عليكم وإن ذكرتموه فى ضيق وسعة عليكم الموت القيامة إذا مات أحدكم فقد قامت قيامته يرى ماله من خير وشر .

(٢) أخرجه البخارى فى كتاب الجنائز باب الميت يعرض عليه مقعده بالغداة والعشى (٢٤٣/٣) ومسلم فى كتاب الجنة وصفة نعيمها (٢٠٠/١٧ ، ٢٠١) باب عرض مقعد الميت عليه ، وأحمد فى المسند (٥١/٢) والنسائى فى كتاب الجنائز باب وضع الجريدة على القبر (١٠٧/٤) .

(٣) أخرجه ابن ماجة فى كتاب الجنائز باب ما جاء فيمن مات غريباً (٥١٥/١) .

وقال مسروق : ما غبطت مؤمناً فى اللحد قد استراح من نصب الدنيا وأمن عذاب الله تعالى .

وقال يعلى بن الوليد : كنت أمشى يوماً مع أبى الدرداء فقلت له ما تحب لمن تحب ؟ قال : الموت ، قلت : فإن لم يمت ؟ قال : يقل ماله وولده ، وإنما أحَبّ الموت : لأنه لا يحبه إلا المؤمن ، والموت إطلاق المؤمن من السجن . وإنما أحب قلة المال والولد : لأنهم فتنة وسبب للأنس بالدنيا، والأنس بمن لابد من فراقه غاية الشقاء . فكل ما سوى الله وذكره والأنس به فلابد من فراقه عند الموت لا محالة ؛ ولهذا قال عبد الله بن عمرو : إنما مثل المؤمن حين تخرج نفسه أو روحه مثل رجل بات فى سجن فأخرج منه فهو يتفسح فى الأرض ويتقلب فيها .

وهذا الذى ذكره حال من تجافى عن الدنيا وتبرم بها ولم يكن له أنس إلا بذكر الله تعالى ، وكانت شواغل الدنيا تحبسه عن محبوبه ومقاساة الشهوات تؤذيه ؛ فكان فى الموت خلاصة من جميع المؤذيات وانفراده بمحبوبه الذى كان به أنسه من غير عائق ولا دافع .

وما أجدر ذلك بأن يكون منتهى النعيم واللذات وأكمل اللذات للشهداء الذين قتلوا فى سبيل الله ! لأنهم ما أقدموا على القتال إلا قاطعين التفاتهم عن علائق الدنيا مشتاقين إلى لقاء الله ، راضين بالقتل فى طلب مرضاته ، فإن نظر إلى الدنيا فقد باعها طوعاً بالآخرة والبائع لا يلتفت قلبه إلى المبيع ، وإن نظر إلى الآخرة فقد اشتراها وتشوّق إليها ، فما أعظم فرحه بما اشتراه إذا رآه وما أقل التفاته إلى ما باعه إذا فارقه ! وتجرّد القلب لحب الله تعالى قد يتفق فى بعض الأحوال ولكن لا يدركه الموت عليه فتيغير . والقتال سبب للموت فكان سبباً لإدراك الموت على مثل هذه الحالة . فلهذا عظم النعيم ، إذ معنى النعيم أن ينال الإنسان ما يريده قال الله تعالى: ﴿ولهم ما يشتهون ﴾[1] فكان هذا أجمع عبارة لمعانى لذات الجنة وأعظم

(١) آية ٥٧ سورة النمل ، ولعل المراد (لهم ما يشاؤن) من سور : الزمر الآية : ٣٤ ، الشورى الآية ٢٢ ، ق الآية : ٣٥ .

العذاب أن يمنع الإنسان عن مراده كما قال الله تعالى : ﴿ **وحيل بينهم وبين ما يشتهون** ﴾[1] فكان هذا أجمع عبارة لعقوبات أهل جهنم . وهذا النعيم يدركه الشهيد ـ كما انقطع نفسه ـ من غير تأخير .

وهذا أمر انكشف لأرباب القلوب بنور اليقين .

وإن أردت عليه شهادة من جهة السمع فجميع أحاديث الشهداء تدل عليه ، وكل حديث يشتمل على التعبير عن منتهى نعيمهم بعبارة أخرى .

فقد روى عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « إن الله عز وجل قد أحيا أباك وأقعده بين يديه وقال تمنّ علىّ يا عبدى ماشئت أعطيكه فقال : يا رب ما عبدتك حق عبادتك أتمنى عليك أن تردّنى إلى الدنيا فأقاتل مع نبيك فأقتل فيك مرة أخرى قال له إنه قد سبق منى أنك إليها لا ترجع » [2].

وقال كعب : يوجد رجل فى الجنة يبكى فيقال له : لم تبكى وأنت فى الجنة ؟ قال ؛ أبكى لأنى لم أقتل فى الله إلا قتلة واحدة ! فكنت أشتهى أن أردّ فأقتل فيه قتلات .

واعلم أن المؤمن ينكشف له عقيب الموت من سعة جلال الله ما تكون الدنيا بالإضافة إليه كالسجن والمضيق ، ويكون مثاله كالمحبوس فى بيت مظلم فتح له باب إلى بستان واسع الأكناف لا يبلغ طرفه أقصاه فيه أنواع الأشجار والأزهار والثمار والطيور فلا يشتهى العود إلى السجن المظلم .

وقد ضرب له رسول الله ﷺ مثلاً فقال لرجل مات : « أصبح هذا مرتحلا عن الدنيا وتركها لأهلها فإن كان قد رضِىَ فلا يسره أن يرجع إلى

---

(١) سورة سبأ الآية : ٥٤ .

(٢) أخرجه ابن ماجة فى كتاب المقدمة باب فيما أنكرت الجهمية (٦٨/١) والترمذى فى كتاب التفسير تفسير سورة آل عمران حديث رقم ٤٠٩٧ . وذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد كتاب المناقب باب ما جاء فى عبد الله بن عمرو بن حرام الأنصارى رضى الله عنه (٣١٧/٩) وقال عنه : قلت : رواه الترمذى باختصار ـ رواه الطبرانى والبزار من طريق الفيض بن وثيق عن أبى عبادة الزرقى وكلاهما ضعيف .

الدنيا كما لا يسر أحدكم أن يرجع إلى بطن أمه »[1] فعرفك بهذا أن نسبة سعة الآخرة إلى الدنيا كنسبة سعة الدنيا إلى ظلمة الرحم .

وقال صلى الله عليه وسلم : « إن مثل المؤمن فى الدنيا كمثل الجنين فى بطن أمه إذا خرج من بطنها بكى على مخرجه حتى إذا رأى الضوء ووضع لم يحب أن يرجع إلى مكانه »[2] .

وكذلك المؤمن يجزع من الموت فإذا أفضى إلى ربه لم يحب أن يرجع إلى الدنيا كما لا يحب الجنين أن يرجع إلى بطن أمه .

وقيل لرسول الله ﷺ : « إن فلاناً قد مات فقال مستريح أو مستراح منه »[3] أشار بالمستريح إلى المؤمن وبالمستراح منه إلى الفاجر إذ يستريح أهل الدنيا منه .

وقال أبو عمر صاحب السقيا : مر بنا ابن عمر ونحن صبيان إلى قبر فإذا جمجمة بادية فأمر رجلاً فواراها ثم قال : إن هذه الأبدان ليس يضرها هذا الثرى شيئاً وإنما الأرواح التى تعاقب وتثاب إلى يوم القيامة .

---

(١) ذكره صاحب إتحاف السادة المتقين فى (١٠/٣٨٤) ثم قال عنه : قال العراقى : رواه ابن أبى الدنيا من حديث عمرو بن دينار مرسلاً ورجاله ثقات أ هـ . قلت وكذا عزاه السيوطى فى شرح الصدور لابن أبى الدنيا ولفظه قال عمرو بن دينار إن رجلاً مات فقال : يا رسول الله ﷺ أصبح هذا مرتحلاً فذكره .

(٢) ذكره صاحب إتحاف السادة المتقين (١٠/٣٨٤) ثم قال عنه : قال العراقى : رواه ابن أبى الدنيا فى الموت من رواته بقية عن جابر بن غانم السلفى عن سليم بن عامر الخبائرى مرسلاً هكذا أ. هـ . قلت : بقية بن الوليد الكلاعى من رجال مسلم صدوق كثير التوليد عن الضعفاء وجابر عن غانم السُّلفى روى عن سليم بن عامر وأسد بن وداعة وعنه يحيى بن صالح الوحاظى وبقية ، وكان ينزل حماه وسليم بن عامر الكلاعى ويقال له : الخبائرى أبو يحيى الحمصى ثقة تابعى روى له مسلم والأربعة قال أبو حاتم : روى عن عوف بن مالك مرسلا ولم يدرك المقداد بن الأسود ولا عمرو بن عيسة وأرخوا وفاته سنة ١٣٠هـ ومما يقوى هذا المرسل ما رواه الحكيم فى نوادره من حديث أنس ما شبهت خروج المؤمن من الدنيا إلا مثل خروج الصبى من أمه من ذلك الغم والظلمة إلى روح الدنيا .

(٣) أخرجه البخارى فى كتاب الرقاق باب سكرات الموت (١١/٣٦٢) فتح البارى ومسلم فى كتاب الجنائز باب ما جاء فى مستريح ومستراح منه (٧/٢٠) شرح النووى ، وأحمد فى المسند (٥/٢٩٦ ، ٣٠٢ ، ٣٠٤) .

وعن عمرو بن دينار قال : ما من ميت يموت إلا وهو يعلم ما يكون في أهله بعده وإنهم لغسلونه ويكفنونه وإنه لينظر إليهم .

وقال مالك بن أنس : بلغني أن أرواح المؤمنين مرسلة تذهب حيث شاءت .

وقال النعمان بن بشير : سمعت رسول الله ﷺ على المنبر يقول : « ألا إنه لم يبق من الدنيا إلا مثل الذباب يمور في جوّها فلله الله في إخوانكم من أهل القبور فإن أعمالكم تعرض عليهم »[1] .

وقال أبو هريرة : قال النبي ﷺ : « لا تَفْضَحُوا موتاكم بسيئات أعمالكم فإنها تعرض على أوليائكم من أهل القبور »[2] .

ولذلك قال أبو الدرداء : اللهم إني أعوذ بك أن أعمل عملاً أُخْزَى به عند عبد الله بن رواحة ـ وكان قد مات وهو خاله ـ .

وسئل عبد الله بن عمرو بن العاص عن أرواح المؤمنين إذا ماتوا أين هي؟ قال : في حواصل طير بيض في ظل العرش ، وأرواح الكافرين في الأرض السابعة .

وقال أبو سعيد الخدري : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الميت يعرف من يغسله ومن يحمله ومن يدليه في قبره »[3] .

وقال صالح المري بلغني أن الأرواح تتلاقى عند الموت فتقول أرواح الموتى للروح التي تخرج إليهم : كيف كان مأواك وفي أي الجسدين كنت في طيب أو خبيث ؟

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك كتاب الرقاق باب الأنبياء أشد بلاء ثم الصالحون (٣٠٧/٤) وصححه الحاكم وقال عنه الذهبي : فيه مجهولان .

(٢) أخرجه أحمد في المسند (١٦٥/٣) ولفظه : « إن أعمالكم تعرض على أقاربكم وعشائركم من الأموات فإن كان خيراً استبشروا به ، وإن كان غير ذلك قالوا : اللهم لا تمتهم حتى تهديهم كما هديتنا . وذكره الديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب (٢٩/٥ / ٧٣٥٧) وصاحب كنز العمال في (٤٢٧٣٩/٦٨٥/١٥) .

(٣) أخرجه أحمد في المسند (٦٢/٣) وذكره صاحب إتحاف السادة المتقين (٣٩٣/١٠) .

وقال عبيد بن عمير : أهل القبور يترقبون الأخبار، فإذا أتاهم الميت قالوا: ما فعل فلان ؟ فيقول : ألم يأتكم ... أو ما قدم عليكم ؟ فيقولن : ﴿ **إنا لله وإنا إليه راجعون** ﴾ [1] سلك به غير سبيلنا .

وعن جعفر بن سعيد قال : إذا مات الرجل استقبله ولده كما يستقبل الغائب .

وقال مجاهد : إن الرجل ليبشر بصلاح ولده في قبره .

وروى أبو أيوب الأنصارى عن النبى ﷺ أنه قال : « إن نفس المؤمن إذا قبضت تلقاها أهل الرحمة من عند الله كما يتلقى البشير فى الدنيا يقولون انظروا أخاكم حتى يستريح ، فإنه كان فى كرب شديد فيسألوه : ماذا فعل فلان وماذا فعلت فلانة ؟ وهل تزوّجت فلانة فإذا سألوه عن رجل مات قبله وقال : مات قبلى قالوا : ﴿ **إنا لله وإنا إليه راجعون** ﴾ ذهب به إلى أمه الهاوية »[2] .

* * *

(١) سورة البقرة آلآية : ١٥٦ .

(٢) ذكره الهيثمى بألفاظ قريبة فى كتاب الجنائز باب فى موت المؤمن وغيره (٣٢٧/٢) وقال عنه : رواه الطبرانى فى الكبير والأوسط وفيه مسلمة بن على وهو ضعيف .

البحث الثاني

كلام القبر للميت

وكلام الموتى : إما بلسان المقال ، أو بلسان الحال ، التى هى أفصح فى تفهيم الموتى من لسان المقال فى تفهيم الأحياء .

قال رسول الله ﷺ : « يقول القبر للميت حين يوضع فيه ويحك يا ابن آدم ما غرّك بى ! ألم تعلم أنى بيت الفتنة وبيت الظلمة وبيت الوحدة وبيت الدود، ما غرّك بى إذ كنت تمرّ بى فذاذاً ؟ فإن كان مصلحاً أجاب عنه مجيب القبر ، فيقول : أرأيت إن كانَ يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر فيقول القبر : إنى إذا أتحوّل عليه خضرا ويعود جسده نوراً وتصعد روحه إلى الله تعالى »[1] . والفذاذ هو الذى يقدّم رِجلاً ويؤخر أخرى هكذا فسره الراوى .

وقال عبيد بن عمير الليثى : ليس من ميت يموت إلا نادته حفرته التى يدفن فيها : أنا بيت الظلمة والوحدة والانفراد ، فإن كنت فى حياتك لله مطيعاً كنت عليك اليوم رحمة ، وإن كنت عاصياً فأنا اليوم عليك نقمة ، أنا الذى من دخلنى مطيعاً خرج مسروراً ، ومن دخلنى عاصياً خرج مبثوراً .

وقال محمد بن صبيح : بلغنا أن الرجل إذا وضع فى قبره فعذب أو أصابه بعض ما يكره ناداه جيرانه من الموتى : أيها المتخلف فى الدنيا بعد إخوانه وجيرانه أما كان لك فينا معتبر ، أما كان لك فى متقدّمنا إياك فكرة، أما رأيت انقطاع أعمالنا عنا وأنت فى المهمة فهلا استدركت ما فات إخوانك ؟ وتناديه بقاع الأرض : أيها المغتر بظاهر الدنيا هلا اعتبرت بمن

---

(١) ذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد فى كتاب الجنائز باب خطاب القبر (٣/٤٥) وقال عنه : رواه أبو يعلى والطبرانى فى الكبير وفيه أبو بكر بن أبى مريم وفيه ضعف لاختلاطه .

غيب من أهلك في بطن الأرض ممن غرّته الدنيا قبلك ثم سبق به أجله إلى القبور وأنت تراه محمولاً ، تهاداه أحبته إلى المنزل الذى لا بدّ له منه ؟

وقال يزيد الرقاشى : بلغنى أنَّ الميت إذا وضع فى قبره احتوشته أعماله ثم أنطقها الله فقالت : أيها العبد المنفرد فى حفرته انقطع عنك الأخلاء والأهلون ، فلا أنيس لك اليوم عندنا .

وقال كعب : إذا وضع العبد الصالح فى القبر احتوشته أعماله الصالحة الصلاة والصيام والحج والجهاد والصدقة ، وقال : فتجئ ملائكة العذاب من قبل رجليه فتقول الصلاة إليكم عنه فلا سبيل لكم عليه فقد أطال بى القيام عليهما فيأتونه من قبل رأسه فيقول الصيام : لا سبيل لكم عليه فقد أطال ظمأه لله فى دار الدنيا ، فلا سبيل لكم عليه ، فيأتونه من قبل جسده فيقول الحج والجهاد : إليكم عنه فقد أنصب نفسه وأتعب بدنه وحج وجاهد لله فلا سبيل لكم عليه . قال : فيأتونه من قبل يديه فتقول الصدقة : كفوا عن صاحبى فكم من صدقة خرجت من هاتين اليدين حتى وقعت فى يد الله تعالى ابتغاء وجهه فلا سبيل لكم عليه . قال فيقال له : هنيئاً طبت ميتاً . قال وتأتيه ملائكة الرحمة فتفرش له فراشاً من الجنة ودثاراً من الجنة ويفسح له فى قبره مدَّ بصره ويؤتى بقنديل من الجنة ، فيستضئ بنوره إلى يوم يبعثه الله من قبره .

وقال عبد الله بن عبيد عن عمير فى جنازة : بلغنى أن رسول الله ﷺ قال : « إن الميت يقعد وهو يسمع خطو مشيعيه فلا يكلمه شىء إلا قبره . يقول ويحك ابن آدم أليس قد حذرت ضيقى ونتنى وهولى ودودى فماذا أعددت لى »[1] .

---

(١) ذكره صاحب الاتحاف فى (٣٩٧/١٠) ثم قال عنه قال العراقى : رواه ابن أبى الدنيا فى كتاب القبور هكذا مرسلاً ورجاله ثقات ، ورواه ابن المبارك فى الزهد إلا أنه قال عنه بلغنى ولم يرفعهـ أ هـ . وأخرجه ابن المبارك فى الزهد باب ما يبشر به الميت عند الموت وثناء الملكين عليه ص٤١ من زيادات الزهد برواية نعيم .

البحث الثالث

عذاب القبر بين التصديق والإنكار

قال البراء بن عازب : خرجنا مع رسول الله ﷺ في جنازة رجل من الأنصار فجلس رسول الله ﷺ على قبره منكساً رأسه ثم قال : « اللهم إنى أعوذ بك من عذاب القبر » ثلاثاً [1] ثم قال : « إن المؤمن إذا كان فى قبل من الآخرة بعث الله ملائكة كأن وجوههم الشمس معهم حنوطه وكفنه ، فيجلسون مدّ بصره ، فإذا خرجت روحه صلى عليه كل ملك بين السماء والأرض وكل ملك فى السماء ، وفتحت أبواب السماء ، فليس منها باب إلا يحب أن يدخل بروحه منه ، فإذا صعد بروحه قيل أى رب عبدك فلان ، فيقول ارجعوه فأروه ما أعددت له من الكرامة فإنى وعدته : ﴿ **منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى** ﴾[2] وإنه ليسمع خفق نعالهم إذا ولوا مدبرين حتى قال يا هذا من ربك؟ وما دينك ؟ ومن نبيك ؟ فيقول : ربى الله ، ودينى الإسلام ، ونبى محمد ﷺ فينتهرانه انتهاراً شديداً وهى آخر فتنة تعرض على الميت ، فإذا قال ذلك نادى مناد أن قد صدقت وهى معنى قوله تعالى ﴿ **يُثبِّتُ الله الذين آمنوا بالقول الثابت** ﴾ [3] ثم يأتيه آت حسن الوجه طيب الريح حسن الثياب فيقول : أبشر برحمة ربك وجنات فيها نعيم مقيم ، فيقول : وأنت فبشرك الله بخير من أنت ؟ فيقول : إنا عملك الصالح والله ما علمت أن كنت لسريعاً إلى طاعة الله بطيئاً عن

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب الجنائز باب التعوذ من عذاب القبر (٢٤١/٣) فتح البارى ومسلم فى كتاب المساجد باب التعوذ من عذاب القبر وعذاب جهنم (٨٧/٤) شرح النووى ، والحاكم فى كتاب الإيمان باب مجئ ملك الموت عند قبض الروح (٣٧/١) والنسائى فى كتاب الاستعاذة باب الاستعاذة من شرفتنة الغنى (٢٦٦/٨) .

(٢) سورة طـه الآية : ٥٥ .

(٣) سورة إبراهيم الآية : ٢٧ .

معصية الله فجراك الله خيراً » قال : « ثم ينادى مناد أن افرشوا له من فرش الجنة وافتحوا له باباً إلى الجنة فيفرش له من فرش الجنة ويفتح له باب إلى الجنة ، فيقول اللهمَ عجل قيام الساعة حتى أرجع إلى أهلى ومالى » .

قال : « وأمّا الكافر فإنه إذا كان فى قبل من الآخرة وانقطع من الدنيا نزلت إليه ملائكة غلاظ شداد معهم ثياب من نار وسرابيل من قطرانٍ فيحتوشونه ، فإذا خرجت نفسه لعنه كل ملك بين السماء والأرض ، وكل ملك فى السماء وغلقت أبواب السماء فليس منها باب إلا يكره أن يدخل بروحه منه ، فإذا صعد بروحه نبذ وقيل : أى رب عبدك فلان لم تقبله سماء ولا أرض ، فيقول الله عز وجل : ارجعوه فأروه ما أعددت له من الشر إنى وعدته ﴿ **منها خلقنكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى** ﴾[1] وأنه ليسمع خفق نعالهم إذا ولوا مدبرين ، حتى يقال له يا هذا من ربك ؟ ومن نبيك ؟ وما دينك ؟ فيقول : لا أدرى . فيقال : لا دريت ، ثم يأتيه آت قبيح الوجه منتن الريح قبيح الثياب فيقول : أبشر بسخط من الله وبعذاب أليم مقيم فيقول : بشرك الله بشر من أنت ؟ فيقول : أنا عملك الخبيث ، والله إن كنت لسريعاً فى معصية الله بطيئاً عن طاعة الله فجراك الله شراً فيقول وأنت فجزاك الله شراً ، ثم يقيض له أصم أعمى أبكم معه مرزبة من حديد لو اجتمع عليها الثقلان على أن يقلوها لم يستطيعوا ، لو ضرب بها جبل صار تراباً ، فيضربه بها ضربة فيصير تراباً ، ثم تعود فيه الروح فيضربه بها بين عينيه ضربة يسمعها من على الأرضين ، ليس الثقلين » . قال : « ثم ينادى مناد أن افرشوا له لوحين من نار ، وافتحوا له باباً إلى النار فيفرش له لوحان من نار ويفتح له باب إلى النار »[2] .

---

(١) سورة طـه الآية ٥٥ .

(٢) حديث البراء : خرجنا مع رسول الله ﷺ فى جنازة رجل من الأنصار فجلس رسول الله ﷺ على قبره منكساً رأسه ثم قال : « اللهم إنى أعوذ بك من عذاب القبر ... الحديث » بطوله أخرجه أبو داود والحاكم بكماله وقال صحيح على شرط الشيخين وضعفه ابن حبان وابن ماجه مختصراً .

وقال محمد بن على : ما من ميت يموت إلا مُثِّل له عند الموت أعماله الحسنة وأعماله السيئة . قال فيشخص إلى حسناته ويُطرِق عن سيئاته.

وقال أبو هريرة : قال رسول الله ﷺ : « إن المؤمن إذا احتضر أتته الملائكة بحريرة فيها مسك وضبائر الريحان فتسلّ روحه كما تسلّ الشعرة من العجين . ويقال : أيتها النفس المطمئنة اخرجى راضية ومرضياً عنك إلى روح الله وكرامته ، فإذا أخرجت روحه وضعت على ذلك المسلك والريحان وطويت عليها الحريرة وبعث بها إلى عليين . وإن الكافر إذا احتضر أتته الملائكة بمسح فيه جمرة فتنزع روحه انتزاعاً شديداً . ويقال : أيتها النفس الخبيثة اخرجى ساخطة ومسخوطا عليك إلى هوان الله وعذابه ، فإذا أخرجت روحه وضعت على تلك الجمرة ، وأن لها نشيشاً(١) ويطوى عليها المسح ويذهب بها إلى سجين »(٢) .

وعن محمد بن كعب القرظى أنه كان يقرأ قوله تعالى : ﴿ **حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون لعلى أعمل صالحاً فيما تركت** ﴾(٣) قال أى شيء تريد فى أى شيء ترغب ؟ أتريد أن ترجع لتجمع المال وتغرس الغراس وتبنى البنيان وتشقق الأنهار ؟ قال : لا ، لعلى أعمل صالحاً فيما تركت ، قال : فيقول الجبار : ﴿ **كلا إنها كلمة هو قائلها** ﴾ أى ليقولنها عند الموت .

وقال أبو هريرة : قال النبى ﷺ : « المؤمن فى قبره فى روضة خضراء ويرحب له فى قبره سبعون ذراعاً ويضىء حتى يكون كالقمر ليلة البدر ،

---

(١) النشيش : صوت الغليان .

(٢) أخرجه النسائى فى كتاب الجنائز باب ما يلقى به المؤمن من الكرامة عند خروج نفسه (٨/٤) والحاكم فى المستدرك بألفاظ قريبة فى كتاب الجنائز باب تغميض بصر الميت (٣٥٢/١ ، ٣٥٣) وقال عنه : وقد تابع هشام بن عبد الله الدستوائى معمر بن راشد فى روايته عن قتادة عن قسامة ابن زهير . وقال الذهبى تابعه هشام الدستوائى عن قتادة ، وقال همام بن يحيى عن قتادة عن أبى الجوزاء عن أبى هريرة عن النبى ﷺ بنحوه والكل صحيح .

(٣) سورة المؤمنون : الآيتان : ٩٨ ، ٩٩ .

هل تدرون فيما أنزلت ﴿ فإن له معيشة ضنكا ﴾[1] قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : « عذاب الكافر فى قبره يسلط عليه تسعة وتسعون تنينا هل تدرون ما التنين ؟ تسع وتسعون حية لكل حية سبعة رءوس يخدوشونه ويلحسونه وينفخون فى جسمه إلى يوم يبعثون »[2] .

ولا ينبغى أن يتعجب من هذا العدد على الخصوص ، فإن أعداد هذه الحيات والعقارب بعدد الأخلاق المذمومة من الكبار والرياء والحسد والغل والحقد وسائر الصفات ، فإن لها أصولاً معدودة ، ثم تتشعب منها فروع معدودة ، ثم تنقسم فروعها إلى أقسام . وتلك الصفات بأعيانها هى المهلكات وهى بأعيانها تنقلب عقارب وحيات ، فالقوى منها يلدغ لدغ التنين والضعيف يلدغ لدغ العقرب ، وما بينهما يؤذى إيذاء الحية . وأرباب القلوب والبصائر يشاهدون بنور البصيرة هذه المهلكات وانشعاب فروعها إلا أن مقدار عددها لا يوقف عليه إلا بنور النبوّة . فأمثال هذه الأخبار لها ظواهر وأسرار خفية ولكنها عند أرباب البصائر واضحة ، فمن لم تنكشف له حقائقها فلا ينبغى أن ينكر ظواهرها ، بل أقل درجات الإيمان التصديق والتسليم .

فإن قلت : فنحن نشاهد الكافر فى قبره مدّة ونراقبه ولا نشاهد شيئاً من ذلك فما وجه التصديق على خلاف المشاهدة ؟

اعلم أن لك ثلاث مقامات فى التصديق بأمثال هذا .

(**أحدها**) : وهو الأظهر والأصح والأسلم أن تصدق بأنها موجودة وهى تلدغ الميت ولكنك لا تشاهد ذلك ، فإن هذه العين لا تصلح لمشاهدة الأمور الملكوتية ، وكل ما يتعلق بالآخرة فهو من عالم الملكوت . أما ترى الصحابة رضى الله عنهم كيف كانوا يؤمنون بنزول جبريل وما كانوا

---

(١) سورة طـه الآية : ١٢٤ .

(٢) ذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد كتاب الجنائز باب فى العذاب فى القبر (٥٥/٣) وقال عنه: رواه أبو يعلى وفيه دراج وحديثه حسن واختلف فيه .

يشاهدونه ، ويؤمنون بأنه عليه السلام يشاهده ، فإن كنت لا تؤمن بهذا فتصحيح أصل الإيمان بالملائكة والوحى أهم عليك ، وإن كنت آمنت به وجوّزت أن يشاهد النبى ما لا تشاهده الأمة فكيف لا تجوّز هذا فى الميت ؟ وكما أن الملك لا يشبه الآدميين والحيوانات فالحيات والعقارب التى تلدغ فى القبر ليست من جنس حيات عالمنا ، بل هى جنس آخر وتدرك بحاسة أخرى .

(**المقام الثانى**) : أن تتذكر أمر النائم وأنه يرى فى نومه حية تلدغه وهو يتألم حتى تراه يصيح فى نومه ويعرق جبينه وقد ينزعج من مكانه ، كل ذلك يدركه من نفسه ويتأذى به كما يتأذى اليقظان ، وهو يشاهده وأنت ترى ظاهره ساكناً ولا ترى حواليه حيه ، والحية موجودة فى حقه والعذاب حاصل ولكنه فى حقك غير مشاهر . وإذا كان العذاب فى ألم اللدغ فلا فرق بين حية تتخيل أو تشاهد .

(**المقام الثالث**) : أنك تعلم أن الحية بنفسها لا تؤلم بل الذى يؤلمك منها وهو السم ، ثم السم ليس هو الألم ، بل عذابك فى الأثر الذى يحصل فيك من السم ، فلو حصل مثل ذلك الأثر من غير سم لكان العذاب قد توفر وكان لا يمكن تعريف ذلك النوع من العذاب إلا بأن يضاف إلى السبب الذى يفضى إليه فى العادة ، فإنه لو خلق فى الإنسان لذة الوقاع مثلاً من غير مباشرة صورة الوقاع لم يكن تعريفها إلا بالإضافة إليه لتكون الإضافة للتعريف بالسبب وتكون ثمرة السبب حاصلة وإن لم تحصل صورة السبب ، والسبب يراد لثمرته لا لذاته .

وهذه الصفات المهلكات تنقلب مؤذيات ومؤلمات فى النفس عند الموت فتكون آلامها كآلام لدغ الحيات من غير وجود حيات . وانقلاب الصفة مؤذية يضاهى انقلاب العشق مؤذيا عند الموت المعشوق ، فإنه كان لذيذاً فطرأت حالة صار اللذيذ بنفسه مؤلماً . حتى يرد بالقلب من أنواع العذاب

ما يتمنى معه أن لم يكن قد تنعم بالعشق والوصال ، بل هذا بعينه هو أحد أنواع عذاب الميت فإنه قد سلط العشق فى الدنيا على نفسه فصار يعشق ماله وعقاره وجاهه وولده وأقاربه ومعارفه ، ولو أخذ جميع ذلك فى حياته من لا يرجو استرجاعه منه فماذا ترى يكون حاله ؟ أليس يعظم شقاؤه ويشتده عذابه ويتمنى ويقول ليته لم يكن لى مال قط ولا جاه قط فكنت لا أتأذى بفراقه؟ فالموت عبارة عن مفارقة المحبوبات الدنيوية كلها دفعة واحدة .

ما حال من كان له واحد غيب عنه ذلك الواحد

فما حال من لا يفرح إلا بالدنيا فتؤخذ منه الدنيا وتسلم إلى أعدائه ؟ ثم ينضاف إلى هذا العذاب تحسره على ما فاته من نعيم الآخرة والحجاب عن الله عز وجل . فإن حب غير الله يحجبه عن لقاء الله والتنعيم به ، فيتوالى عليه ألم فراق جميع محبوباته وحسرته على ما فاته من نعيم الآخرة أبد الآباد وذل الردّ والحجاب عن الله تعالى ، وذلك هو العذاب الذى يعذب به إذ لا يتبع نار الفراق إلا نار جهنم كما قال تعالى : ﴿ **كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ثم إنهم لصالون الجحيم** ﴾[1] وأما من لم يأنس بالدنيا ولم يحب إلا الله وكان مشتاقاً إلى لقاء الله فقد تخلص من سجن الدنيا ومقاساة الشهوات فيها وقسم على محبوبه وانقطعت عنه العوائق والصوارف وتوفر عليه النعيم مع الأمن من الزوال أبد الآباد ولمثل ذلك فليعمل العاملون .

والمقصود أن الرجل قد يحب فرسه بحيث لو خير بين أن يؤخذ منه وبين أن تلدغه عقرب آثر الصبر على لدغ العقرب . فإذن ألم فراق الفرس عنده أعظم من لدغ العقرب ، وحبه للفرس هو الذى يلدغه إذا أخذ منه فرسه . فليستعدّ لهذه اللدغات ؛ فإن الموت يأخذ منه فرسه ومركبه وداره وعقاره وأهله وولده وأحبابه ومعارفه ، ويأخذ منه جاهه وقبوله ، بل يأخذ منه

---

(١) سورة المطففين : الايتان : ١٥ ، ١٦ .

سمعه وبصره وأعضاءه وييأس من رجوع جميع ذلك إليه ، فإذا لم يحب سواه وقد أخذ جميع ذلك منه فذلك أعظم عليه من العقارب والحيات ، وكما لو أخذ ذلك منه وهو حى فيعظم عقابه فكذلك إذا مات ، لأنا قد بينا أن المعنى الذى هو المدرك للآلام واللذات لم يمت ، بل عذابه بعد الموت أشدّ ، لأنه فى الحياة يتسلى بأسباب يشغل بها حواسه من مجالسة ومحادثة ويتسلى برجاء العود إليه ويتسلى برجاء العوض منه ولا سلوة بعد الموت ، إذ قد انسدّ عليه طرق التسلى وحصل اليأس . فإذن كل قميص له ، ومنديل قد أحبه ، بحيث كان يشق عليه لو أخذ منه فإنه يبقى متأسفا عليه ومعذبا منه ، فإن كان مخفا فى الدنيا سلم وهو المعنى بقولهم : نجا المخفون، وإن كان مثقلا عظم عذابه . وكما أن حال من يسرق منه دينار أخف من حال من يسرق منه عشرة دنانير فكذلك حال صاحب الدرهم أخف من حال صاحب الدرهمين وهو المعنىّ بقوله صلى الله عليه وسلم : « صاحب الدرهم أخف حساباً من صاحب الدرهمين »[1] وما من شىء من الدنيا يتخلف عنك عند الموت إلا وهو حسرة عليك بعد الموت، فإن شئت فاستكثر وإن شئت فاستقلل ، فإن استكثرت فلست بمستكثر إلا من الحسرة، وإن استقللت فلست تخفف إلا عن ظهرك .

وإنما تكثر الحيات والعقارب فى قبور الأغنياء الذين استحبوا الدنيا على الآخرة وفرحوا بها واطمأنوا إليها .

فهذه مقامات الإيمان فى حيات القبر وعقاربه وفى سائر أنواع عذابه .

رأى أبو سعيد الخدرى ابناً له قد مات فى المنام فقال له : يا بنىّ

(١) ذكره صاحب الاتحاف فى (١٠/٤٠٧) ثم قال عنه : قال العراقى : لم أجد له أصلاً . قلت بل رواه الحاكم فى تاريخه من حديث أبى هريرة بلفظ ذو الدرهمين أشد حساباً من ذى الدينار وقد روى نحو ذلك من قول أبى ذر قال أحمد فى الزهد حدثنا يحيى بن سعيد عن سفيان حدثنى سليمان عن إبراهيم التميمى عن أبيه عن أبى ذر قال : ذو الدرهمين أشد حساباً من ذى درهم واحد، ورواه أبو نعيم فى الحلية من هذا الوجه . وانظر الزهد للإمام أحمد بن حنبل (٢/٧٩ ، ١٨٤) ، وحلية الأولياء (١/١٦٤) .

عظنى، قال : لا تخالف الله تعالى فيما يرى ، قال : يا بنىّ زدنى ، قال : يا أبت لا تطيق ! قال : قل ، قال لا تجعل بينك وبين الله قميصاً . فما لبس قميصاً ثلاثين سنة .

فإن قلت : فما الصحيح من هذه المقامات الثلاثة ؟

فاعلم أن فى الناس من لم يثبت إلا الأوّل وأنكر ما بعده . ومنهم من أنكر الأوّل وأثبت الثانى . ومنهم من لم يثبت إلا الثالث . وإنما الحق الذى انكشف لنا بطريق الاستبصار أن كل ذلك فى حيز الإمكان . وأن من ينكر بعض ذلك فهو لضيق حوصلته وجهله باتساع قدرة الله سبحانه وعجائب تدبيره ، فينكر من أفعال الله تعالى ما لم يأنس به ويألفه وذلك جهل قصور . بل هذه الطرق الثلاثة فى التعذيب ممكنة والتصديق بها واجب . وربّ عبد يعاقب بنوع واحد من هذه الأنواع ، وربّ عبد تجمع عليه هذه الأنواع الثلاثة ، نعوذ بالله من عذاب الله قليله وكثيره .

هذا هو الحق فصدّق به تقليداً فيعز على بسيط الأرض من يعرف ذلك تحقيقاً ، والذى أوصيك به أن لا تكثر نظرك فى تفصيل ذلك ولا تشتغل بمعرفته ، بل اشتغل بالتدبير فى دفع العذاب كيما كان . فإن أهملت العمل والعبادة واشتغلت بالبحث عن ذلك ، كنت كمن أخذه سلطان وحبسه ليقطع يده ويجدع أنفه ، فأخذ طول الليل يتفكر فى أنه هل يقطعه بسكين أو بسيف أو بموسى ؟ وأهمل طريق الحيلة فى دفع أصل العذاب عن نفسه وهذا غاية الجهل ، فقد علم على القطع أن العبد لا يخلو بعد الموت من عذاب عظيم أو نعيم مقيم فينبغى أن يكون الاستعداد له . فأما البحث عن تفصيل العقاب والثواب ففضول وتضييع زمان .

* * *

البحث الرابع

سؤال منكر ونكير وضغطة القبر

قال أبو هريرة : قال النبى ﷺ : « إذا مات العبد أتاه ملكان أسودان أزرقان يقال لأحدهما منكر وللآخر نكير ، فيقولان له ما كنت تقول فى النبى ، فإن كان مؤمناً قال : هو عبد الله ورسوله ، أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فيقولان إن كنا لنعلم أنك تقول ذلك . ثم يفسح له فى قبره سبعون ذراعاً فى سبعين ذراعاً وينورّ له فى قبره . ثم يقال له نَمْ فيقول دعونى أرجع إلى أهلى فأخبرهم ، فيقال له نم فينام كنومة العروس الذى لا يوقظه إلا أحب أهله إليه حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك . وإن كان منافقاً قال للأرض التئمى عليه فتلتئم عليه حتى تختلف فيها أضلاعه فلا يزال معذباً حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك »[1] .

وعن عطاء بن يسار قال : قال رسول الله ﷺ لعمر بن الخطاب رضى الله عنه : « يا عمر كيف بك إذا أنت مت فانطلق بك قومك فقاسوا لك ثلاثة أذرع فى ذراع وشبر ، ثم رجعوا إليك فغسلوك وكفنوك وحنطوك، ثم احتملوك حتى يضعوك فيه ، ثم يهيلوا عليك التراب ويدفنوك ، فإذا انصرفوا عنك أتاك فتَّانَا القبر منكر ونكير أصواتهما كالرعد القاصف وأبصارهما كالبرق الخاطف يجرّان أشعارهما ويبحثان القبر بأنيابهما فَتَلْتَلاكَ وتَرْتَرَاكَ ، كيف بك عند ذلك يا عمر ؟ » . فقال عمر : ويكون معى مثل عقلى الآن ؟ قال « نعم » قال : « إذن أكفيكهما »[2] .

---

(١) أخرجه الترمذى بلفظ قريب فى كتاب الجنائز باب ما جاء فى عذاب القبر حديث رقم ١٠٧٧ وقال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب . وذكره صاحب الإتحاف (٤١٣/١٠) .

(٢) ذكره صاحب إتحاف السادة المتقين فى (٤١٤/١٠) ثم قال عنه : قال العراقى : رواه ابن أبى الدنيا فى كتاب القبور هكذا مرسلاً ورجاله ثقات ، قال البيهقى فى الاعتقاد ورويناه من وجه =

وهذا نص صريح في أن العقل لا يتغير بالموت إنما يتغير البدن والأعضاء . فيكون الميت عاقلاً مدركاً عالماً بالآلام واللذات كما كان ، لا يتغير من عقله شيء . وليس العقل المدرك هذه الأعضاء ، بل هو شيء باطن ليس له طول ولا عرض ، بل الذى لا ينقسم فى نفسه هو المدرك للأشياء . ولو تناثرت أعضاء الإنسان كلها ولم يبق إلا الجزء المدرك الذى لا يتجزأ ولا ينقسم لكان الإنسان العاقل بكماله قائماً باقياً وهو كذلك بعد الموت ، فإن ذلك الجزء لا يحله الموت ولا يطرأ عليه العدم .

وقال محمد بن المنكدر : « بلغنى أنّ الكافر يسلط عليه فى قبره دابة عمياء صماء فى يدها سوط من حديد فى رأسه مثل غرب الجمل تضربه به إلى يوم القيامة » لا تراه فتتقيه ولا تسمع صوته فترحمه .

وقال أبو هريرة : إذا وضع الميت فى قبره جاءت أعماله الصالحة فاحتوشته ، فإن أتاه من قبل رأسه جاء قراءته القرآن . وإن أتاه من قبل رجليه جاء قيامه ، وإن أتاه من قبل يده قالت اليدان : والله لقد كان يبسطنى للصدقة والدعاء لا سبيل لكم عليه ، وإن جاء من قبل فيه جاء ذكره وصيامه ، وكذلك تقف الصلاة والصبر ناحية فيقول أما إنى لو رأيت خللاً لكنت أنا صاحبه .

قال سفيان : تجاحش عنه أعماله الصالحة كما يجاحش الرجل عن أخيه وأهله وولده ، ثم يقال له عند ذلك : بارك الله لك فى مضجعك فنعم الأخلاء أخلاؤك ونعم الأصحاب أصحابك .

وعن حذيفة قال : كنا مع رسول الله ﷺ فى جنازة فجلس على

= صحيح عن عطاء بن يسار مرسلاً . قلت : وصله ابن بطة فى الإبابة من حديث ابن عباس ورواه البيهقى فى الاعتقاد من حديث عمر . وقال غريب بهذا الإسناد تفرد به مفضل ولأحمد وابن حبان من حديث عبد الله بن عمرو فقال عمر أترد إلينا عقولنا فقال : نعم كهيئتكم اليوم فقال عمر بفية الحجر أ هـ . ثم قال : قلت هذا المرسل رواه كذا أبو نعيم فى الحلية والأخرى فى الشريعة والبيهقى فى عذاب القبر .

رأس القبر ثم جعل ينظر فيه ثم قال : « يضغط المؤمن فى هذا ضغطة تردّ حمائله »[1] .

وقالت عائشة رضى الله عنها : قال رسول الله ﷺ : « إنّ للقبر ضغطة ولو سلم أو نجا منها أحد لنجا سعد بن معاذ »[2] .

وعن أنس قال : توفيت زينب بنت رسول الله ﷺ وكانت امرأة مسقامة ، فتبعها رسول الله ﷺ فساءنا حاله ، فلما انتهينا إلى القبر فدخله انتقع وجهه صفرة ، فلما خرج أسفر وجهه ، فقلنا : يا رسول الله رأينا منك شأناً فمم ذلك ؟ قال : « ذكرت ضغطة ابنتى وشدّة عذاب القبر ، فأتيت فأخبرت أن الله قد خفف عنها وقد ضغطت ضغطة سمع صوتها ما بين الخافقين »[3].

* * *

---

(١) أخرجه أحمد فى المسند (٤٠٧/٥) وذكره الهيثمى فى كتاب الجنائز باب فى ضغطة القبر (٤٦/٣) وقال عنه : رواه أحمد وفيه محمد بن جابر وهو ضعيف . وذكره ابن الجوزى فى الموضوعات كتاب القبور باب ضمة القبر (٢٣١/٣) وقال عنه : هذا الحديث لا يصح . قال يحيى : محمد بن جابر ليس بشىء وقال أحمد : لا يحدث عنه إلا من هو شر منه .

(٢) أخرجه أحمد فى المسند (٥٥/٦ ، ٩٨) وذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد (٤٩/٣) ثم قال : رواه أحمد عن نافع عن عائشة وعن نافع عن إنسان عن عائشة وكلا الطريقين رجالهما رجال الصحيح .

(٣) ذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد (٥٠/٣) ثم قال : رواه الطبرانى فى الكبير والأوسط وإسناده ضعيف .

الفصل الثالث :

أحـــــوال الموتى

وفيه :

البحث الأول : معرفة أحوال الموتى بالمكاشفة فى المنام .

البحث الثانى : منامات تكشف عن أحوال الموتى.

البحث الثالث : بيان منامات المشايخ رحمة الله عليهم .

البحث الأول

معرفة أحوال الموتى بالمكاشفة فى المنام

اعلم أن أنوار البصائر ـ المستفادة من كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ ومن مناهج الاعتبار ـ تعرفنا أحوال الموتى على الجملة وانقسامهم إلى سعداء وأشقياء . ولكن حال زيد وعمرو بعينه فلا ينشكف أصلاً ، فإنا إن عوّلنا على إيمان زيد وعمرو فلا ندرى على ماذا مات وكيف ختم له ؟ وإن عوّلنا على صلاحه الظاهر فالتقوى محله القلب وهو غامض يخفى على صاحب التقوى فكيف على غيره ؟ فلا حكم لظاهر الصلاح دون التقوى الباطن قال الله تعالى : ﴿**إنما يتقبل الله من المتقين**﴾[1] فلا يمكن معرفة حكم زيد وعمرو إلا بمشاهدته ومشاهدة ما يجرى عليه ، وإذا مات فقد تحوّل من عالم الملك والشهادة إلى عالم الغيب والملكوت فلا يرى بالعين الظاهرة ، وإنما يرى بعين أخرى خلفت تلك العين فى قلب كل إنسان ولكن الإنسان جعل عليها غشاوة كثيفة من شهواته وأشغاله الدنيوية فصار لا يبصر بها ولا يتصوّر أن يبصر بها شيئاً من عالم الملكوت ما لم تنقشع تلك الغشاوة عن عين قلبه .

ولما كانت الغشاوة منقشعة عن أعين الأنبياء عليهم السلام فلا جرم نظروا إلى الملكوت وشاهدوا عجائبه ، والموتى فى عالم الملكوت فشاهدوهم وأخبروا . ولذلك رأى رسول الله ﷺ ضغطة القبر فى حق سعد بن معاذ وفى حق زينب ابنته ، وكذلك حال أبى جابر لما استشهد إذ أخبره أن الله أقعده بين يديه ليس بينهما ستر . ومثل هذه المشاهدة لا مطمع فيها لغير الأنبياء والأولياء الذين تقرب درجتهم منهم .

---

(١) سورة المائدة الآية : ٢٧ .

إنما الممكن من أمثالنا مشاهدة أخرى ضعيفة إلا أنها أيضاً مشاهدة نبوية وأعنى بها المشاهدة فى المنام وهى من أنوار النبوّة . قال رسول الله ﷺ : « الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة »[1] وهو أيضاً انكشاف لا يحصل إلا بانقشاع الغشاوة عن القلب ، فلذلك لا يوثق إلا برؤيا الرجل الصالح الصادق ومن كثر كذبه لم تصدّق رؤياه ، ومن كثر فساده ومعاصيه أظلم قلبه فكان ما يراه أضغاث أحلام ، ولذلك أمر رسول الله ﷺ بالطهارة عند النوم لينام طاهراً[2] وهو إشارة إلى طهارة الباطن أيضاً فهو الأصل وطهارة الظاهر بمنزلة التتمة والتكملة لها . ومهما صفا الباطن انكشف فى حدقة القلب ما سيكون فى المستقبل ، كما انكشف دخول مكة لرسول الله ﷺ فى النوم[3] حتى نزل قول تعالى : ﴿ **لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق** ﴾[4] وقلما يخلو الإنسان عن منامات دلت على أمور فوجدها صحيحة ، والرؤيا ومعرفة الغيب فى النوم من عجائب صنع الله تعالى وبدائع فطرة الآدمى وهو من أوضح الأدلة على عالم الملكوت ، والخلق غافلون عنه كغفلتهم عن سائر عجائب القلب وعجائب العالم والقول فى حقيقة الرؤيا من دقائق علوم المكاشفة فلا يمكن ذكره علاوة على علم المعاملة .

(١) أخرجه البخارى فى كتاب التعبير باب رؤيا الصالحين (٣٦١/١٢) فتح البارى ومسلم فى كتاب الرؤيا (٢٠/١٥ ، ٢١) شرح النووى .

(٢) أخرجه البخارى فى كتاب الوضوء باب فضل من فضل من مات على الوضوء (٣٥٧/١) ، ومسلم فى كتاب الذكر والدعاء باب ما يقول عند النوم حديث رقم ٢٧١٠ ، وأبو داود فى كتاب الأدب باب ما يقول عند النوم (٢٩٩/٥) .

(٣) ذكره صاحب الإتحاف فى (٤٢٥/١٠) ثم قال عنه : قال العراقى : رواه ابن أبى حاتم فى تفسيره مرسلاً من رواية مجاهد أ هـ . ثم قال أيضاً : قلت : ولفظه : رأى رسول الله ﷺ وهو بالحديبية أنه يدخل مكة هو وأصحابه آمنين محلقين رؤسهم ومقصرين فلما نحر الهدى بالحديبية قال له أصحابه : أين رؤياك يا رسول الله ؟ فأنزل الله تعالى : ﴿ **لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق** ﴾ إلى قوله: ﴿ **فجعل من دون ذلك فتحا قريبا** ﴾ فرجعوا ففتحوا خيبر ثم اعتمر بعد ذلك فكان تصديق رؤياه فى السنة المقبلة .

وهكذا رواه أيضاً الغريابى وعبد بن حميد وابن جرير والبيهقى فى الدلائل .

(٤) سورة الفتح الآية : ٢٧ .

ولكن القدر الذى يمكن ذكره هنا مثال يفهمك المقصود ؛ وهو أن تعلم أنَّ القلب مثاله مثال مرآة تتراءى فيها الصور وحقائق الأمور ، وأنّ كل ما قدّره الله تعالى من ابتداء خلق العالم إلى آخره مسطور ومثبت فى خلق خلقه الله تعالى يعبر عنه تارة باللوح ، وتارة بالكتاب المبين ، وتارة بإمام مبين؛ كما ورد فى القرآن فجميع ما جرى فى العالم وما سيجرى مكتوب فيه ومنقوش عليه نقشاً لا يشاهد بهذه العين ، ولا تظنن أنّ ذلك اللوح من خشب أو حديد أو عظم ، وأنّ الكتاب من كاغد أورق ، بل ينبغى أن تفهم قطعاً أن لوح الله لا يشبه لوح الخلق ، وكتاب الله لا يشبه كتاب الخلق ، كما أن ذاته وصفاته لا تشبه ذات الخلق وصفاتهم ، بل إن كنت تطلب له مثالاً يقرّبه إلى فهمك فاعلم أنّ ثبوت المقادير فى اللوح يضاهى ثبوت كلمات القرآن وحروفه فى دماغ حافظ القرآن وقلبه ، فإنه مسطور فيه حتى كأنه حين يقرؤه ينظر إليه ، ولو فتشت دماغه جزءاً جزءاً لم تشاهد من ذلك الخط حرفاً . وإن كان ليس هناك خط يشاهد ولا حرف ينظر فمن هذا النمط ينبغى أن تفهم كون اللوح منقوشاً بجميع ما قدّره الله تعالى وقضاه . واللوح فى المثال كمرآة ظهر فيها الصور ، فلو وضع فى مقابلة المرآة مرآة أخرى لكانت صورة تلك المرآة تتراءى فى هذه إلا أن يكون بينهما حجاب . فالقلب مرآة تقبل رسوم العلم ، واللوح مرآة رسوم العلم كلها موجودة فيها، واشتغال القلب بشهواته ومقتضى حواسه حجاب مرسل بينه وبين مطالعة اللوح الذى هو من عالم الملكوت ، فإن هبت ريح حرّكت هذا الحجاب ورفعته تلألأ فى مرآة القلب شىء من عالم الملكوت كالبرق الخاطف ، وقد يثبت ويدوم ، وقد لا يدوم وهو الغالب . وما دام متيقظاً فهو مشغول بما تورده الحواس عليه من عالم الملك والشهادة ، وهو حجاب عن عالم الملكوت .

ومعنى النوم أن تركد الحواس عليه فلا تورده على القلب ، فإذا تخلص منه ومن الخيال وكان صافياً فى جوهره ارتفع الحجاب بينه وبين اللوح

المحفوظ ، فوقع فى قلبه شيء مما فى اللوح كما تقع الصورة من مرآة فى مرآة أخرى إذا ارتفع الحجاب بينهما ، إلا أنّ النوم مانع سائر الحواس عن العمل وليس مانعاً للخيال عن عمله وعن تحركه ، فما يقع فى القلب يبتدره الخيال فيحاكيه بمثال يقربه ، وتكون المتخيلات أثبت فى الحفظ من غيرها فيبقى الخيال فى الحفظ ، فإذا انتبه لم يتذكر إلا الخيال ، فيحتاج المعبر أن ينظر إلى هذا الخيال ، حكاية أى معنى من المعانى فيرجع إلى المعانى بالمناسبة التى بين المتخيل والمعانى بالمناسبة التى بين المتخيل والمعانى .

وأمثلة ذلك ظاهرة عند من نظر فى علم التعبير .

ويكفيك مثال واحد هو أن رجلاً قال لابن سيرين : رأيت كأن بيدى خاتماً أختم به أفواه الرجال وفروج النساء . فقال : أنت مؤذن تؤذن قبل الصبح فى رمضان ، قال : صدقت ! فانظر أن روح الختم هو المنع ولأجله يراد الختم . وإنما ينكشف للقلب حال الشخص من اللوح المحفوظ كما هو عليه ، وهو كونه مانعاً للناس من الأكل والشرب ، ولكن الخيال ألف المنع عند الختم بالخاتم فتمثله بالصورة الخيالية التى تتضمن روح المعنى ولا يبقى فى الحفظ إلا الصورة الخيالية .

فهذه نبذة يسيرة من بحر علم الرؤيا الذى لا تنحصر عجائبه ! وكيف لا وهو أخو الموت ، وإنما الموت هو عجب من العجائب وهذا لأنه يشبهه من وجه ضعيف أثر فى كشف الغطاء عن عالم الغيب ، حتى صار النائم يعرف ما سيكون فى المستقبل فماذا ترى الموت الذى يخرق الحجاب ويكشف الغطاء بالكلية : حتى يرى الإنسان عند انقطاع النفس من غير تأخير نفسه إما محفوفة بالأنكال والمخازى والفضائح ـ نعوذ بالله من ذلك ـ وإما مكتوفاً بنعيم مقيم وملك كبير لا آخر له ، وعند هذا يقال للأشقياء وقد انكشف الغطاء ﴿ **لقد كنت فى غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد** ﴾[1] ويقال : ﴿ **أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون اصلوها فاصبروا أو**

(١) سورة ق الآية : ٢٢ .

لا تصبروا سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعملون ﴾[1] وإليهم الإشارة بقوله تعالى : ﴿ **وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون** ﴾[2] .

فأعلم العلماء وأحكم الحكماء ينكشف له عقيب الموت من العجائب والآيات ما لم يخطر قط بباله ولا اختلج به ضميره ، فلو لم يكن للعاقل هم وغم إلا الفكرة فى خطر تلك الحال أن الحجاب عماذا يرتفع وما الذى ينكشف عنه الغطاء من شقاوة لازمة أم سعادة دائمة ؟ لكان ذلك كافياً فى استغراق جميع العمر .

والعجب من غفلتنا وهذه العظائم بين أيدينا !

وأعجب من ذلك فرحنا بأموالنا وأهلينا وبأسبابنا وذريتنا ، بل بأعضائنا وبصرنا ! مع أنا نعلم مفارقة جميع ذلك يقيناً ، ولكن أين من ينفث روح القدس فى روعه فيقول ما قال لسيد النبيين : « أحبب من أحببت فإنك مفارقه ، وعش ما شئت فإنك ميت، واعمل ما شئت فإنك مجزى به »[3] فلا جرم لما كان ذلك مكشوفاً له بعين اليقين كان فى الدنيا كعابر سبيل لم يضع لبنة على لبنة ولا قصبة على قصة ولم يخلف ديناراً ولا ردهما ولم يتخذ حبيباً ولا خليلاً نعم قال : « لو كنت متخذاً خليلاً لا تخذت أبا بكر خليلاً ولكن صاحبكم خليل الرحمن »[4] فبين أن خلة الرحمن

(١) سورة الطور الآيتان : ١٥ ، ١٦ .

(٢) سورة الزمر الاية : ٤٧ .

(٣) ذكره ابن الجوزى فى الموضوعات (١٠٨/٢) بألفاظ قريبة ثم قال عنه : هذا حديث لا يصح عن رسول الله ﷺ فأما طريق أبو هريرة فالمتهم به داود . قال العقيلى : لا أصل لهذا الحديث مسنداً ، وإنما يروى عن الحسن وغيره من قولهم ، وداود كان يحدث عن الأوزاعى وغيره بالبواطيل . وأما طريق سهل فإن محمد بن حميد قد كذبه أبو زرعة وابن داود ، وقال ابن حبان : ينفرد عن الثقات المقلوبات . قال ابن عدى : وزافر بن سليمان لا يتابع على عامة ما يرويه .

(٤) أخرجه مسلم فى كتاب فضائل الصحابة باب أبى بكر الصديث وفيه ولكن صاحبكم خليل الله ، وفى كتاب المساجد باب النهى عن بناء المساجد على القبور واتخاذ الصور فيها والنهى عن اتخاذ القبور مساجد . والبخارى فى كتاب فضائل أصحاب النبى ﷺ باب قول النبى ﷺ لو كنت متخذاً خليلاً . وفيه : « لو كنت متخذاً من أمتى خليلاً لاتخذت أبا بكر ولكن أخى وصاحبى » . وأحمد فى المسند (٣٧٧/١ ، ٤٣٣ ، ٤٣٧ ، ٤٣٩ ، ٤٦٣ ، ٤٠٩ ، ١٨/٣) .

تخللت باطن قلبه وأن حبه تمكن من حبة قلبه فلم يترك فيه متسعاً لخليل ولا حبيب ! وقد قال لأمته : ﴿ **إن كنتم تحبـــون الله فاتبعـونى يحببكم الله** ﴾[1] فإنما أمته من اتبعه ، وما اتبعه إلا من أعرض عن الدنيا وأقبل على الآخـرة ، فإنه مـا دعـا إلا إلى الله واليـوم الآخـر ومـا صـرف إلا عن الدنيـا والحظوظ العاجلة .

فبقدر ما أعرضت عن الدنيا وأقبلت على الآخرة ، فقد سلكت سبيله الذى سلكه وبقدر ما سلكت سبيله فقد اتبعته .

وبقدر ما اتبعته فقد صرت من أمته .

وبقـدر مـا أقبلت على الدنيـا عدلت عن سبيله ورغبت عن متـابعتـه والتحقت بالذين قال الله تعالى فيـهم : ﴿ **فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا فـإن الجـحـيم هى المأوى** ﴾[2] فلو خـرجت من مكمـن الغـرور وأنصـفـت نفـسك يا رجل ـ كلنا ذلك الرجل ـ لعلمت أنك من حين تصـبح إلى حين تمسى لا تسعى إلا فى الحظوظ العاجلة ، ولا تتحرك ولا تسكن إلا لعاجل الدنيا ثم تطمع أن تكون غداً من أمته وأتباعه ! وما أبعد ظنك وما أبرد طمعك ﴿ **أفنجعل المسلمين كالمجرمين ما لكم كيف تحكمون** ﴾[3] .

ولنرجع إلى مـا كنا فيـه وبصـدده فـقـد امـتـدّ عنان الكلام إلى غـيـر مقصده.

ولنذكر الآن من المنامات الكاشفة لأحوال الموتى ما يعظم الانتفـاع به إذ ذهبت النبوّة وبقيت المبشرات وليس ذلك إلا المنامات .

* * *

---

(١) سورة آل عمران الآية : ٣١ .

(١) سورة النازعات الآيات : ٣٧ ـ ٣٩ .

(٣) سورة القلم الآيتان : ٣٥ ، ٣٦ .

البحث الثاني

بيان منامات تكشف عن أحوال الموتى والأعمال النافعة فى الآخرة

فمن ذلك رؤيا الرسول ﷺ وقد قال عليه السلام : « من رآنى فى المنام فقد رآنى حقاً فإن الشيطان لا يتمثل بى »[1] .

وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : رأيت رسول الله ﷺ فى المنام فرأيته لا ينظر إلىّ فقلت : يا رسول الله ما شأنى ! فالتفت إلىّ وقال : « ألست الْمُقَبِّلُ وأنت صائم ؟» قال : والذى نفسى بيده لا أقبل امرأة وأنا صائم أبداً .

وقال العباس رضى الله عنه : كنت ودّا لعمر فاشتهيت أن أراه فى المنام ، فما رأيته إلا عند رأس الحول فرأيته يمسح العرق عن جبينه وهو يقول : هذا أوان فراغى أن كان عرشى ليهدّ لولا أنى لقيته رءوفاً رحيماً .

وقال الحسن بن على : قال لى على رضى الله عنه ؛ إنّ رسول الله ﷺ سنح لى الليلة فى منامى فقلت : يا رسول الله ما لقيت من أمتك ؟ قال : ادع عليهم ، فقلت : اللهم أبدلنى بهم من هو خير لى منهم وأبدلهم بى من هو شر لهم منى ! فخرج فضربه ابن ملجم .

وقال بعض الشيوخ رأيت رسول الله ﷺ فقلت : يا رسول الله

---

(١) أخرجه الإمام مسلم فى كتاب الرؤيا رقمى ١٧٧٥ ، ١٧٧٦ ، وأحمد فى (٣/٣٥٠) وذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد كتاب التعبير (١٧٣/٧) ثم قال عنه : قلت : هو فى الصحيح غير قوله سبعين جزءاً ـ رواه أحمد وفيه كليب بن شهيب وهو ثقة وفيه كلام لا يضر وباب رؤية النبى ﷺ فى النوم ١٨١/٧ وقال عنه بعد زيادة (ولا بالكعبة) رواه الطبرانى فى الصغير والأوسط وفيه محمد ابن أبى السر وثقه ابن معين وغيره وفيه لين ، وبقية رجاله رجال الصحيح .

استغفر لى ، فأعرض عنى فقلت : يا رسول الله إن سفيان بن عيينة حدّثنا عن محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله : أنك لم تسأل شيئاً قط فقلت : لا، فأقبل علىّ فقال : غفر الله لك » (١).

وروى عن العباس بن عبد المطلب قال : كنت مواخياً لأبى لهب مصاحباً له ، فما مات وأخبر الله عنه بما أخبر حزنت عليه وأهمنى أمره فسألت الله تعالى حولا أن يرينى إياه فى المنام قال : فرأيته يلتهب ناراً فسألته عن حاله فقال : صرت إلى النار فى العذاب لا يخفف عنى ولا يروّح إلا ليلة الاثنين فى كل الأيام والليالى ! قلت : وكيف ذلك ؟ قال : ولد فى تلك الليلة محمد ﷺ فجاءتنى أميمة فبشرتنى بولادة آمنة إياه ففرحت به وأعتقت وليدة لى فرحاً به ، فأثابنى الله بذلك أن رفع عنى العذاب فى كل ليلة اثنين .

وقال عبد الواحد بن زيد : خرجت حاجاً فصحبنى رجل كان لا يقوم ولا يقعد ولا يتحرك ولا يسكن إلا صلى على النبى ﷺ ، فسألته عن ذلك فقال : أخبرك عن ذلك ؛ فخرجت أول مرة إلى مكة ومعى أبى ، فلما انصرفنا نمت فى بعض المنازل ؛ فبينا أنا نائم إذ أتانى آت فقال لى قم فقد أمات الله أباك وسود وجهه ! قال : فقمت مذعوراً فكشفت الثوب عن وجهه فإذا هو ميت أسود الوجه ، فداخلنى من ذلك رعب ، فبينا أنا فى ذلك الغم إذ غلبتنى عينى فنمت فإذا على رأس أبى أربعة سودان معهم أعمدة حديد إذ أقبل رجل حسن الوجه بين ثوبين أخضرين فقال لهم : تنحوا ، فمسح وجهه بيده ثم أتانى فقال : قم فقد بيض الله وجه أبيك ! فقلت له : من أنت بأبى أنت وأمى ؟ أنا محمد ، قال : فقمت فكشفت الثوب عن وجه أبى فإذا هو أبيض ! فما تركت الصلاة بعد ذلك على رسول الله ﷺ .

---

(١) أخرجه ابن أبى شيبة فى مصنفه (١١٨٥٩/٥١٥/١١) من طريق هوذة وابن سعد فى الطبقات (٢٣/٢/١) من طريق سفيان ابن عيينة .

وعن عمر بن عبد العزيز قال : رأيت رسول الله ﷺ - وأبو بكر وعمر رضى الله عنهما جالسان عنده - فسلمت وجلست ، فبينما أنا جالس إذ أتى بعلى ومعاوية فأدخلا بيتاً وأجيف عليهما الباب وأنا أنظر ، فما كان بأسرع من أن خرج على رضى الله عنه وهو يقول : قضى لى ورب الكعبة ، وما كان بأسرع من أن خرج معاوية على أثره وهو يقول : غفر لى ورب الكعبة .

واستيقظ ابن عباس رضى الله عنهما مرة من يومه فاسترجع وقال : قتل الحسين والله ! - وكان ذلك قبل قتله - فأنكره أصحابه فقال رأيت رسول الله ﷺ ومعه زجاجة من دم فقال : ألا تعلم ما صنعت أمتى بعدى ؟ فقتلوا بنى الحسين وهذا دمه ودم أصحابه أرفعها إلى الله تعالى . فجاء الخبر بعد أربعة وعشرين يوماً بقتله فى اليوم الذى رآه .

ورؤى الصديق رضى الله عنه فقيل له : إنك كنت تقول أبداً فى لسانك: هذا أوردنى الموارد ، فماذا فعل الله بك ؟ قال : قلت به لا إله إلا الله فأوردنى الجنة .

* * *

البحث الثالث

بيان منامات المشايخ رحمة الله عليهم أجمعين

قال بعض المشايخ : رأيت متمما الدورقى فى المنام فقلت : يا سيدى ما فعل الله بك ؟ فقال : دير بى فى الجنان فقيل لى : يا متمم هل استحسنت فيها شيئاً ؟ قلت : لا يا سيدى ، فقال : لو استحسنت منها شيئاً لو كلتك إليه ولم أوصلك إلىّ .

ورؤى يوسف بن الحسين فى المنام فقيل له : ما فعل الله بك ؟ قال : غفر لى ؛ قيل : بماذا ؟ قال : ما خلطت جدا بهزل .

وعن منصور بن إسماعيل قال : رأيت عبد الله البزار فى النوم فقلت : ما فعل الله بك ؟ قال : أوقفنى بين يديه فغفر لى كل ذنب أقررت به إلا ذنباً واحداً فإنى استحييت أن أقرّ به ، فأوقفنى فى العرق حتى سقط لحم وجهى فقلت : ما كان ذلك الذنب ؟ قال : نظرت إلى غلام جميل فاستحسنته فاستحييت من الله أن أذكره .

وقال أبو جعفر الصيدلانى : رأيت رسول الله ﷺ فى النوم وحوله جماعة من الفقراء ، فبينما نحن كذلك إذا انشقت السماء فنزل ملكان أحدهما : بيده طشت ، وبيد الآخر : إبريق فوضع الطشت بين يدى رسول الله ﷺ فغسل يده ثم أمر حتى غسلوا ، ثم وضع الطشت بين يدى فقال أحدهما للآخر : لا تصبّ على يده فإنه ليس منهم ! فقلت : يا رسول الله أليس قد روى عنك أنك قلت : « المرء مع من أحب ؟ » قال : بلى ، قلت: يا رسول الله فإنى أحبك وأحب هؤلاء الفقراء ! فقال صلى الله عليه وسلم : صب على يديه فإنه منهم .

وقال الجنيد : رأيت فى المنام كأنى أتكلم على الناس فوقف علىّ ملك

فقال : أقرب ما تقرب به المتقربون إلى الله تعالى ماذا ؟ فقلت : عمل خفى بميزان وفىّ ! فولى الملك وهو يقول : كلام موفق والله .

ورؤى مجمع فى النوم فقيل له : كيف رأيت الأمر ؟ فقال : رأيت الزاهدين فى الدنيا ذهبوا بخير الدنيا والآخرة .

وقال رجل من أهل الشام للعلاء بن زياد : رأيتك فى النوم كأنك فى الجنة ! فنزل عن مجلسه وأقبل عليه ثم قال : لعل الشيطان أراد أمراً فعصمت منه فأشخص رجلاً يقتلنى !

وقال محمد بن واسع : الرؤيا تسر المؤمن ولا تغره .

وقال صالح بن بشير : رأيت عطاء السلمى فى النوم فقلت له : رحمك الله لقد كنت طويل الحزن فى الدنيا ، قال : أما والله لقد أعقبنى ذلك راحة طويلة وفرحاً دائماً ، فقلت : فِى أى الدرجات أنت : فقال : ﴿ **مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا** ﴾[1] .

وسئل زرارة بن أبى أوفى فى المنام . أى الأعمال أفضل عندكم ؟ فقال : الرضا وقصر الأمل .

وقال يزيد بن مذعور : رأيت الأوزاعى فى المنام فقلت : يا أبا عمرو دلنى على عمل أتقرب به إلى الله تعالى ! قال : ما رأيت هناك درجة أرفع من درجة العلماء ثم درجة المحزونين . قال : وكان يزيد شيخاً كبيراً ، فلم يزل يبكى حتى أظلمت عيناه .

وقال ابن عيينة : رأيت أخى فى المنام فقلت : يا أخى ما فعل الله بك؟ فقال: كل ذنب استغفرت منه غفر لى وما لم أستغفر منه لم يغفر لى.

وقال على الطلحى : رأيت فى المنام امرأة لا تشبه نساء الدنيا فقلت :

---

(١) سورة النساء الآية : ٦٩ .

من أنت ؟ فقالت : حوراء ،فقلت : زوجينى نفسك ، قالت : اخطبنى إلى سيدى وأمهرنى ، فقلت : وما مهرك ؟ قالت : حبس نفسك عن آفاتها .

وقال إبراهيم بن إسحاق الحربى : رأيت زبيدة فى المنام فقلت : ما فعل الله بك ؟ قالت : غفر لى، فقلت لها : بما أنفقت فى طريق مكة ؟ قالت: أما النفقات التى أنفقتها رجعت أجورها إلى أربابها ، وغفر لى بنيتى .

ولما مات سفيان الثورى رؤى فى المنام فقيل له : ما فعل بك ؟ قال : وضعت أوّل قدمى على الصراط والثانى فى الجنة .

وقال أحمد بن أبى الحوارى : رأيت فيما يرى النائم جارية ـ ما رأيت أحسن منها كان يتلألأ وجهها نوراً ـ فقلت لها : مماذا ضوء وجهك؟ قالت: تذكر تلك الليلة التى بكيت فيها ؟ قلت : نعم ، قالت : أخذت دمعك فمسحت به وجهى ، فمن ثم ضوء وجهى كما ترى .

وقال الكتانى : رأيت الجنيد فى المنام فقلت له : ما فعل الله بك ؟ قال : طاحت تلك الإشارات وذهبت تلك العبارات وما حصلنا إلا على ركعتين كنا نصليهما فى الليل .

ورؤيت زبيدة فى المنام فقيل لها : ما فعل الله بك ؟ قالت : غفر لى بهذه الكلمات الأربع : لا إله إلا الله أفنى بها عمرى ، لا إله إلا الله أدخل بها قبرى ، لا إله إلا الله أخلو بها وحدى ، لا إله إلا الله ألقى بها ربى .

ورؤى بشر فى المنام فقيل له : ما فعل الله بك ؟ قال : رحمنى ربى عز وجل وقال يا بشر أما استحييت منى كنت تخافنى كل ذلك الخوف .

ورؤى أبو سليمان فى النوم فقيل له : ما فعل الله بك ؟ قال رحمنى وما كان شيء أضر على من إشارات القوم إلىّ .

وقال أبو بكر الكتانى : رأيت فى النوم شاباً لم أر أحسن منه فقلت له : من أنت ؟ قال : التقوى ! فقلت فأين تسكن ؟ قال : كل قلب حزين !

ثم التفت فإذا امرأة سوداء فقلت : من أنت ؟ قالت : أنا السقم ! قلت : فأين تسكنين ؟ قالت : كل قلب فرح مرح ! قال : فانتبهت وتعاهدت أن لا أضحك إلا غلبة .

وقال أبو سعيد الخراز : رأيت فى المنام كأن إبليس وثب علىَّ ، فأخذت العصا لأضربه فلم يفزع منها ، فهتف بى هاتف : إن هذا لا يخاف من هذه ، ألا تستحى من الناس ! فقال : بالله هؤلاء ناس ! لو كانوا من الناس ما كنت ألعب بهم طرفى النهار كما يتلاعب الصبيان بالكرة ! بل الناس قوم غير هؤلاء قد أسقموا جسمى ، وأشار بيده إلى أصحابنا الصوفية .

وقال أبو سعيد الخراز : كنت فى دمشق فرأ يت فى المنام كأن النبى ﷺ جاءنى متكئاً على أبى بكر وعمر رضى الله عنهما ، فجاء فوقف على وأنا أقول شيئاً من الأصوات وأدق فى صدرى ، فقال : شر هذا أكثر من خيره .

وعن ابن عيينة قال : رأيت سفيان الثورى فى النوم كأنه فى الجنة يطير من شجرة إلى شجرة يقول : ﴿ **لمثل هذا فليعمل العاملون** ﴾[1] فقلت له : أوصنى ، قال : أقلل من معرفة الناس .

وروى أبو حاتم الرازى عن قبيصة بن عقبة قال : رأيت سفيان الثورى فقلت : ما فعل الله بك ؟ فقال :

نظرت إلى ربى كفاحاً فقال لى	هنيئاً رضائى عنك يا ابن سعيد
فقد كنتَ قوّاما إذا أظلم الدجى	بعبرة مشتاق وقلب عميد
فدونك فاختر أىّ قصر أردته	وزرنى فإنى منك غير بعيد

ورؤى الشبلى بعد موته بثلاثة أيام فقيل له : ما فعل الله بك ؟ قال : ناقشنى حتى أيست ، فلما رأى يأسى تغمدنى برحمته .

---

(١) سورة الصافات الاية : ٦١ .

ورؤى مجنون بنى عامر بعد موته فى المنام فقيل له : ما فعل الله بك ؟ قال : غفر لى وجعلنى حجة على المحببين .

ورؤى الثورى فى المنام فقيل له : ما فعل الله بك ؟ قال : رحمنى ، فقيل له : ما حال عبد الله بن المبارك ؟ فقال : هو ممن يلج على ربه فى كل يوم مرتين .

ورؤى بعضهم فسئل عن حاله فقال حاسَبونا فَدقَقُّوا ثم منُّوا فأعتقوا .

ورؤى مالك بن أنس فقيل له : ما فعل الله بك ؟ قال غفر لى بكلمة كان يقولها عثمان بن عفان رضى الله عنه عند رؤية الجنازة : سبحان الحى الذى لا يموت .

ورؤى فى الليلة التى مات فيها الحسن البصرى كأن أبواب السماء مفتحة ، وكأن منادى ينادى : ألا إن الحسن البصرى قدم على الله وهو عنه راض .

ورؤى الجاحظ فقيل له : ما فعل الله بك ؟ فقال :

ولا تكتب بخطك غير شىء　　يسـرك فى القيامة أن تراه

ورأى الجنيد إبليس فى المنام عرياناً فقال : ألا تستحى من الناس ؟ فقال : وهؤلاء ناس ! الناس أقوام فى مسجد الشونيزية قد أضنوا جسدى وأحرقوا كبدى ! قال الجنيد : فلما انتبهت غدوت إلى المسجد فرأيت جماعة قد وضعوا رءوسهم على ركبهم يتفكرون ، فلما رأونى قالوا : لا يغرّنك حديث الخبيث .

ورؤى النصر اباذى بمكة ـ بعد وفاته ـ فى النوم فقيل له : ما فعل الله بك ؟ قال : عوتبت عتاب الأشراف ثم نوديت يا أبا القاسم أبعد الاتصال انفصال ؟ فقلت : لا يا ذا الجلال ، فما وضعت فى اللحد حتى لحقت بربى .

ورأى عتبة الغلام حوراء فى المنام على صورة حسنة فقالت : يا عتبة أنا لك عاشقة فانظر لا تعمل من الأعمال شيئاً فيحال بينى وبينك ، فقال عتبة : طلقت الدنيا ثلاثاً لا رجعة لى عليها حتى ألقاك .

وقيل : رأى أيوب السختيانى جنازة عاص ، فدخل الدهليز كيلا يصلى عليها ، فرأى الميت بعضهم فى المنام فقيل له : ما فعل الله بك ؟ قال : غفر لى وقال : قل لأيوب : ﴿ **قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربى إذا لأمسكتم خشية الإنفاق** ﴾[1] .

وقال بعضهم : رأيت فى الليلة التى مات فيها داود الطائى نوراً ، وملائكة نزولاً وملائكة صعوداً ، فقلت : أى ليلة هذه ؟ فقالوا : ليلة مات فيها داود الطائى قد زخرفت الجنة لقدوم روحه .

وقال أبو سعيد الشحام : رأيت سهلاً الصعلوكى فى المنام فقلت : أيها الشيخ ! قال دع التشييخ ، قلت : تلك الأحوال التى شاهدتها فقال : لم تغن عنا ! فقلت : ما فعل الله بك ؟ قال : غفر لى بمسائل كان يسأل عنها العجز .

وقال أبو بكر الرشيدى : رأيت محمداً الطوسى المعلم – فى النوم – فقال لى : قل لأبى سعيد الصفار المؤدّب :

وكنا على أن لا نحول عن الهوى فقد – وحياة الحب – حلتم – وما حلنا

قال : فانتبهت فذكرت ذلك له فقال : كنت أزور قبره كل جمعة فلم أزره هذه الجمعة .

وقال ابن راشد : رأيت ابن المبارك فى النوم بعد موته فقلت : أليس قدمت ؟ قال : بلى ، قلت : فما صنع الله بك ؟ قال : غفر لى مغفرة أحاطت بكل ذنب ، قلت : فسفيان الثورى ؟ قال بخ بخ ذاك ﴿ **مع الذين**

(١) سورة الإسراء الآية : ١٠٠ .

أنعم الله عليهم من النبيين والصدّيقين ﴾[1] الآية .

وقال الربيع بن سليمان : رأيت الشافعى رحمة الله عليه بعد وفاته فى المنام فقلت يا أبا عبد الله ما صنع الله بك ؟ قال : أجلسنى على كرسى من ذهب ونثر علىّ اللؤلؤ الرطب .

ورأى رجل من أصحاب الحسن البصرى ليلة مات الحسن كأنّ منادياً ينادى ﴿ **إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين ﴾**[2] ـ واصطفى الحسن البصرى على أهل زمانه .

وقال أبو يعقوب القارى الدقيقى رأيت فى منامى رجلاً آدم طوالاً والناس يتبعونه فقلت : من هذا ؟ قالوا : أويس القرنى ، فأتيته فقلت : أوصنى رحمك الله فكلح فى وجهى فقلت : مسترشد فأرشدنى أرشدك الله، فأقبل علىّ وقال : اتبع رحمة ربك عند محبته واحذر نقمته عند معصيته ولا تقطع رجاءك منه فى خلال ذلك ، ثم ولى وتركنى .

وقال أبو بكر بن أبى مريم : رأيت ورقاء بن بشر الحضرمى فقلت : ما فعلت يا ورقاء ؟ قال : البكاء من خشية الله .

وقال يزيد بن نعامة : هلكت جارية فى الطاعون الجارف فرآها أبوها فى المنام فقال لها : يا بنية أخبرينى عن الآخرة ؟ قالت : يا أبت قدمنا على أمر عظيم ، نعلم ولا نعمل وتعملون ولا تعلمون ، والله لتسبيحة أو تسبيحتان أو ركعة أو ركعتان فى فسحة عمل أحب إلىّ من الدنيا وما فيها .

وقال بعض أصحاب عتبة الغلام ! رأيت عتبة فى المنام فقلت : ما صنع الله بك ؟ قال : دخلت الجنة بتلك الدعوة المكتوبة فى بيتك ! قال : فلما أصبحت جئت إلى بيتى فإذا خط عتبة الغلام فى حائط البيت (يا هادى

---

(١) سورة النساء الآية : ٦٩ .

(٢) سورة آل عمران الاية : ٣٣ .

المضلين ويا أرحم المذنبين ، ويا مُقِيل عثرات العاثرين إرحم عبدك ذا الخطر العظيم والمسلمين كلهم أجمعين واجعلنا مع الأحياء المرزوقين الذين أنعمت عليهم من النبيين والصدّيقيين والشهداء والصالحين آمين يا رب العالمين .

وقال موسى بن حماد : رأيت سفيان الثورى فى الجنة يطير من نخلة إلى نخلة ومن شجرة إلى شجرة فقلت : يا أبا عبد الله بم نلت هذا ؟ فقال : بالورع ، قلت : فما بال علىّ بن عاصم ؟ قال : ذاك لا يكاد يرى إلا كما يرى الكوكب .

ورأى رجل من التابعين النبى ﷺ فى المنام فقال : يا رسول الله عظنى، قال : نعم من لم يتفقد النقصان فهو فى نقصان ، ومن كان فى نقصان فالموت خير له .

وقال الشافعى رحمة الله عليه : دهمنى فى هذه الأيام أمر أمضنى وآلمنى ولم يطلع عليه غير الله عز وجل ، فلما كان البارحة أتانى آت فى منامى فقال لى : يا محمد بن إدريس قل اللهم إنى لا أملك لنفس نفعاً ولا ضراً ولا موتاً ولاحياة ولا نشوراً ولا أستطيع أن آخذ إلا ما أعطيتنى ولا أتقى إلا ما وقيتنى ، اللهم فوفقنى لما تحب وترضى من القول والعمل فى عافية ؛ فلما أصبحت أعدت ذلك فلما ترحل النهار أعطانى الله عز وجل طلبتى وسهل لى الخلاص مما كنت فيه ، فعليك بهذه الدعوات لا تغفلوا عنها .

فهذه جملة من المكاشفات تدل على أحوال الموتى وعلى الأعمال المقرِّبة إلى الله زلفى .

فلنذكر بعدها ما بين يدى الموتى من ابتداء نفخة الصور إلى آخر القرار إما فى الجنة أو فى النار والحمد لله حمد الشاكرين .

* * *

الباب الخامس

نفخة الصور

وفيه :

- الفصل الأول : صفة نفخة الصور .
- الفصل الثانى : أرض المحشر وأهله .

الفصل الأول :

صفة نفخة الصور

وفيه :

تمهيـــد .

البحث الأول : ضعف الإيمان بنفخة الصور ، وعلاج ذلك .

البحث الثانى : صفة الصـور ونفختـه .

تمهيد

قد عرفت فيما سبق :

شـدة أحـوال الميت فى سكرات الموت وخطره فى خـوف العـاقبـة ، ثم مـقـاساته لظلمـة القبـر وديدانه ، ثم لمنكر ونكيـر وسؤالهـما ، ثم لعذاب القبر وخطره إن كان مغضوباً عليه .

وأعظم من ذلك كله .

الأخطار التى بين يديه من نفخ الصور ، والبعث يوم النشور، والعـرض على الجبـار ، والسؤال عن القليل والكثيـر ، ونصب الميزان لمعرفة المقـادير ، ثـم جواز الصراط مع دقته وحدّته ، ثم انتظار النداء عند فصل القضاء إما بالإسعاد وإما بالاشقاء .

فهذه أحوال وأهوال .

لا بد لك من معرفتـهـا ، ثم الإيمان بهـا على سبيل الجزم والتـصـديق ، ثـم تطويل الفكر فى ذلك ، لينبـعـث من قلبك دواعى الاستعداد لها .

* * *

البحث الأول

ضعف الإيمان بنفخة الصور ، وعلاج ذلك

وأكثر الناس لم يدخل الإيمان باليوم الآخر صميم قلوبهم ، ولم يتمكن من سويداء أفئدتهم ، ويدل على ذلك شدة تشمرهم واستعدادهم لحر الصيف وبرد الشتاء ، وتهاونهم بحرّ جهنم وزمهريرها مع ما تكتنفه من المصاعب والأهوال ، بل إذا سئلوا عن اليوم الآخر نطقت به ألسنتهم ثم غفلت عنه قلوبهم ، ومن أخبر بأن ما بين يديه من الطعام مسموم فقال لصاحبه ـ الذى أخبر ـ صدقت ، ثم مدّ يديه لتناوله ، كان مصدقاً بلسانه ومكذباً بعمله ، وتكذيب العمل أبلغ من تكذيب اللسان ، وقد قال النبى ﷺ : « قال الله تعالى شتمنى ابن آدم وما ينبغى له أن يشتمنى ، وكذبنى وما ينبغى أن يكذبنى ، أما شتمه إياى فيقول : إن لى ولدا وأما تكذيبه فقوله لن يعيدنى كما بدأنى »[1] وإنما فتور البواطن عن قوة اليقين والتصديق بالبعث والنشور لقلة الفهم فى هذا العالم لأمثال تلك الأمور ، ولو لم يشاهد الإنسان توالد الحيوانات ، وقيل له : « إن صانعاً يصنع من النطفة القذرة مثل هذا الآدمى المصور العاقل المتكلم المتصرف ».. لاشتد نفور باطنه عن التصديق به ؛ ولذلك قال الله تعالى : ﴿ **أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خَصِيمٌ مبين** ﴾[2] وقال تعالى : ﴿ **أَيَحْسَبُ الإنسان أن يترك سدى * ألم يَكُ نطفة من منيٍّ يمنى ثم كان علقة فخلق فسوّى**

(١) أخرجه البخارى فى كتاب التفسير تفسير سورة « قول هو الله أحد » بلفظ قريب والنسائى فى كتاب الجنائز باب أرواح المؤمنين (١١٢/٤) وأحمد فى المسند (٣١٧/٢ ، ٣٥٠ ، ٣٩٤) وذكره ابن كثير فى البداية والنهاية (٧٤/٢) بلفظ « شتمنى ابن آدم ولم يكن له ذلك زعم أن لى ولدا وأنا الأحد الصمد الذى لم ألد ولم أولد ولم يكن لى كفوا أحد » .

(٢) سورة يس : الآية : ٧٧ .

فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى ﴾[1] ففى خلق الآدمى ـ مع كثرة عجائبه واختلاف تركيب أعضائه ـ أعاجيب تزيد على الأعاجيب فى بعثه وإعادته ، فكيف ينكر ذلك من قدرة الله تعالى وحكته من يشاهد ذلك فى صنعته وقدرته ؟

فإن كان فى إيمانك ضعف : فقوّ الإيمان بالنظر فى النشأة الأولى فإن الثانية مثلها وأسهل منها .

وإن كنت قوى الإيمان بها : فأشعر قلبك تلك المخاوف والأخطار ، وأكثر فيها التفكير والاعتبار ، لتسلب عن قلبك الراحة والقرار ، فتشتغل بالتشمر للعرض على الجبار ، وتفكر أولاً فيما يقرع سمع سكان القبور من شدة نفخ الصور ، فإنها صيحة واحدة تنفرج بها القبور عن رءوس الموتى فيثورون دفعة واحدة . فتوهم نفسك وقد وثبت متغيراً وجهك مغبراً بدنك من فَرْقكَ إلى قدمك من تراب قبرك مبهوتاً من شدة الصعقة شاخص العين نحو النداء وقد ثار الخلق ثورة واحدة من القبور التى طال فيها بلاؤهم ؛ وقد أزعجهم الفزع والرعب مضافاً إلى ما كان عندهم من الهموم والغموم وشدّة الانتظار لعاقبة الأمر ، كما قال تعالى : **﴿ ونفخ فى الصور فصعق من فى السماوات ومن فى الأرض إلا من شاء ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ﴾**[2] وقال تعالى : **﴿ فإذا نُقر فى الناقور فذلك يومئذ يوم عسير على الكافرين غير يسير ﴾**[3] وقال تعالى: **﴿ ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يختصمون فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون ونفخ فى الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون ﴾**[4] .

(١) سورة القيامة الآيات : ٣٦ ـ ٣٩ .
(٢) سورة الزمر الآية : ٦٨ .
(٣) سورة المدثر الآيات : ٨ ـ ١٠ .
(٤) سورة يس الآيات : ٤٨ ـ ٥٢ .

وفلو لم يكن بين يدى الموتى إلا هول تلك النفخة لكان ذلك جديراً بأن يتقى فإنها نفخة وصيحة يصعق بها من فى السموات والأرض ـ يعنى يموتون بها ـ إلا من شاء الله وهو بعض الملائكة .

ولذلك قال رسول الله ﷺ : « كيف أنعم وصاحب الصور قد التقم القرن وحنى الجبهة وأصغى بالأذن ينتظر متى يؤمر فينفخ »[1] .

* * *

(١) أخرجه الإمام أحمد فى (٣٢٦/١) ، (٧/٣) والطبرانى فى المعجم الصغير (٢٤/١) وقال عنه : لم يروه عن عمار الذهنى إلا سفيان بن عيينة ، ولا رواه عن سفيان إلا زهير وروح بن عبادة وذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد فى كتاب التفسير تفسير سورة المزمل (١٣١/٧) بلفظ قريب ، وقال عنه رواه الطبرانى وفيه : عطية ، وهو ضعيف ، وكتاب البعث باب النفخ فى الصور (٣٣١/١٠) قم قال : رواه أحمد والطبرانى فى الأوسط باختصار عنه وفيه عطية العوفى وهو ضعيف وفيه توثيق ولين ، وابن كثير فى البداية والنهاية (٤٥/١) .

البحث الثاني

صفة الصور ونفخته

قال مقاتل : الصور هو القرن .

وذلك أن إسرافيل عليه السلام واضع فاه على القرن كهيئة البوق ، ودائرة رأس القرن كعرض السموات والأرض ، وهو شاخص بصره نحو العرش ينتظر متى يؤمر فينفخ النفخة الأولى .

فإذا نفخ صعق من فى السموات والأرض أى مات كل حيوان من شدّة الفزع إلا من شاء الله ، وهو جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت .

ثم يأمر ملك الموت أن يقبض روح جبريل ، ثم روح ميكائيل ، ثم روح إسرافيل .

ثم يأمر ملك الموت فيموت .

ثم يلبث الخلق بعد النفخة الأولى فى البرزخ أربعين سنة .

ثم يحيى الله إسرافيل فيأمره أن ينفخ الثانية فذلك قوله تعالى : ﴿ **ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون** ﴾[1] على أرجلهم ينظرون إلى البعث وقال رسول الله ﷺ « حين بعث إليّ بعث إلى صاحب الصور فأهوى به إلى فيه وقدّم رِجلاً وأخر أخرى ينتظر متى يؤمر بالنفخ ألا فاتقوا النفخة »[2]

---

(١) سورة الزمر الآية : ٦٨ .

(٢) ذكره صاحب الإتحاف فى (٤٥٢/١٠) ثم قال عنه : قال العراقى : لم أجده هكذا بل قد ورد أن إسرافيل من حين ابتداء الخلق وهو كذلك كما رواه البخارى فى التاريخ وأبو الشيخ فى العظمة من حديث أبى هريرة « إن الله تبارك وتعالى لما فرغ من خلق السماوات والأرض خلق الصور فأعطاه إسرافيل فهو واضعه على فيه شاخص ببصره إلى العرش ينتظر متى يؤمر . قال البخارى ولا يصح وفى رواية لأبى الشيخ ما طرف صاحب الصور منذ وكل به مستعد ينظر نحو العرش مخافة أن يؤمر قبل أن يرتد إليه طرفه كان عينيه كوكبان دريان وإسناده جيد . انتهى . قلت : بل رواه عبد بن حميد فى تفسيره من حديث ابن عمر بلفظ لما بعث إلى بعث إلى صاحب الصور فأخذه فأهوى بيده إلى فيه فقدم رجلا وآخر رجلا متى يؤمر فينفخ فاتقوا النفخة .

فتفكر فى الخلائق وذلهم وانكسارهم واستكانتهم عند الانبعاث خوفاً من هذه الصعقة ، وانتظاراً لما يقضى عليهم من سعادة أو شقاوة ، وأنت فيما بينهم منكسر كانكسارهم متحيرا كتحيرهم .

بل إن كنت فى الدنيا من المترفهين والأغنياء المتنعمين فملوك الأرض فى ذلك اليوم أذّل أهل أرض الجمع وأصغرهم وأحقرهم يوطئون بالأقدام مثل الذرّة .

وعند ذلك تقبل الوحوش من البرارى والجبال منكسة رءوسها مختلطة بالخلائق بعد توحشها ذليلة ليوم النشور من غير خطيئة تدنست بها ، ولكن حشرتهم شدّة الصعقة وهول النفخة ، وشغلهم ذلك عن الهرب من الخلق والتوحش منهم وذلك قوله تعالى : ﴿ **وإذا الوحوش حشرت** ﴾[1] ثم أقبلت الشياطين المردة بعد تمرّدها وعتوّها وأذعنت خاشعة من هيبة العرض على الله تعالى تصديقاً لقوله تعالى : ﴿ **فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ والشياطين ثم لَنُحْضِرَنَّهُمْ حول جهنم جِثِيا** ﴾[1] .

فتفكر فى حالك وحال قلبك هنالك .

* * *

(١) سورة التكوير الاية : ٥ .

(٢) سورة مريم الآية : ٦٨ .

الفصل الثانى :

أرض المحشـــر

وفيه :

البحث الأول : صفة أرض المحشر وأهله وأهواله

البحث الثانى : صفـة العرق فى يوم الحشر .

البحث الأول

صفة أرض المحشر وأهله وأهواله

ثم انظر كيف يساقون بعد البعث والنشور حفاة عراة غُرلا إلى أرض المحشر .

أرض بيضاء قاع صفصف لا ترى فيها عوجاً ولا أمتا ، ولا ترى عليها ربوة يختفى الإنسان وراءها ، ولا وهدة ينخفض عن الأعين فيها ، بل هو صعيد واحد بسيط لا تفاوت فيه يساقون إليه زمراً .

فسبحان من جمع الخلائق على اختلاف أصنافهم من أقطار الأرض إذ ساقهم بالراجفة تتبعها الرادفة ، والراجفة هى : النفخة الأولى ، والرادفة هى: النفخة الثانية .

وحقيق لتلك القلوب أن تكون يومئذ واجفة ولتلك الأبصار أن تكون خاشعة ، قال رسول الله ﷺ : « يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرص النقى ليس فيها معلم لأحد »(١) .

قال الراوى : والعفرة : بياض ليس بالناصع . والنقى : هو النقى عن القشر والنخالة . ومعلم : أى لا بناء يستر ولا تفاوت يردّ البصر .

ولا تظنن أن تلك الأرض مثل أرض الدنيا ، بل لا تساويها إلا فى الاسم قال تعالى : ﴿ **يوم تُبَدَّل الأرض غَيْرَ الأرض والسموات** ﴾(٢) . قال ابن عباس : يزاد فيها وينقص وتذهب أشجارها وجبالها وأوديتها وما فيها

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب الجنة والنار باب ابتداء الخلق وخلق آدم عليه السلام (٣٧٢/١١، ٣٨٢) (فتح البارى) وأخرجه مسلم فى كتاب صفة القيامة باب صفات المنافقين حديث ٢٨ . وانظر جامع البيان (١٦٤/٤) .

(٢) سورة إبراهيم الآية : ٤٨ .

وتمدّ مدّ الأديم العكاظى ، أرض بيضاء مثل الفضة لم يسفك عليها دم ولم يعمل عليه خطيئة ، والسموات تذهب شمسها وقمرها ونجومها .

فانظر يا مسكين فى هول ذلك اليوم وشدّته .

فإنه إذا اجتمع الخلائق على هذا الصعيد تناثرت من فوقهم نجوم السماء وطمس الشمس والقمر ، وأظلمت الأرض لخمود سراجها . فبينا هم كذلك إذْ دارت السماء من فوق رءوسهم وانشقت مع غلظتها وشدّتها خمسمائة عام ، والملائكة قيام على حافاتها وأرجائها فيا هول صوت انشقاقها فى سمعك ويا هيبة ليوم تنشق فيه السماء مع صلابتها وشدّتها ! ثم تنهار وتسيل كالفضة المذابة تخالطها صفرة فصارت وردة كالدهان ، وصارت السماء كالمهل ، وصارت الجبال كالعهن ، واشتبك الناس كالفراش المبثوث وهم حفاة عراة مشاة .

قال رسول الله ﷺ [1] : « يبعث الناس حفاة عراة غرلا قد ألجمهم العرق وبلغ شحوم الآذان » قالت سودة - زوج النبى ﷺ راوية الحديث - قلت يا رسول الله واسوأتاه ينظر بعضنا إلى بعض ؟ فقال : « شغل الناس عن ذلك بهم ﴿**لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه**﴾[2] .

فأعظم بيوم تنكشف فيه العورات ويؤمن فيه مع ذلك النظر والالتفات . كيف وبعضهم يمشون على بطونهم ووجوههم فلا قدرة لهم على الالتفات إلى غيرهم .

قال أبو هريرة رضى الله عنه : قال رسول الله ﷺ : « يحشر الناس

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب الرقاق باب كيف الحشر (٨٢/٤) الطبعة الثانية بالمطبعة البهية المصرية سنة ١٣٦٢ بلفظ قريب وكتاب التفسير سورة المائدة . ومسلم فى كتاب الجنة باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القامة . بلفظ قريب أيضاً والنسائى فى كتاب الجنائز باب البعث وذكر أول من يكسى (١١٤/٤ ، ١١٧) وابن ماجه فى كتاب الزهد باب ذكر البعث (٥٧٢/٢) والدارامى فى كتاب الرقائق باب فى صفة الحشر (٣٢٦/٢) .

(٢) سورة عبس الاية ٣٧ .

يوم القيامة ثلاثة أصناف : ركباناً ومشاة ، وعلى وجوههم . فقال رجل : يا رسول الله وكيف يمشون على وجوههم ؟ قال : « الذى أمشاهم على أقدامهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم »[1] .

فى طبع الآدمى إنكار كل ما لم يأنس به ، ولو لم يشاهد الإنسان الحية وهى تمشى على بطنها كالبرق الخاطف لأنكر تصوّر المشى على غير رِجْل ، والمشى بالرِجْل أيضاً مستبعد عند من لم يشاهد ذلك .

فإياك أن تنكر شيئاً من عجائب يوم القيامة لمخالفته قياس ما فى الدنيا ، فإنك لو لم تكن قد شاهدت عجائب الدنيا ثم عرضت عليك قبل المشاهدة لكنت أشدّ إنكاراً لها ! فأحضر فى قلبك صورتك وأنت واقف عارياً مكشوفاً ذليلاً مدحوراً متحيراً مبهوتاً منتظراً لما يجرى عليك من القضاء بالسعادة أو بالشقاوة وأعظم هذه الحال فإنها عظيمة .

* * *

(١) أخرجه الإمام أحمد فى المسند (٣٥٤/٢) والبخارى فى كتاب الرقاق باب كيف الحشر (٨٢/٤) بلفظ قريب .

البحث الثاني

صفة العرق فى يوم الحشر

ثم تفكر فى ازدحام الخلائق واجتماعهم ، حتى ازدحم على الموقف أهل السموات السبع والأرضين السبع من ملك وجنّ وإنس وشيطان ووحش وسبع وطير ، فأشرقت عليهم الشمس وقد تضاعف حرّها وتبدّلت عما كانت عليه من خفة أمرها ، ثم أدنيت من رءوس العالمين كقاب قوسين ، فلم يبق على الأرض ظلّ إلا ظلّ رب العالمين . ولم يُمكَّن من الاستظلال به إلا المقربون ، فمن بين مستظل بالعرش وبين مضح لحرّ الشمس قد صهرته بحرّها واشتدّ كربه وغمه من وهجها ، ثم تدافعت الخلائق ودفع بعضهم بعضاً لشدّة الزحام واختلاف الأقدام ، وانضاف إليه شدّة الخجلة والحياء من الافتضاح والاختزاء عند العرض على جبار السماء .

فاجتمع وهج الشمس وحر الأنفاس واحتراق القلوب بنار الحياء والخوف ففاض العرق من أصل كلّ شعرة حتى سال على صعيد القيامة . ثم ارتفع على أبداهم على قدر منازلهم عند الله ، فبعضهم بلغ العرق ركبتيه ، وبعضهم حقويه ، وبعضهم إلى شحمة أذنيه ، وبعضهم كاد يغيب فيه .

قال ابن عمر : قال رسول الله ﷺ : « يوم يقوم الناس لرب العالمين ـ حتى يغيب أحدهم فى رشحه إلى أنصاف أذنيه »(١) .

وقال أبو هريرة : قال رسول الله ﷺ : « يعرق الناس يوم القيامة حتى

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب التفسير تفسير سورة المطففين وكتاب الرقاق باب قول الله تعالى ﴿ **ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم * يوم يقوم الناس لرب العالمين** ﴾ ومسلم فى كتاب الجنة باب صفة يوم القيامة ـ أعاننا الله على أهواله ، وأحمد فى المسند (٢/٢٣ ، ١٩ ، ٦٤ ، ١١٢ ، ١٢٥) .

يذهب عرقهم فى الأرض سبعين باعاً ويلجمهم ويبلغ أذقنهم »[1] كذا رواه البخارى ومسلم فى الصحيح .

وفى حديث آخر : « قياماً شاخصة أبصارهم أربعين سنة إلى السماء فيلجمهم العرق من شدّة الكرب »[2] .

وقال عقبة بن عامر : قال رسول الله ﷺ : « تدنو الشمس من الأرض يوم القيامة فيعرق الناس ، فمن الناس من يبلغ عرقه عَقِبَه ، ومنهم من يبلغ نصف ساقه ، ومنهم من يبلغ ركبته ، ومنهم من يبلُغ فخذه ، ومنهم من يبلغ خاصرته ، ومنهم من يبلغ فاه ـ وأشار بيده فألجمها فاه ـ ومنهم من يغطيه العرق ـ وضرب بيده على رأسه هكذا »[3] .

فتأمل يا مسكين فى عرق أهل المحشر وشدّة كربهم ، وفيهم من ينادى فيقول رب ارحمنى من هذا الكرب والانتظار ولو إلى النار وكل ذلك ولم يلقوا بعد حساباً ولا عقاباً ، فإنك واحد منهم ولا تدرى إلى أين يبلغ بك العرق ؟

واعلم أن كل عرق لم يخرجه التعب فى سبيل الله ـ من حج وجهاد

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب الرقاق باب قول الله تعالى ﴿ **ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون * ليوم عظيم يوم يقوم الناس لرب العالمين** ﴾ . وقال ابن عباس : وتقطعت بهم الأسباب قال الوصلات فى الدنيا (١٣٨/٨) .

(٢) ذكره صاحب إتحاف السادة المتقين فى (٤٥٨/١٠) ثم قال : قلت : رواه البيهقى فى البعث بلفظ « إذا حشر الناس قاموا أربعين عاما شاخصة أبصارهم إلى السماء لا يكلمهم الله والشمس على رؤسهم حتى يلج العرق كل بر منهم وفاجر » ورواه محمد بن نصر فى تعظيم قدر الصلاة عن ابن مسعود موقوفاً عليه . ومن حديث أبى هريرة نحوه قلت : وحديث أبى هريرة هو الأقرب لسياق المصنف من حديث ابن مسعود . ورواه البيهقى فى البعث ولفظه : « يحشر الناس قياماً شاخصة أبصارهم إلى السماء فيلجمهم العرق من شدة الكرب » .

(٣) ذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد فى كتاب البعث باب ما جاء فى هول المطلع وشدة يوم القيامة (٣٣٥/١٠) ثم قال : رواه أحمد والطبرانى وإسناد الطبرانى جيد . وأخرجه أحمد فى (١٥٧/٤) والحاكم فى كتاب الأهوال باب تدنو الشمس من الأرض فيعرق الناس يوم القيامة (٥٧١/٤) وصححه الحاكم والذهبى .

وصيام وقيام وتردّد فى قضاء حاجة مسلم وتحمل مشقة فى أمر بمعروف ونهى عن منكر ـ فسيخرجه الحياء والخوف فى صعيد القيامة ويطول فيه الكرب .

ولو سلم ابن آدم من الجهل والغرور لعلم أن تعب العرق فى تحمل مصاعب الطاعات أهون أمراً وأقصر زماناً من عرق الكرب والانتظار فى القيامة ، فإنه يوم عظيم شدّته طويلة مدّته .

* * *

الباب السادس

القيامة وأهوالها

وفيه :

- الفصل الأول : صفة يوم القيامة .
- الفصل الثانى : أسامى يوم القيامة ودواهيه.
- الفصل الثالث : صفة المساءلة .
- الفصل الرابع : الميزان .
- الفصل الخامس : الصراط .
- الفصل السادس : الشفاعة .
- الفصل السابع : الحوض .

الفصل الأول :

صفة يوم القيامة

وفيه :

البحث الأول : طول يوم القيامة .

البحث الثانى : صفة يوم القيامة .

البحث الأول

طول يوم القيامة

يوم تقف فيه الخلائق شاخصة أبصارهم منفطرة قلوبهم لا يكلمون ولا ينظر فى أمورهم ، يقفون ثلاثمائة عام لا يأكلون فيه أكلة ولا يشربون فيه شربة ولا يجدون فيه روحا نسيما .

قال كعب وقتادة : ﴿ **يوم يقوم الناس لرب العالمين** ﴾[1] قال : يقومون مقدار ثلاثمائة عام .

بل قال عبد الله بن عمرو : تلا رسول الله ﷺ هذه الآية ثم قال: « كيف بكم إذا جمعكم الله كما تجمع النبل فى الكنانة خمسين ألف سنة لا ينظر إليكم » [2].

وقال الحسن : ما ظنك بيوم قاموا فيه على أقدامهم مقدار خمسين ألف سنة لا يأكلون فيها أكلة ولا يشربون فيها شربة ، حتى إذا انقطعت أعناقهم عطشاً واحترقت أجوافهم جوعاً انصرف بهم إلى النار فَسُقُوا من عين آنية قد آن حرّها واشتدّ لفحها ، فلما بلغ المجهود منهم ما لا طاقة لهم به كلم بعضهم بعضاً فى طلب من يكرم على مولاه ليشفع فى حقهم ، فلم يتعلقوا بنبى إلا دفعهم وقال : دعونى ! نفسى نفسى ! شغلنى أمرى عن أمر غير . واعتذر كل واحد بشدّة غضب الله تعالى وقال : قد غضب

(١) سورة المطففين الآية : ٦ .

(٢) حديث ابن عمر : تلا هذه الآية : ﴿ **يوم يقوم الناس لرب العالمين** ﴾ ثم قال : « كيف بكم إذا جمعكم الله كما يجمع النبل فى الكنانة خمسين ألف سنة لا ينظر إليكم » قلت : إنما هو عبد الله بن عمر ورواه الطبرانى فى الكبير وفيه عبد الرحمن بن ميسرة ولم يذكر له ابن أبى حاتم راوياً غير ابن وهب ولهم عبد الرحمن بن ميسرة الحضرمى أربعة هذا أحدهم مصرى والثالثة الآخرون شاميون، وذكره صاحب مجمع الزوائد فى كتاب التفسير تفسير سورة « ويل للمطففين » (١٣٥/٧) وقال عنه الهيثمى : رواه الطبرانى ورجاله ثقات . وذكره السيوطى فى الدر المثور (٣٢٤/٦) .

اليوم ربنا غضباً لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله ، حتى يشفع نبينا ﷺ لمن يؤذن له فيه : ﴿ **يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورَضِيَ له قولا** ﴾[1] .

فتأمل فى طول هذا اليوم وشدّة الانتظار فيه حتى يخف عليك انتظار الصبر عن المعاصى فى عمرك المختصر .

واعلم أنّ من طال انتظاره فى الدنيا للموت لشدّة مقاساته للصبر عن الشهوات فإنه يقصر انتظاره فى ذلك اليوم خاصة .

قال رسول الله ﷺ لما سئل عن طول ذلك اليوم فقال : « والذى نفسى بيده إنه ليخفف على المؤمن حتى يكون أهْوَنَ عليه من الصلاة المكتوبة يصليها فى الدنيا » [2].

فاجتهد أن تكون من أولئك المؤمنين فما دام يبقى لك نَفَسٌ من عمرك فالأمر إليك والاستعداد بيديك ، فاعمل فى أيام قصار لأيام طوال تربح ربحاً لا منتهى لسروره ، واستحقر عمرك ، بل عمر الدنيا فإنك لو صبرت سبعة آلاف سنة مثلاً لتخلص من يوم مقداره خمسون ألفاً لكان ربحك كثيراً وتعبك يسيراً .

* * *

---

(١) سورة طــه الآية : ١٠٩ .

(٢) حديث : سئل عن طول ذلك اليوم فقال : « والذى نفسى بيده إنه ليخفف على المؤمن حت يكون أهون عليه من الصلاة المكتوبة يصليها فى الدنيا » أخرجه أبو يعلى والبيهقى فى الشعب من حديث أبى سعيد الخدرى وفيه ابن لهيعة وقد رواه ابن وهب عن عمرو بن الحارث بدل ابن لهيعة وهو حسن ولأبى يعلى من حديث أبى هريرة بإسناد جيد « يهون ذلك على المؤمن كتدلى الشمس للغروب إلى أن تغرب » ورواه البيهقى فى الشهب إلى أن قال أظنه رفعه بلفظ « إن الله ليخفف على من يشاء من عبادة طوله كوقت صلاة مفروضة » .

وأخرجه أحمد فى المسند (٧٥/٣) وذكره الهيثمى فى المجمع فى كتاب البعث باب خفة يوم القيامة على المؤمنين (٣٣٧/١٠) وقال عنه الهيثمى : رواه أحمد أبو يعلى وإسناده حسن على ضعف فى راوية .

البحث الثاني

صفة يوم القيامة

فاستعدّ يا مسكين لهذا اليوم العظيم شأنه ، المديد زمانه ، القاهر سلطانه، القريب أوانه .

يوم ترى السماء فيه قد انفطرت ، والكواكب من هوله قد انتثرت ، والنجوم الزواهر قد انكدرت ، والشمس قد كوِّرت ، والجبال قد سيرت ، والعشار قد عطلت ، والوحوش قد حشرت ، والبحار قد سجرت ، والنفوس إلى الأبدان قد زوِّجت ، والجحيم قد سعرت ، والجنة قد أزلفت ، والجبال قد نسفت ، والأرض قد مدَّت .

يوم ترى الأرض قد زلزلت فيه زلزالها ، وأخرجت الأرض أثقالها ، يومئذ يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم .

يوم تحمل الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة .

فيومئذ وقعت الواقعة وانشقت السماء فهى يومئذ واهية ، والملك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية .

يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية .

يوم تسير الجبال وترى الأرض بارزة .

يوم ترج الأرض فيه رجّاً وتبس الجبال بسًّا فكانت هباء منبثًّا .

يوم يكون الناس كالفراش المبثوث ، وتكون الجبال كالعهن المنفوش .

يوم تذهل فيه كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكنَّ عذاب الله شديد .

يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار .

يوم تنسف فيه الجبال نسفاً فتترك قاعاً صفصفاً لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً .

يوم ترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمرّ مر السحاب .

يوم تنشق فيه السماء فتكون وردة كالدهان فيومئذ لا يسئل عن ذنبه إنس ولا جان .

يوم يمنع فيه العاصى من الكلام ، ولا يسئل فيه عن الأجرام ، بل يؤخذ بالنواصى والأقدام .

يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً ، وما عملت من سوء تودّ لو أنّ بينها وبينه أمداً بعيداً .

يوم تعلم فيه كل نفس ما أحضرت وتشهد ما قدّمت وأخرت .

يوم تخرس فيه الألسن وتنطلق الجوارح .

يوم شيَّبَ ذكره سيد المرسلين إذ قال له الصدّيق رضى الله عنه : أراك قد شبت يا رسول الله . قال : « شيبتنى هود وأخواتها »[1] وهى الواقعة والمرسلات وعمَّ يتساءلون وإذا الشمس كوّرت .

فيا أيها القارئ العاجز إنما حظك من قراءتك أن تمجمج القرآن وتحرّك به اللسان ، ولو كنت متفكراً فيما تقرؤه لكنت جديراً بأن تنشقّ مرارتك مما شاب منه شعر سيد المرسلين ، وإذا قنعت بحركة اللسان فقد حرمت ثمرة القرآن ، فالقيامة أحد ما ذكر فيه .

* * *

(١) أخرجه الحاكم فى المستدرك فى كتاب التفسير باب مثل أهل بيتى مثل سفينة نوح (٣٤٣/٢) ثم قال هذا صحيح على شرط البخارى ولم يخرجاه ووافقه الذهبى وذكره الهيثمى فى المجمع فى كتاب التفسير تفسير سورة هود (٣٧/٧) وقال عنه : رواه الطبرانى وفيه عمرو بن ثابت وهو متروك . وذكره عند سورة الواقعة . وانظر مسند أبى بكر ص ٢٦ حديث رقم (٤٥) .

الفصل الثاني :

أسامى يوم القيامة

وفيه :

- تمهيد .
- الأسامى.
- تحذير .

تمهيد

وقد وصف الله بعض دواهيها ، وأكثر من أساميها لتقف بكثرة أساميها على كثرة معانيها ، فليس المقصود بكثرة الأسامى تكرير الأسامى والألقاب ، بل الغرض تنبيه أولى الألباب ، فتحت كل اسم من أسماء القيامة سر وفى كل نعت من نعوتها معنى ، فاحرص على معرفة معانيها .

ونحن الأن نجمع لك أساميها .

الأسامى

وهى : يوم القيامة ويوم الحشر ويوم الندامة ويوم المحاسبة ويوم المساءلة ويوم المسابقة ويوم المناقشة ويوم المنافسة ويوم الزلزلة ويوم الدمدمة ويوم الصاعقة ويوم الواقعة ويوم القارعة ويوم الراجفة ويوم الرادفة ويوم الغاشية ويوم الداهية ويوم الآزفة ويوم الحاقة ويوم الطامة ويوم الصاخة ويوم التلاقى ويوم الفراق ويوم المساق ويوم القصاص ويوم التناد ويوم الحساب ويوم المآب ويوم العذاب ويوم الفرار ويوم القرار ويوم اللقاء ويوم البقاء ويوم القضاء ويوم الجزاء ويوم البلاء ويوم البكاء ويوم الحشر ويوم الوعيد ويوم العرض ويوم الوزن ويوم الحق ويوم الحكم ويوم الفصل ويوم الجمع ويوم البعث ويوم الفتح ويوم الخزى ويوم عظيم ويوم عقيم ويوم عسير ويوم الدين ويوم اليقين ويوم النشور ويوم المصير ويوم النفخة ويوم الصيحة ويوم الرجفة ويوم الرجة ويوم الزجرة ويوم السكرة ويوم الفزع ويوم الجزع ويوم المنتهى ويوم المأوى ويوم الميقات ويوم الميعاد ويوم المرصاد ويوم القلق ويوم العرق ويوم الافتقار ويوم الانكدار ويوم الانتشار ويوم الانشقاق ويوم الوقوف ويوم الخروج ويوم الخلود ويوم التغابن ويوم عبوس ويوم معلوم ويوم مشهود ويوم لا ريب فيه ويوم تبلى فيه

السرائر ويوم لا تجزى نفس عن نفس شيئاً ويوم تشخص فيه الأبصار ويوم لا يغنى مولى عن مولى شيئاً ويوم لا تملك نفس لنفس شيئاً ويوم يدعون إلى نار جهنم دعّاً ويوم يسحبون فى النار على وجوههم ويوم تقلب وجوههم فى النار ويوم لا يجزى والد عن ولده ويوم يفر المرأ من أخيه وأمه وأبيه ويوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون يوم لا مردّ له من الله يوم هم بارزون يوم هم على النار يقتنون يوم لا ينفع مال ولا بنون يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار . يوم ترد فيه المعاذير وتبلى السرائر وتظهر الضمائر وتكشف الأستار . يوم تخشع فيه الأبصار ، وتسكن الأصوات ، ويقل فيه الالتفات ، وتبرز الخفيات وتظهر الخطيئات ، يوم يساق العباد ومعهم الأشهاد ، ويشيب الصغير ويسكر الكبير ، فيومئذ وضعت الموازين ونشرت الدواوين ، وبرزت الجحيم وأغلى الحميم، وزفرت النار ويئس الكفار، وسعرت النيران وتغيرت الألوان ، وخرس اللسان ونطقت جوارح الإنسان .

* * *

تحــذير

فيا أيها الإنسان ما غرّك بربك الكريم ، حيث أغلقت الأبواب وأرخيت الستور ، واستترت عن الخلائق فقارفت الفجور ، فماذا تفعل وقد شهدت عليك جوارحك ؟

فالويل كل الويل لنا معشر الغافلين ، يرسل الله لنا سيد المرسلين وينزل عليه الكتاب المبين ، ويخبرنا بهذه الصفات من نعوت يوم الدين ، ثم يعرّفنا غفلتنا ويقول: ﴿ **اقترب للناس حسابهم وهم فى غفلة معرضون ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون لاهية قلوبهم** ﴾ [(١)] ثم يعرّفنا قرب القيامة فيقول ﴿ **اقتربت الساعة وانشق القمر** ﴾ [(٢)] ﴿ **إنهم يرونه بعيداً ونراه قريبا** ﴾ [(٣)] ﴿ **وما يدريك لعل الساعة تكون قريبا** ﴾[(٤)] ثم يكون أحسن أحوالنا أن نتخذ دراسة هذا القرآن عملاً فلا نتدبر معانيه ولا ننظر فى كثرة أوصاف هذا اليوم وأساميه ولا نستعد للتخلص من دواهيه .

فنعوذ بالله من هذه الغفلة إن لم يداركنا الله بواسع رحمته .

* * *

---

(١) سورة الأنبياء الآيات : ١ ـ ٣ .
(٢) سورة القمر الآية : ١ .
(٣) سورة المعارج الآية : ٧ .
(٤) سورة الأحزاب الاية : ٦٣ .

الفصل الثالث :

صفة مساءلة الله للعبد يوم القيامة

البحث الأول : قبيـل المسائلة .

البحث الثانى : صفة المسائلة .

البحث الأول

قبيل المساءلة

ثم تفكر يا مسكين بعد هذه الأحوال فيما يتوجه عليك من السؤال شفاها من غير ترجمان ، فتسئل عن القليل والكثير والنقير والقطمير . فبينا أنت فى كرب القيامة وعرقها وشدة عظائمها إذ نزلت ملائكة من أرجاء السماء بأجسام عظام وأشخاص ضخام غلاظ شداد أمروا أن يأخذوا بنواصى المجرمين إلى موقف العرض على الجبار .

قال رسول الله ﷺ : « إن لله عز وجل ملكا ما بين شفرى عينيه مسيرة مائة عام »[1] .

فما ظنك بنفسك إذا شاهدت مثلاً هؤلاء الملائكة أرسلوا إليك ليأخذوك إلى مقام العرض ، وتراهم على عظم أشخاصهم منكسرين لأذنابهم خوفاً من أن يكونوا هم المأخوذين .

فهذا حال المقربين فما ظنك بالعصاة المجرمين ؟

وعند ذلك يبادر أقوام من شدة الفزع فيقولون للملائكة : أفيكم ربنا ؟ وذلك لعظم موكبهم وشدة هيبتهم فتفزع الملائكة من سؤالهم إجلالاً لخالقهم عن أن يكون فيهم ، فنادوا بأصواتهم منزهين لمليكهم عما توهمه أهل الأرض وقالوا : سبحان ربنا ما هو فينا ولكنه آت من بعد ! وعند ذلك تقوم الملائكة صفاً محدقين بالخلائق من الجوانب وعلى جميعهم شعار الذل والخضوع وهيئة الخوف والمهابة لشدة اليوم .

وعند ذلك يصدق الله تعالى قوله : ﴿ **فلنسألن الذين أرسل إليهم**

---

(١) قال القارى لم يوجد له أصل . انظر كشف الخفاء (٢٥٢/١) وإتحاف السادة المتقين (٤٦٥/١٠) .

ولنسألن المرسلين فلنقص عليهم بعلم وما كنا غائبين ﴾[1] وقوله : ﴿ **فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون** ﴾[2] فيبدأ سبحانه بالأنبياء ﴿ **يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم قالوا لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب** ﴾[3] .

فيا لشدة يوم تذهل فيه عقول الأنبياء وتنمحى علومهم من شدة الهيبة؛ إذ يقال لهم : ما أجبتم وقد أرسلتم إلى الخلائق وكانوا قد علموا فتدهش عقولهم فلا يدرون بماذا يجيبون ، فيقولون من شدة الهيبة : لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب .

وهم فى ذلك الوقت صادقون إذ طارت منهم العقول وانمحت العلوم إلى أن يقويهم الله تعالى .

فيدعى نوح عليه السلام فيقال له : هل بلغت ؟ فيقول : نعم ، فيقال لأمته : هل بلغكم ؟ فيقولون : ما أتانا من نذير .

ويؤتى بعيسى عليه السلام فيقول الله تعالى : ﴿ **أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله** ﴾[4] فيبقى متشحطاً تحت هيبة هذا السؤال سنين .

فيالعظم يوم تقام فيه السياسة على الأنبياء بمثل هذا السؤال .

ثم تقبل الملائكة فينادون واحداً واحداً يا فلان بن فلانة هلم إلى موقف العرض ، وعند ذلك ترتعد الفرائص وتضطرب الجوارح وتبهت العقول، ويتمنى أقوام أن يذهب بهم إلى النار ولا تعرض قبائح أعمالهم على الجبار ، ولا يكشف سترهم على ملأ الخلائق .

وقبل الابتداء بالسؤال يظهر نور العرش ﴿ **وأشرقت الأرض بنور**

---

(١) سورة الزعراف الآية : ٦ ، ٧ .
(٢) سورة الحجر الآية : ٩٢ ، ٩٣ .
(٣) سورة المائدة الاية : ١٠٩ .
(٤) سورة المائدة الآية : ١١٦ .

ربها ﴾[1] وأيقن كل عبد بإقبال الجبار لمساءلة العباد ، وظن كل واحد أنه ما يراه أحد سواه ، وأنه المأخوذ بالأخذ والسؤال دون من عداه .

فيقول الجبار سبحانه وتعالى عند ذلك : يا جبريل ائتى بالنار ، فيجىء لها جبريل ويقول : يا جهنم أجيبى خالقك ومليكك فيصادفها جبريل على غيظها وغضبها .

فلم يلبث بعد ندائها أن ثارت وفارت وزفرت إلى الخلائق وشهقت وسمع الخلائق تغيظها وزفيرها ، وانتهضت خزنتها متوثبة إلى الخلائق غضباً على من عصى الله تعالى وخالف أمره .

فأخطر ببالك وأحضر فى قلبك حالة قلوب العباد وقد امتلأت فزعاً ورعباً فتساقطوا جثيا على الركب ، وولوا مدبرين يوم : **﴿ ترى كل أمة جاثية ﴾**[2] وسقط بعضهم على الوجوه منكبين وينادى العصاة والظالمون بالويل والثبور ، وينادى الصديقون نفسى نفسى .

فبينما هم كذلك إذ زفرت النار زفرتها الثانية فتضاعف خوفهم وتخاذلت قواهم وظنوا أنهم مأخوذون .

ثم زفرت الثالثة فتساقط الخلائق على وجوههم وشخصوا بأبصارهم ينظرون من طرف خفى خاشع ،وانهضمت عند ذلك قلوب الظالمين فبلغت الحناجر كاظمين ، وذهلت العقول من السعداء والأشقياء أجمعين .

وبعد ذلك أقبل الله تعالى على الرسل وقال ماذا أجبتم ؟

فإذا رأوا ما قد أقيم من السياسة على الأنبياء اشتدّ الفزع على العصاة ، ففرّ الوالد من ولده والأخ من أخيه والزوج من زوجته ، وبقى كل واحد منتظر لأمره .

---

(١) سورة الزمر الآية : ٦٩ .

(٢) سورة الجاثية الآية : ٢٨ .

البحث الثاني
صفة المساءلة

ثم يؤخذ واحد واحد فيسأله الله تعالى شفاها عن قليل عمله وكثيره وعن سره وعلانيته وعن جميع جوارحه وأعضائه .

قال أبو هريرة قالوا يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ فقال : « هل تضارُّون فى رؤية الشمس فى الظهيرة ليس دونها سحاب » قالوا : لا ، قال : « فهل تضارون فى رؤية ربكم ، فيلقى العبد فيقول له ألم أكرمك وأسودك وأزوجك وأسخر لك الخيل والإبل وأذرك ترأس وتربع ، فيقول العبد : بلى ، فيقول أظننت أنك ملاقىّ فيقول : لا . فيقول فأنا أنساك كما نسيتنى »[1] .

فتوهم نفسك يا مسكين وقد أخذت الملائكة بعضديك وأنت واقف بين يدى الله تعالى يسألك شفاهاً ، فيقول لك : ألم أنعم عليك بالشباب ففيماذا أبليته ؟ ألم أمهل لك فى العمر ففيماذا أفنيته ؟ ألم أرزقك المال فمن أين اكتسبته وفيماذا أنفقته ؟ ألم أكرمك بالعلم فماذا عملت فيما علمت ؟ فكيف ترى حياءك وخجلتك وهو يعدّ عليك إنعامه ومعاصيك وأياديه ومساويك ؟ فإن أنكرت شهدت عليك جوارحك .

قال أنس رضى الله عنه: كنا مع رسول الله ﷺ فضحك ثم قال: « أتدرون مم أضحك ؟ » قلنا : الله ورسوله أعلم ، قال : « من مخاطبة العبد ربه يقول يا رب ألم تجزنى من الظلم » قال : يقول « بلى » قال : « فيقول

---

(١) أخرجه مسلم ى كتاب الإيمان باب رؤية الله سبحانه وتعالى فى الآخرة ، والإمام أحمد فى المسند (٣٦٥/٤ ، ٣٦٦) والترمذى فى أبواب صفة الجنة باب ما جاء فى رؤية الرب تبارك وتعالى . انظر حديث رقم ٢٦٧٥ ج٧ / ٢٦٥ ، ٢٦٦ وقال أبو عيسى : هذا حديث صحيح ، وأبو داود فى السنن كتاب السنة باب فى الرؤية ، وابن ماجه فى المقدمة باب فيما أنكرت الجهمية حديث (١٧٧ ج١ ص٦٣) .

فإنى لا أجيز على نفسى إلا شاهداً منى فيقول كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً وبالكرام الكاتبين شهوداً » قال : « فيختم على فيه ويقال لأركانه انطقى » قال : « فتنطق بأعماله ثم يخلى بينه وبين الكلام فيقول لأعضائه بُعداً لَكُنّ وسُحْقاً فعنكنّ كنت أنَاضِل »[1] .

فنعوذ بالله من الافتضاح على ملأ الخلق بشهادة الأعضاء .

إلا أن الله تعالى وعد المؤمن بأن يستر عليه ولا يطلع عليه غيره .

سأل ابنَ عمر رجل فقال له : كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول فى النجوى ؟ فقال : قال رسول الله ﷺ : « يدنو أحدكم من ربه حتى يضع كنفه عليه فيقول عملت كذا وكذا ، فيقول نعم فيقول : عملت كذا وكذا ، فيقول : نعم ، ثم يقول : إنى سترتها عليك فى الدنيا وإنى أغفرها لك اليوم »[2] .

وقد قال رسول الله ﷺ : « من ستر على مؤمن عورته ستر الله عورته يوم القيامة »[3] .

فهذا إنما يرجى لعبد مؤمن ستر على الناس عيوبهم واحتمل فى حق نفسه تقصيرهم ولم يحرّك لسانه بذكر مساويهم ولم يذكرهم فى غيبتهم بما يكرهون لو سمعوه ، فهذا جدير بأن يجازى بمثله فى القيامة .

وهب أنه قد ستره عن غيرك أليس قد قرع سمعك النداء إلى العرض ؟ فيكفيك تلك الروعة جزاء عن ذنوبك ، إذ يؤخذ بناصيتك فتقاد وفؤادك مضطرب ولبك طائر وفرائصك مرتعدة وجوارحك مضطربة ولونك متغير

(١) أخرجه مسلم ى كتاب الزهد . انظر شرح النووى (١٨/١٠٤ ، ١٠٥) .

(٢) أخرجه البخارى فى كتاب المظالم والغصب (٣/١٦٨) وكتاب التفسير تفسير سورة هود (٦/٩٣) وكتاب الأدب باب ستر المؤمن على نفسه ، وأحمد فى المسند (٢/١٠٥) .

(٣) أخرجه الإمام أحمد فى المسند (٢/٢٧٤ ، ٤/١٥٩) بلفظ قريب وذكر الهيثمى فى مجمع الزوائد فى كتاب البر والصلة باب فضل قضاء الحوائج (٨/١٩٣) وقال عنه : رواه الطبرانى فى الأوسط والكبير وفيه شعيب بياع الأنماط وهو مجهول .

والعالم عليك من شدّة الهول مظلم ، فقدّر نفسك وأنت بهذه الصفة تتخطى الرقاب وتخرق الصفوف وتقاد كما تقاد الفرس المجنوب وقد رفع الخلائق إليك أبصارهم .

فتوهم نفسك أنك فى أيدى الموكلين بك على هذه الصفة حتى انتهى بك إلى عرش الرحمن فرموك من أيديهم وناداك الله سبحانه وتعالى بعظيم كلامه : يا ابن آدم ادن منى ، فدنوت منه بقلب خافق محزون وجل وطرف خاشع ذليل وفؤاد منكسر ، وأعطيت كتابك الذى لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، فكم من فاحشة نسيتها فتذكرتها ؟ وكم من طاعة غفلت عن آفاتها فانكشف لك عن مساويها ؟ فكم لك من خجل وجبن ؟ وكم لك من حصر وعجز ؟

فليت شعرى بأى قدم تقف بين يديه وبأى لسان تجيب وبأى قلب تعقل ما تقول ؟

ثم تفكر فى عظيم حياتك إذا ذكرك ذنوبك شفاها إذ يقول : يا عبدى؟ أما استحييت منى فبارزتنى بالقبيح واستحييت من خلقى فأظهرت لهم الجميل ، أكنت أهون عليك من سائر عبادى ، استخففت بنظرى إليك فلم تكترث واستعظمت نظر غيرى ، ألم أنعم عليك : فماذا غرّك بى أظننت أنى لا أراك وأنك لا تلقانى .

قال رسول الله ﷺ : « ما منكم من أحد إلا ويسأله الله رب العالمين ليس بينه وبينه حجاب ولا ترجمان »[1] .

وقال رسول الله ﷺ : « ليقفنّ أحدكم بين يدى الله عز وجل ليس بينه وبينه حجاب فيقول له ألم أنعم عليك ، ألم أوتك مالاً فيقول : بلى ،

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب الرقاق باب من نوقش الحساب هلك (٨٣/٤) ومسلم فى كتاب الزكاة باب الحث على الصدقة وأنواعها وأنها حجاب من النار شرح النووى (١٠١/٨) ، والإمام أحمد فى (٢٥٦/٤ ، ٣٧٧) .

فيقول: ألم أرسل إليك رسولاً فيقول : بلى . ثم ينظر عن يمينه فلا يرى إلا النار ثم ينظر عن شماله فلا يرى إلا النار ، فيلتق أحدكم النار ولو بشق تمرة فإن لم يجد فبكلمة طيبة »[1] .

وقال ابن مسعود : ما منكم من أحد إلا سيخلو الله عز وجل به كما يخلو أحدكم بالقمر ليلة البدر ، ثم يقول يا ابن آدم ما غرّك بى . يا ابن آدم ما عملت فيما علمت ؟ يا ابن آدم ماذا أجبت المرسلين ؟ يا ابن آدم ألم أكن رقيباً على عينك وأنت تنظر بها إلى ما لا يحل لك ، ألم أكن رقيباً على أذنيك ؟ وهكذا حتى عدّ سائر أعضائه .

وقال مجاهد : لا تزول قدما عبد يوم القيامة من بين يدى الله عز وجل حتى يسأله عن أربع خصال : عن عمره فيما أفناه ، وعن علمه ما عمل فيه ، وعن جسده فيما أبلاه ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه ؟

فأعظم يا مسكين بحيائك عند ذلك بخطرك فإنك بين أن يقال لك سترتها عليك فى الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم ـ فعند ذلك يعظم سرورك وفرحك ويغبطك الأوّلون والآخرون ـ وإما أن يقال للملائكة خذوا هذا العبد السوء فغلوه ثم الجحيم صلوه ـ وعند ذلك لو بكت السموات والأرض عليك لكان ذلك جديراً بعظيم معصيتك وشدّة حسرتك على ما فرّطت فيه من طاعة الله وعلى ما بعت آخرتك من دنيا دنيئة لم تبق معك !

* * *

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب الزكاة باب الصدقة قبل الرد وكتاب الرقاق باب من نوقش الحساب عذب ، ومسلم كتاب الزكاة باب الحث على الصدقة وأنواعها أنها حجاب من النار . انظر شرح النووى (١٠١/٨) بلفظ قريب ، وأحمد فى المسند (٢٥٦/٤ ، ٢٥٨) .

الفصل الرابع :

الميزان

وفيه :

البحث الأول : صفة الميزان .. والنجاة من خطره

البحث الثانى : صفة الخصماء ورد المظالم .

البحث الأول

صفة الميزان والنجاة من خطره

ثم لا تغفل عن الفكر فى الميزان وتطاير الكتب إلى الأيمان والشمائل.

فإنّ الناس بعد السؤال ثلاث فرق .

(**فرقة**) ليس لهم حسنة فيخرج من النار عنق أسود فيلقطهم لقط الطير الحب وينطوى عليهم ويلقيهم فى النار ، فتبتلعهم النار وينادى عليهم شقاوة لا سعادة بعدها.

(**وقسم آخر**) لا سيئة لهم فينادى مناد ليقم الحمادون لله على كل حال ، فيقومون ويسرحون إلى الجنة ، ثم يفعل ذلك بأهل قيام الليل ، ثم بمن لم تشغله تجارة الدنيا ولا بيعها عن ذكر الله تعالى . وينادى عليهم سعادة لا شقاوة بعدها .

(**ويبقى قسم ثالث**) وهم الأكثرون خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً وقد يخفى عليهم ولا يخفى على الله تعالى أن الغالب حسناتهم أو سيآتهم ، ولكن يأبى الله إلا أن يعرّفهم ذلك ليبين فضله عند العفو وعدله عند العقاب.

فتتطاير الصحف والكتب منطوية على الحسنات والسيئات وينصب الميزان وتشخص الأبصار إلى الكتب أتقع فى اليمين أو فى الشمال ؟ ثم إلى لسان الميزان أيميل إلى جانب السيئات أو إلى جانب الحسنات ؟

وهذه حالة هائلة تطيش فيها عقول الخلائق .

وروى الحسن : أن رسول الله ﷺ كان رأسه فى حجر عائشة رضى الله عنها فنعس ، فذكرت الآخرة فبكت حتى سال دمعها فنقط على خد رسول

الله ﷺ فانتبه فقال : « ما يبكيك يا عائشة ؟ » قالت : ذكرت الآخرة هل تذكرون أهليكم يوم القيامة ؟ قال : « والذى نفسى بيده فى ثلاث مواطن فإن أحداً لا يذكر إلا نفسه : إذا وضعت الموازين ، ووزنت الأعمال حتى ينظر ابن آدم أيخف ميزانه أم يثقل . وعند الصحف حتى ينظر أبيمينه يأخذ كتابه أو بشماله ، وعند الصراط »[1] .

وعن أنس : « يؤتى بابن آدم يوم القيامة حتى يوقف بين كفتى الميزان ويوكل به ملك ، فإن ثقل ميزانه نادى الملك بصوت يسمع الخلائق سعد فلان سعادة لا يشقى بعدها أبداً ، وإن خف ميزانه نادى بصوت يسمع الخلائق شقى فلان شقاوة لا يسعد بعدها أبداً . وعند خفة كفة الحسنات تقبل الزبانية وبأيديهم مقامع من حديد عليهم ثياب من نار فيأخذون نصيب النار إلى النار » .

قال رسول الله ﷺ فى يوم القيامة: « إنه يوم ينادى الله تعالى فيه آدم عليه السلام فيقول له : قم يا آدم فابعث بعث النار فيقول وكم بعث النار ؟ فيقول من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون » فلما سمع الصحابة ذلك أبلسوا حتىما أوضحوا بضاحكة » فلما رأى رسول الله ﷺ ماعند أصحابه قال : « اعملوا وأبشروا فوالذى نفس محمد بيده إن معكم لخليقتين ما كانتا مع أحد قط إلا كثرتاه مع من هلك من بنى آدم وبنى إبليس » قالوا وما هما يا رسول الله ؟ قال : « يأجوج ومأجوج » قال : فسرى عن القوم فقال : « اعملوا وأبشروا فوالذى نفس محمد بيده ما أنتم فى الناس يوم القيامة إلا كالشامة فى جنب البعير أو كالرقمة فى ذراع الدابة »[2] .

---

(١) حديث حسن : « أن عائشة ذكرت الآخرة فبكت ... الحديث » وفيه : فقال : « ما يبكيك يا عائشة » قالت : « ذكرت الآخرة هل تذكرون أهليكم يوم القيامة ... الحيث » أخرجه أبو داود من رواية الحسن : أنها ذكرت النار فبكت فقال : « ما يبكيك » دون كون رأسه صلى الله عليه وسلم فى حجرها وأنه نعس وإسناده جيد . (كتاب السنة ، باب فى ذكر الميزان) .

(٢) أخرجه البخارى فى كتاب الرقاق باب قوله عز وجل : ﴿ **إن زلزلة الساعة شىء عظيم** ﴾ أزفت الأزفة اقتربت الساعة ، ومسلم فى كتاب الإيمان باب بيان كون هذه الأمة نصف أهل الجنة . النووى (٩٧/٣) ، والإمام أحمد فى المسند (٤٣٢/٤ ، ٤٣٥) بلفظ قريب .

البحث الثاني

صفة الخصماء ورد المظالم

قد عرفت هول الميزان وخطره وأن الأعين شاخصة إلى لسان الميزان ﴿ **فأما من ثقلت موازينه فهو فى عيشة راضية وأما من خفت موازينه فأمه هاوية وما أدراك ما هية نار حامية** ﴾[١] .

واعلم أنه لا ينجو من خطر الميزان إلا من حاسب فى الدنيا نفسه ووزن فيها بميزان الشرع أعماله وأقواله وخطواته ولحظاته ، كما قال عمر رضى الله عنه : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوها قبل أن توزنوا : وإنما حسابه لنفسه أن يتوب عن كل معصية قبل الموت توبة نصوحاً ويتدارك ما فرط من تقصيره فى فرائض الله تعالى ، ويرّد المظالم حبة بعد حبة ، ويستحل كل من تعرض له بلسانه ويده وسوء ظنه بقلبه ، ويطيب قلوبهم ، حتى يموت ولم يبق عليه مظلمة ولا فريضة . فهذا يدخل الجنة بغير حساب .

وإن مات قبل ردّ المظالم أحاط به خصماؤه ؛ فهذا يأخذ بيده ، وهذا يقبض على ناصيته ، وهذا يتعلق بلبه ، هذا يقول ظلمتنى ، وهذا يقول شتمتنى ، وهذا يقول استهزأت بى ، وهذا يقول ذكرتنى فى الغيبة بما يسوءنى ، وهذا يقول جاورتنى فأسأت جوارى ، وهذا يقول عاملتنى فغششتنى ، وهذا يقول بايعتنى فغبنتنى وأخفيت عنى عيب سلعتك ، وهذا يقول رأيتنى محتاجاً وكنت غنياً فما أطعمتنى ، وهذا يقول وجدتنى مظلوماً وكنت قادراً على دفع الظلم عنى فداهنت الظالم وما راعيتنى . فبينا أنت كذلك وقد أنشب الخصماء فيك مخالبهم وأحكموا فى تلابيبك أيديهم

---

(١) سورة القارعة الآية : ٦ ـ ١١ .

وأنت مبهوت متحير من كثرتهم ـ حتى لو يبقى فى عمرك أحد عاملته على درهم أو جالسته فى مجلس إلا وقد استحق عليك مظلمة بغيبة أو خيانة أو نظر بعين استحقار ، وقد ضعفت عن مقاومتهم ومددت عنق الرجاء إلى سيدك ومولاك لعله يخلصك من أيديهم ـ إذ قرع سمعك نداء الجبار جل جلاله ﴿ **اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم** ﴾[1] فعند ذلك ينخلع قلبك من الهيبة وتوقن نفسك بالبوار ، وتتذكر ما أنذرك الله تعالى على لسان رسوله حيث قال : ﴿ **ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار مهطعين مقنعى رؤسهم لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء وأنذر الناس** ... ﴾[2] الآية .

فما اشد فرحك اليوم بتمضمضك بأعراض الناس وتناولك أموالهم !

وما أشدّ حسراتك فى ذلك اليوم إذا وقف ربك على بساط العدل وشوفِهْت بخطاب السياسة وأنت مفلس فقير عاجز مهين لا تقدر على أن تردّ حَقاً أو تظهر عذراً ! فعند ذلك تؤخذ حسناتك التى تعبت فيها عمرك وتنقل إلى خصمائك عوضاً عن حقوقهم .

قال أبو هريرة : قال رسول الله ﷺ : « هل تدرون من المفلس ؟ » قلنا: المفلس فينا يا رسول الله من لا درهم له ولا دينار ولا متاع . قال : « المفلس من أمتى من يأتى يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ، ويأتِى وقد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته ، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخِذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح فى النار »[3] .

فانظر إلى مصيبتك فى مثل هذا اليوم إذ ليس يسلم لك حسنة من

---

(١) سورة غافر الآية : ١٧ .

(٢) سورة إبراهيم الآية : ٤٢ ـ ٤٤ .

(٣) أخرجه مسلم فى كتاب البر والصلة والآداب باب تحريم الظلم ، النووى (١٣٥/١٦) ، وأحمد فى المسند (٣٠٣/٢ ، ٣٣٤) ، وانظر إتحاف السادة المتقين (٤٧٦/١٠) .

آفات الرياء ومكايد الشيطان ، فإن سلمت حسنة واحدة فى كل مدة طويلة ابتدرها خصماؤك وأخذوها .

ولعلك لو حاسبت نفسك وأنت مواظب على صيام النهار وقيام الليل؛ لعلمت أنه لا ينقضى عنك يوم إلا ويجرى على لسانك من غيبة المسلمين ما يستوفى جميع حسناتك ! فكيف ببقية السيئات من أكل الحرام والشبهات والتقصير فى الطاعات ؟ وكيف ترجو الخلاص من المظالم فى يوم يقتص فيه للجماء من القرْناء ؟

فقد روى أبو ذرّ : أن رسول الله ﷺ رأى شاتين ينتطحان فقال : « يا أبا ذرّ أتدرى فيم ينتطحان ؟ » قلت : لا . قال : « ولكن الله يدرى وسيقضى بينهما يوم القيامة »[1] .

وقال أبو هريرة فى قوله عز وجل : ﴿ **وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم** ﴾[2] أنه يحشر الخلق كلهم يوم القيامة ـ البهائم والدواب والطير وكل شىء ـ فيبلغ من عدل الله تعالى أن يأخذ للجماء من القرناء ، ثم يقول كونى تراباً ، فذلك حين يقول الكافر يا ليتنى كنت تراباً.

فكنت أنت يا مسكين فى يوم ترى صحيفتك خالية عن حسنات طال فيها تعبك فتقول : أين حسناتى ؟ فيقال : نقلت إلى صحيفة خصمائك .وترى صحيفتك مشحونة بسيئات طال فى الصبر عنها نصبك واشتدّ بسبب الكف عنها عناؤك فتقول : يا رب هذه سيئات ما قارفتها قط ! فيقال هذه سيئات القوم الذين اغتبتهم وشتمتهم وقصدتهم بالسوء وظلمتهم فى المبايعة والمجاورة والمخاطبة والمناظرة والمذاكرة والمدارسة وسائر أصناف المعاملة .

قال ابن مسعود : قال رسول الله ﷺ : « إن الشيطان قد يئس أن

(١) ذكره صاحب إتحاف السادة المتقين فى (٤٧٦/١٠) ثم قال عنه : قلت : ورواه كذلك الطيالسى فى مسنده ، ورواه الإمام أحمد فى المسند (١٦٢/٥) بلفظ قريب .
(٢) سورة الأنعام الآية : ٣٨ .

تعبد الأصنام بأرض العرب ولكن سيرضى منكم بما هو دون ذلك بالمحقرات وهى الموبقات ، فاتقوا الظلم ما استطعتم فإن العبد ليجئ يوم القيامة بأمثال الجبال من الطاعات فيرى أنهنّ سينجينه فما يزال عبد يجئ فيقول رب إن فلاناً ظلمنى بمظلمة فيقول امح من حسناته فما يزال كذلك حتى لا يبقى له من حسناته شىء ، وإن مثل ذلك مثل سفر نزلوا بفلاة من الأرض ليس معهم حطب فتفرق القوم فحطبوا فلم يلبثوا أن أعظموا نارهم وصنعوا ما أرادوا »[1] وكذلك الذنوب .

ولما نزل قوله تعالى : ﴿ **إنك ميت وإنهم ميتون ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون** ﴾[2] قال الزبير : يا رسول الله أيكرّر علينا ما كان بيننا فى الدنيا مع خواص الذنوب ؟ قال : « نعم ليُكَرَّرَنّ عليكم حتى تؤدوا إلى كل ذى حق حقه »[3] قال الزبير : والله إن الأمر لشديد .

فأعظم بشدّة يوم لا يسامح فيه بخطوة ولا يتجاوز فيه عن لطمة ولا عن كلمة حتى ينتقم للمظلوم من الظالم !

قال أنس : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يَحْشُرُ الله العباد عُرَاة غُبرا بُهما » قال : قلنا : ما بهما ؟ قال : « ليس معهم شىء ، ثم يناديهم ربهم تعالى بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب : أنا الملك أنا

---

(١) أخرجه الإمام مسلم مختصراً فى كتاب صفات المنافقين وأحكامهم باب تحريش الشيطان وبعثه سراياه لفتنة الناس وأن مع كل إنسان قريناً وذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد فى كتاب التوبة باب ما يخاف من الذنوب (١٠/١٨٩) وقال : رواه أبو يعلى وفيه إبراهيم من مسلم الهجرى وهو ضعيف ، وكتاب المناقب باب ما جاء فى أهل الحجاز وجزيرة العرب والطائف (١٠/٥٤) وقال : رواه البزار وإسناده حسن ، وقال فى الحديث الذى بعده رواه البزار ورجاله رجال الصحيح .

(٢) سورة الزمر الآية : ٣٠ ، ٣١ .

(٣) أخرجه الترمذى فى كتاب التفسير سورة الزمر (٥/٣٧٠) وقال عنه أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح . انظر تحفة الأحوذى (٩/١١٠ ، ١١١) وأخرجه أحمد فى المسند (١/١٦٤ ، ١٦٧) وأخرجه الطبرانى ورجاله ثقات . انظر مجمع الزوائد (٧/١٠٠) والحاكم فى المستدرك وقال عنه صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه وقال الذهبى رواه مسلم . انظر المستدرك كتاب التفسير تفسير سورة الزمر (٢/٤٣٥) ، والطبرى فى جامع البيان (٢٤/١) .

الديان لا ينبغى لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة ولا لأحد من أهل النار عليه مظلمة حتى أقتصه منه ، ولا لأحد من أهل النار أن يدخل النار ولأحد من أهل الجنة عنده مظلمة حتى أقتصه منه ؛ حتى اللطمة » قلنا : وكيف وإنما نأتى الله عز وجل عراة غبرا بهماً ؟ فقال: « بالحسنات والسيئات »[1] .

فاتقوا الله عباد الله ، ومظالم العباد بأخذ أموالهم والتعرض لأغراضهم وتضييق قلوبهم وإساءة الخلق فى معاشرتهم ، فإن ما بين العبد وبين الله خاصة فالمغفرة إليه أسرع ومن اجتمعت عليه مظالم وقد تاب عنها وعسر عليه استحلال أرباب المظالم فليكثر من حسناته ليوم القصاص وليسر ببعض الحسنات بينه وبين الله بكمال الإخلاص بحيث لا يطلع عليه إلا الله ، فعساه يقربه ذلك إلى الله تعالى فينال به لطفه الذى ادخره لأحبابه المؤمنين فى دفع مظالم العباد عنهم .

كما روى عن أنس عن رسول الله ﷺ أنه قال : بينما رسول ﷺ جالس إذ رأيناه يضحك حتى بدت ثنياياه فقال عمر : ما يضحكك يا رسول الله بأبى أنت وأمى ؟ قال : « رجلان من أمتى جثيا بين يدى رب العزة فقال أحدهما : يا رب خذ لى مظلمتى من أخى ، فقال الله تعالى : اعط أخاك مظلمته . قال : يا رب لم يبق من حسناته شيء . فقال الله تعالى للطالب : كيف تصنع ولم يبق من حسناته شيء قال : يا رب يتحمل عنى من أوزارى » قال : وفاضت عينا رسول الله ﷺ بالبكاء ثم قال : « إن ذلك ليوم عظيم يوم يحتاج الناس إلى أن يتحمل عنهم من أوزارهم » قال : فقال الله للطالب ارفع رأسك فانظر فى الجنان فرفع رأسه فقال : يا رب أرى مدائن من فضة مرتفعة وقصوراً من ذهب مكللة باللؤلؤ لأى نبى هذا أو لأى صدّيق هذا ؟ أو لأى شهيد هذا ؟ قال : لمن أعطانى الثمن ، قال : يا رب ومن يملك ثمنه ؟ قال : أنت تملكه . قال : وما هو ؟ قال عفوك عن

(١) أخرجه الحاكم فى المستدرك فى كتاب التفسير تفسير سورة (حم المؤمن) (٤٣٨/٢) وقال عنه : صحيح الإسناد ولم يخرجاه .

أخيك ، قال : يا رب إنى قد عفوت عنه ، قال الله تعالى : خذ بيد أخيك فأدخله الجنة ثم قال رسول الله ﷺ عند ذلك : « اتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم فإن الله يصلح بين المؤمنين »[1] .

وهذا تنبيه على أن ذلك إنما ينال بالتخلق بأخلاق الله وهو إصلاح ذات البين وسائر الأخلاق .

فتكفر الآن فى نفسك إن خلت صحيفتك عن المظالم أو تلطف لك حتى عفا عنك وأيقنت بسعادة الأبد ؛ كيف يكون سرورك فى منصرفك من مفصل القضاء وقد خلع عليك خلعة الرضا وعدت بسعادة ليس بعدها شقاء وبنعيم لا يدور بحواشيه الفناء ؟ وعند ذلك طار قلبك سروراً وفرحاً وابيض وجهك واستنار وأشرق كما يشرق القمر ليلة البدر ، فتوهم تبخترك بين الخلائق رافعاً رأسك خالياً عن الأوزار ظهرك ، ونضرة نسيم النعيم وبرد الرضا يتلألأ من جبينك ، وخلق الأوّلين والآخرين ينظرون إليك وإلى حالك ويغبطونك فى حسنك وجمالك ، والملائكة يمشون بين يديك ومن خلفك وينادون على رءوس الأشهاد : هذا فلان بن فلان رضى الله عنه وأرضاه وقد سعد سعادة لا يشقى بعدها أبدا ! أفترى أنّ هذا المنصب ليس بأعظم من المكانة التى تناله فى قلوب الخلق فى الدنيا بريائك ومداهنتك وتصنعك وتزينك ؟ فإن كنت تعلم أنه خير منه بل لا نسبة له إليه فتوسل إلى إدراك هذه الرتبة بالإخلاص الصافى والنية الصادقة فى معاملتك مع الله فلن تدرك ذلك إلا به .

وإن تكن الأخرى والعياذ بالله بأن خرج من صحيفتك جريمة كنت تحسبها هينة وهى عند الله عظيمة فمقتك لأجلها فقال : عليك لعنتى يا عبد السوء لا أتقبل منك عبادتك ، فلا تسمع هذا النداء إلا ويسودّ وجهك، ثم تغضب الملائكة لغضب الله تعالى فيقولون : وعليك لعنتنا ولعنة

(١) الحديث بطوله ... أخرجه : ابن أبى الدنيا فى حسن الظن بالله تعالى ، والحاكم فى المستدرك

الخلائق أجمعين ، وعند ذلك تنثال إليك الزبانية وقد غضبت لغضب خالقها فأقدمت عليك بفضاظتها وزعارتها وصورها المنكرة ، فأخذوا بناصيتك يسحبونك على وجهك على ملأ الخلق وهم ينظرون إلى اسوداد وجهك وإلى ظهور خزيك ، وأنت تنادى بالويل والثبور ، وهم يقولون لك : لا تدْع اليوم ثبورا واحدا وادع ثبورا كثيرا . وتنادى الملائكة ويقولون : هذا فلان بن فلان كشف الله عن فضائحه ومخازيه ولعنه بقبائح مساويه فشقى شقاوة لا يسعد بعدها أبدا . وربما يكون ذلك بذنب أذنبته خفية عن عباد الله أو طالباً للمكانة فى قلوبهم أو خوفاً من الافتضاح عندهم ، فما أعظم جهلك إذ تحترز عن الافتضاح عند طائفة يسيرة من عباد الله فى الدنيا المنقرضة ثم لا تخشى من الافتضاح العظيم فى ذلك الملأ العظيم مع التعرّض لسخط الله وعقابه الأليم والسياق بأيدى الزبانية إلى سواء الجحيم !

فهذه أحوالك وأنت لم تشعر بالخطر الأعظم وهو خطر الصراط .

* * *

الفصل الخامس :

الصـــــراط

وفيه :

البحث الأول : صفـة الصراط.

البحث الثانى : مـاذا نفعـــل ؟

البحث الأول

صفة الصراط

ثم تفكر بعد هذه الأهوال فى قول الله تعالى : ﴿ **يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً ونسوق المجرمين إلى جهنم ورْداً** ﴾[1] وفى قوله تعالى : ﴿ **فاهدوهم إلى صراط الجحيم * وقفوهم إنهم مسئولون** ﴾[2] فالناس بعد هذه الأهوال يساقون إلى الصراط - وهو جسر ممدود على متن النار أحدّ من السيف وأدق من الشعر - فمن استقام فى هذا العالم على الصراط المستقيم خفَّ على صراط الآخرة ونجا ، ومن عدل عن الاستقامة فى الدنيا وأثقل ظهره بالأوزار وعصى تعثر فى أوّل قدم من الصراط وتردّى .

فتفكر الآن فيما يحل من الفزع بفؤادك إذ رأيت الصراط ودقته ، ثم وقع بصرك على سواد جهنم من تحته ، ثم قرع سمعك شهيق النار وتغيظها، وقد كلفت أن تمشى على الصراط مع ضعف حالك واضطراب قلبك وتزلزل قدمك وثقل ظهرك بالأوزار المانعة لك عن المشى على بساط الأرض فضلاً عن حدّة الصراط .

فكيف بك إذا وضعت عليه إحدى رجليك فأحسست بحدّته ، واضطررت إلى أن ترفع القدم الثانية والخلائق بين يديك يزلون ويتعثرون ، وتتناولهم زبانية النار بالخطاطيف والكلاليب ، وأنت تنظر إليهم كيف يتنكسون فتتسفل إلى جهة النار رءوسهم وتعلو أرجلهم ؟ فياله من منظر ما أفظعه ومرتقى ما أصعبه ومجاز ما أضيقه !

فانظر إلى حالك وأنت تزحف عليه وتصعد إليه وأنت مثقل الظهر

---

(١) سورة مريم الآية : ٨٥ ، ٨٦ .

(٢) سورة الصافات الآية : ٢٣ ، ٢٤ .

بأوزارك ، تلتفت يميناً وشمالاً إلى الخلق وهم يتهافتون فى النار والرسول عليه السلام يقول : « يا رب سلِّمْ سلم » والزعقات بالويل والثبور قد ارتفعت إليك من قعر جهنم لكثرة من زل عن الصراط من الخلائق ، فكيف بك لو زلت قدمك ولم ينفعك ندمك ؟ فناديت بالويل والثبور وقلت: هذا ما كنت أخافه فيا ليتنى قدّمت لحياتى ! يا ليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا! يا ويلتا ليتنى لم أتخذ فلاناً خليلا ! يا ليتنى كنت تراباً ! يا ليتنى كنت نسيا منسيا ! يا ليت أمى لم تلدنى ! وعند ذلك تختطفك النيران ـ والعياذ بالله ـ وينادى المنادى : ﴿ **اخْسَئُوا فيها ولا تُكلمُون** ﴾[1] فلا يبقى سبيل إلا الصياح والأنين والتنفس والاستغاثة .

فكيف ترى الآن عقلك وهذه الأخطار بين يديك ؟ فإن كنت غير مؤمن بذلك فما أطول مقامك مع الكفار فى دركات جهنم ! وإن كنت به مؤمناً وعنه غافلاً وبالاستعداد له متهاوناً فما أعظم خسرانك وطغيانك وماذا ينفعك إيمانك إذا لم يبعثك على السعى فى طلب رضا الله تعالى بطاعته وترك معاصيه ؟

فلو لم يكن بين يديك إلا هول الصراط وارتياع قلبك من خطر الجواز عليه ـ وإن سلمت ـ فناهيك به هولاً وفزعاً ورعباً !

قال رسول الله ﷺ : « يُضْرَبُ الصراط بين ظهرانى جهنم فأكون أوّل من يجيز بأمته من الرسل ، ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل ، ودعوى الرسل يومئذ : اللهم سلم اللهم سلم ، وفى جهنم كلاليب مثل شوك السعدان هل رأيتم شوك السعدان ؟ » قالوا : نعم يا رسول الله . قال : « فإنها مثل شوك السعدان غير أنه لا يعلم قدر عظمها إلا الله تعالى تختطف الناس بأعمالهم فمنهم من يوبق بعمله ومنهم من يخردل ثم ينجو »[2] .

---

(١) سورة المؤمنون الآية : ١٠٨ .

(٢) حديث « ينصب الصراط بين ظهرانى جهنم فأكون أول من يجيز » متفق عليه من حديث أبى هريرة فى أثناء حديث طويل .

وقال أبو سعيد الخدرى : قال رسول الله ﷺ : « يمر الناس على جسر جهنم وعليه حَسَكٌ وكلاليب وخطاطيف تختطف الناس يميناً وشمالاً وعلى جنبتيه ملائكة يقولون : اللهم سلم اللهم سلم ، فمن الناس من يمر مثل البرق ، ومنهم من يمر كالريح ، ومنهم من يمر كالفرس المجرى ، ومنهم من يسعى سعياً ، ومنهم من يمشى مشياً ، ومنهم من يحبو حبواً ، ومنهم من يزحف زحفاً ، فأما أهل النار الذين هم أهلها فلا يموتون ولا يحيون ، وأما ناس فيؤخذون بذنوب وخطايا فيحترقون فيكونون فحماً ثم يؤذن فى الشفاعة »[1] وذكر إلى آخر الحديث .

وعن ابن مسعود رضى الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال : « يجمع الله الأوّلين والآخرين لميقات يوم معلوم قياماً أربعين سنة شاخصة أبصارهم إلى السماء ينتظرون فصل القضاء » . وذكر الحديث إلى أن ذكر وقت سجود المؤمنين قال : « ثم يقول للمؤمنين ارفعوا رؤوسكم فيرفعون رؤوسهم فيعطيهم نورهم على قدر أعمالهم فمنهم من يعطى نوره مثل الجبل العظيم يسعى بين يديه ، ومنهم من يعطى نوره أصغر من ذلك ، ومنهم من يعطى نوره مثل النخلة ، ومنهم من يعطى نوره أصغر من ذلك حتى يكون آخرهم رجلاً يعطى نوره على إبهام قدمه فيضئ مرة ويخبو مرة فإذا أضاء قدّم قدمه فمشى وإذا أظلم قام » ثم ذكر مرورهم على الصراط على قدر نورهم «فمنهم من يمر كطرف العين ، ومنهم من يمر كالبرق ، ومنهم من يمر كالسحاب ، ومنهم من يمرّ كانقضاض الكواكب ، ومنهم من يمر كشدّ الفرس ، ومنهم من يمر كشدّ الرجل حتى يمرّ الذى أعطى نوره على إبهام قدمه يحبو على وجهه ويديه ورجليه تجر منه يد وتعلق أخرى تعلق رجل وتجر أخرى وتصيب جوانبه النار » قال : « فلا يزال كذلك حتى يخلص فإذا

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب التوحيد باب قول الله تعالى : ﴿ **وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة** ﴾ ، ومسلم فى كتاب الإيمان باب رؤية الله سبحانه وتعالى فى الآخرة ، وأحمد فى المسند (١١/٣ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٣٤٥ ، ٣٨٣ ، ٦ ١١٠) .

خلص وقف عليها ثم قال الحمد لله لقد أعطانى الله ما لم يعط أحداً إذ نجانى منها بعد إذ رأيتها فينطلق به إلى غدير عند باب الجنة فيغتسل »[1] .

وقال أنس بن مالك : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « الصراط كحدّ السيف أو كحدّ الشعرة وإنّ الملائكة ينجون المؤمنين والمؤمنات وإنّ جبريل عليه السلام لآخذ بحجزتى وإنى لأقول يا رب سلم سلم فالزالون والزالات يومئذ كثير »[2] .

* * *

---

(١) أخرجه الطبرانى من طرق ورجال أحدها رجال الصحيح غير أبى خالد الدالانى وهو ثقة . انظر مجمع الزوائد كتاب البعث باب جامع فى البعث (٣٤٠/١٠ ، ٣٤١ ، ٣٤٣) .

(٢) ذكره صاحب كشف الخفاء فى (٢٤/٢) وقال عنه : رواه البيهقى فى الشعب عن أنس مرفوعاً وقال إسناده ضعيف . وروى عن زياد النميرى عن أنس مرفوعاً « الصراط كحد الشعرة أو كحد السيف . وقال : وهى رواية صحيحة ، ورواه أحمد بسند فيه ابن لهيعة عن عائشة أ هـ .

البحث الثاني

مـاذا نفعل ..؟

فهذه أهوال الصراط وعظائمه . فطوّل فيه فكرك ، فإن أسلم الناس من أهوال يوم القيـامة من طال فيـها فكره فى الدنيا ، فإنّ الله لا يجمع بين خوفين على عبد ، فمن خاف هذه الأهوال فى الدنيا أمنها فى الآخرة .

ولست أعنى بالخوف رقة كرقة النساء تدمع عينك ويرق قلبك حال السمـاع ثم تنساه على القرب وتعود إلى لهوك ولعبك ؟ فـما هذا من الخوف فى شيء ! بل من خاف شيئاً هرب منه ، ومن رجا شيئاً طلبه ، فلا ينجيك إلا خوف يمنعك عن معاصى الله تعالى ويحثك على طاعته .

وأبعد من رقة النساء خوف الحمقى إذا سمعوا الأهوال سبق إلى ألسنتهم الاستعاذة فقال أحدهم : استعذت بالله نعوذ بالله اللهم سلم سلم . وهم مع ذلك مصرون على المعاصى التى هى سبب هلاكهم . فالشيطان يضحك من استعاذتهم ، كما يضحك على من يقصده سبع ضار فى صحراء ووراءه حصن ، فإذا رأى أنياب السبع وصولته من بعد قال بلسانه : أعوذ بهذا الحصن الحصين وأستعين بشدّة بنيانه وإحكام أركانه ! فيقول ذلك بلسانه وهو قاعد فى مكانه فأنى يغنى عنه ذلك من السبع ؟

وكذلك أهوال الآخرة ليس لها حصن إلا قول ﴿ **لا إلـه إلا الله** ﴾ صادقاً ومعنى صدقه أن لا يكون له مقصود سوى الله تعالى ولا معبود غيره . ومن اتخذ إلهه هواه فهو بعيد من الصدق فى توحيده وأمره مخطر فى نفسه.

فإن عجزت عن ذلك كله فكن محبّاً لرسول الله ﷺ حريصاً على تعظيم سننه ومتشوّقاً إلى مراعاة قلوب الصالحين من أمّته ومتبركاً بأدعيتهم فعساك أن تنال من شفاعته أو شفاعتهم فتنجو بالشفاعة إن كنت قليل البضاعة .

الفصل السادس

الشـــفاعـة

وفيه :

البحث الأول : شـواهد الشفاعة .

البحث الثانى : صـفة الشـفاعة .

البحث الأول

شواهد الشفاعة

اعلم أنه إذا حق دخول النار على طوائف من المؤمنين فإن الله تعالى بفضله يقبل فيهم شفاعة الأنبياء والصدّيقين ، بل شفاعة العلماء والصالحين .

وكل من له عند الله تعالى جاه وحسن معاملة فإن له شفاعة فى أهله وقرابته وأصدقائه ومعارفه .

فكن حريصاً على أن تكتسب لنفسك عندهم رتبة الشفاعة .

وذلك : بأن لا تحقر آدمياً أصلاً فإن الله تعالى خبأ ولايته فى عباده ، فلعل الذى تزدريه عينك هو ولى الله ، ولا تستصغر معصية أصلاً فإن الله تعالى خبأ غضبه فى معاصيه فلعل مقت الله فيه ، ولا تستحقر أصلاً طاعة فإن الله تعالى خبأ رضاه فى طاعته فلعل رضاه فيه ، ولو الكلمة الطيبة أو النية الحسنة أو ما يجرى مجراه .

وشواهد الشفاعة فى القرآن والأخبار كثيرة :

قال الله تعالى : ﴿ **ولسوف يعطيك ربك فترضى** ﴾[(١)] .

روى عمرو بن العاص : أن رسول الله ﷺ تلا قول إبراهيم عليه السلام : ﴿ **رب إنهنّ أضللن كثيراً من الناس فمن تبعنى فإنه منى ومن عصانى فإنك غفور رحيم** ﴾[(٢)] وقول عيسى عليه السلام : ﴿ **إنْ تُعَذِّبْهُمْ فإنهم عِبَادُكَ** ﴾[(٣)] ثم رفع يديه وقال « أمتى أمتى » ثم بكى فقال الله عز

(١) سورة الضحى الآية : ٥ .
(٢) سورة إبراهيم الآية : ٣٦ .
(٣) سورة المائدة الآية : ١١٨ .

وجل : يا جبريل اذهب إلى محمد فسله ما يبكيك ، فأتاه جبريل فسأله فأخبره ـ والله أعلم به ـ فقال : يا جبريل اذهب إلى محمد فقل له إنا سنرضيك فى أمّتك ولا نسوءك[1] .

وقال صلى الله عليه وسلم : « أعطيت خمساً لم يُعْطَهُنّ أحد قبلى : نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وأحلّتْ لى الغنائم ولم تَحلّ لأحد قبلى ، وجعلت لى الأرض مسجداً وترابها طهورا فأيما رجل من أمّتى أدركته الصلاة فليصل ، وأعطيت الشفاعة ، وكل نبى بعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة »[2] .

وقال صلى الله عليه وسلم : « إذا كان يوم القيامة كنت إمام النبيين وخطيبهم وصاحب شفاعتهم من غير فخر »[3] .

وقال صلى الله عليه وسلم : « أنا سيد ولد آدم ولا فخر ، وأنا أوّل من تنشق الأرض عنه ، وأنا أوّل شافع وأوّل مشفع بيدى لواء الحمد تحته آدم فمن دونه »[4] .

وقال صلى الله عليه وسلم : « لكل نبى دعوة مستجابة فأريد أن أختبئ

---

(١) قال العراقى : ليس هو من حديث عمرو بن العاص وإنما هو من حديث ابنه عبد الله بن عمرو بن العاص كما رواه مسلم ولعله سقط من الإحياء . ذكر عبد الله من بعض النساخ .
والحديث : أخرجه مسلم كتاب الإيمان باب دعاء النبى ﷺ لأمته وبكائه شفقة عليهم .

(٢) أخرجه البخارى فى كتاب الصلاة باب قول النبى ﷺ : « جعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً » ، وأخرجه مسلم فى كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، وأخرجه الإمام أحمد فى المسند (٢٥٠/١ ، ١٤٨/٥) .

(٣) أخرجه ابن ماجه فى كتاب الزهد باب الشفاعة ، وأحمد فى المسند (١٣٧/٥ ، ١٣٨) ، والحاكم فى المستدرك كتاب معرفة الصحابة ذكر فضائل الأنصار رضى الله عنهم (٧٨/٤) وقال عنه: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه بهذه السياقة وصححه الذهبى .

(٤) أخرجه مسلم فى كتاب الفضائل باب تفضيل نبينا ﷺ على جميع الخلائق ، والترمذى فى كتاب المناقب باب ما جاء فى فضل النبى ﷺ باب ٢٢ منه ، وقال عنه : أبو عيسى : وهو حديث حسن وأخرجه الدارمى فى المقدمة باب ما أعطى النبى ﷺ من الفضل (٢٥/١ ، ٢٨) وكتاب السنة باب فى التخيير بين الأنبياء عليهم الصلاة والسلام (٢١٧/٤ ، ٢١٨) وأحمد فى المسند (٢٨١/١ ، ٢/٣ ، ٥٤٠/٢) وابن ماجة فى كتاب الزهد باب ذكر الشفاعة .

دعوتى شفاعة لأمتى يوم القيامة »[1] .

وقال ابن عباس رضى الله عنهما : « قال رسول الله ﷺ : « ينصب للأنبياء منابر من ذهب فيجلسون عليها ، ويبقى منبرى لا أجلس عليه قائما بين يدى ربى منتصباً مخافة أن يبعث بى إلى الجنة وتبقى أمتى بعدى ، فأقول : يا رب أمتى . فيقول الله عز وجل : يا محمد وما تريد أن أصنع بأمّتك ؟ فأقول : يا رب عجل حسابهم فما أزال أشفع حتى أعطى صكاكا برجال قد بعث بهم إلى النار وحتى إن مالكا خازن النار يقول : يا محمد ما تركت النار لغضب ربك فى أمّتك من بقية »[2] .

وقال صلى الله عليه وسلم : « إنى لأشفع يوم القيامة لأكثر مما على وجه الأرض من حجر ومدر »[3] .

* * *

(١) أخرجه مسلم فى كتاب الإيمان باب الشفاعة ، والبخارى فى كتاب الدعوات فى الترجمة ، وابن أبى عاصم فى السنة (٣٧/٢) ، والدارمى فى كتاب الرقائق باب « إن لكل نبى دعوة » (٣٢٨/٢) ، وأحمد فى المسند (٢٩٥/١) ، وابن ماجه فى كتاب الزهد باب ذكر الشفاعة .

(٢) أخرجه الطبرانى فى المعجم الأوسط (٤٤٦/٣ ، ٤٤٧) وقال عنه : لم يروه عن محمد ابن ثابت إلا أبو عبيدة ، وأحمد فى (٣٢٨/٥ ، ٣٤٣) وقال العراقى فى إسناده محمد بن ثابت والبنانى ضعيف .

(٣) ذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد كتاب المناقب باب فضل أهل البيت رضى الله عنهم (١٧١/٩) وقال : رواه البزار وفيه من لم أعرفه والبغدادى فى تاريخه (٣٣٠/١٢) .

البحث الثاني

صفة الشفاعة

وقال أبو هريرة : أتى رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم بلحم فرفع إليه الذراع وكانت تعجبه فنهش منها نهشة ثم قال : « أنا سيد المرسلين يوم القيامة ، وهل تدرون مِمّ ذلك ؟ يجمع الله الأوّلين والآخرين في صعيد واحد يسمعهم الداعى وينفذهم البصر وتدنو الشمس فيبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يطيقون ولا يحتملون ، فيقول الناس بعضهم لبعض : ألا ترون ما قد بلغكم ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم ؟

فيقول بعض الناس : عليكم بآدم عليه السلام .

فيأتون آدم فيقولون له : أنت أبو البشر خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأمر الملائكة فسجدوا لك اشفع لنا إلى ربك ألا ترى ما نحن فيه ؟ ألا ترى ما قد بلغنا ؟ فيقول لهم آدم عليه السلام : إن ربى قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله وإنه قد نهانى عن الشجرة فعصيته ؛ فنفسى نفسى ! اذهبوا إلى غيرى اذهبوا إلى نوح .

فيأتون نوحاً عليه السلام فيقولون : يا نوح أنت أول الرسل إلى أهل الأرض وقد سماك الله عبداً شكوراً اشفع لنا إلى ربك ألا ترى ما نحن فيه ؟ فيقول إن ربى قد غضب اليوم غضباً لم يغضبه قبله مثله ولا يغضب بعده مثله ، وإنه قد كانت لى دعوة دعوتها على قومى ؛ نفسى نفسى ! اذهبوا إلى غيرى اذهبوا إلى إبراهيم خليل الله .

فيأتون إبراهيم خليل الله عليه السلام فيقولون : أنت نبى الله وخليله من أهل الأرض اشفع لنا إلى ربك ألت ترى ما نحن فيه ؟ فيقول لهم : إن ربى قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله ، وإنى

كنت كذبت ثلاث كذبات ويذكرها ؛ نفسى نفسى ! اذهبوا إلى غيرى اذهبوا إلى موسى .

فيأتون موسى عليه السلام فيقولون : يا موسى أنت رسول الله فضلك برسالته وبكلامه على الناس اشفع لنا إلى ربك ألا ترى ما نحن فيه ؟ فيقول: إن ربى قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله ، وإنى قتلت نفساً لم أومر بقتلها ؛ نفسى نفسى ! اذهبوا إلى غيرى اذهبوا إلى عيسى عليه السلام .

فيأتون عيسى عليه السلام فيقولون : يا عيسى أنت رسول الله ألقاك إلى مريم وروح منه وكلمت الناس فى المهد اشفع لنا إلى ربك ألا ترى ما نحن فيه ؟ فيقول عيسى عليه السلام : إنى ربى غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله ، ولم يذكر ذنباً ؛ نفسى نفسى ! اذهبوا إلى غيرى اذهبوا إلى محمد ﷺ .

فيأتون فيقولون : يا محمد أنت رسول الله وخاتم النبيين وغفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر اشفع لنا إلى ربك ألا ترى ما نحن فيه ؟ فأنطلق فآتى تحت العرش فأقع ساجداً لربى ، ثم يفتح الله لى من محامده وحسن الثناء عليه شيئاً لم يفتحه على أحد قبلى ، ثم يقال : يا محمد ارفع رأسك سل تعط واشفع تشفع ، فأرفع رأسى فأقول : أمتى أمتى يا رب ؛ فيقال : يا محمد أدخل من أمتك من لا حساب عليهم من الباب الأيمن من أبواب الجنة وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب » ثم قال : « والذى نفسى بيده إن بين المصراعين من مصاريع الجنة كما بين مكة وحمير أو كما بين مكة وبصرى »(١) .

وفى حديث آخر : هذا السياق بعينه مع ذكر خطايا إبراهيم ؛ وهو قوله

---

(١) أخرجه البخارى فى كتاب التفسير تفسير سورة الإسراء باب « ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبداً شكوا » ، ومسلم فى كتاب الإيمان ٣٢٧ ، ٣٢٨ ، وأحمد فى المسند (٢٨١/١ ، ٢٩٥، ٤٣٥/٢، ١٤٤/٣ ، ٣٨٨/٥) .

فى الكواكب هذا ربى ، وقوله لآلهتم بل فعله كبيرهم هذا ، وقوله إنى سقيم .

فهذه شفاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولآحاد أمته من العلماء والصالحين شفاعة أيضاً حتى قال رسول الله ﷺ : « يدخل الجنة بشفاعة رجل من أمتى أكثر من ربيعة ومضر »(١) .

وقال صلى الله عليه وسلم : « يقال للرجل قم يا فلان فاشفع فيقوم الرجل فيشفع للقبيلة ولأهل البيت وللرجل والرجلين على قدر عمله »(٢) .

وقال أنس : قال رسول الله ﷺ : « إنّ رجلا من أهل الجنة يشرف يوم القيامة على أهل النار فيناديه رجل من أهل النار ويقول : يا فلان هل تعرفنى؟ فيقول : لا والله ما أعرفك من أنت ؟ فيقول : أنا الذى مررت بى فى الدنيا فاستسقيتنى شربة ماء فسقيتك ، قال : قد عرفت ، قال : فاشفع لى بها عند ربك ! فيسأل الله تعالى ذِكْرُه ويقول : إنى أشرفت على أهل النار فنادانى رجل من أهلها فقال : هَل تعرفنى ؟ فقلت : لا من أنت ؟ فقال : أنا الذى استسقيتنى فى الدنيا فسقيتك فاشفع لى عند ربك فشفعنى فيه ، فيشفعه الله فيه فيؤمر فيخرج من النار »(٣) .

وعن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « أنا أوّل الناس خروجاً إذا بُعثوا، وأنا خطيبهم إذا وَفَدُوا وأنا مبشرهم إذا يئسوا ، لواء الحمد يومئذ بيدى

(١) أخرجه الإمام أحمد فى المسند (٢١٢/٤) بلفظ قريب ، والطبرانى فى الكبير (٣٣٠/٨) وانظر إتحاف السادة المتقين (٤٩٥/١٠ ، ٤٩٦) ورواه : الترمذى وابن ماجه ، وقال الترمذى : حسن صحيح .

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى المسند (٢٠/٣ ، ٦٣) بلفظ قريب ، والترمذى بلفظ قريب فى أبواب صفة القيام باب ما جاء فى الشفاعة (٤٦/٤) وقال عنه أبو عيس هذا حديث حسن وذكره صاحب إتحاف السادة المتقين فى (٤٩٦/١٠) ثم قال : حديث أبى سعيد رواه أيضاً أحمد وأبو يعلى وابن خزيمة وتمام ومنهم من يشفع للعصبة ، ومنهم من يشفع للرجل حتى يدخلوا الجنة .

(٣) أخرجه المنذرى فى الترغيب والترهيب كتاب الصدقات باب ما جاء فى فضل الصدقة (٦٩/٢ ، ٧٠) وابن ماجه فى كتاب الأدب باب فضل صدقة الماء (١٢١٥/٢) حديث رقم ٣٦٨٥.

وأنا أكرم ولد آدم على ربى ولا فخر »[1] .

وقال رسول الله ﷺ : « إنى أقوم بين يدى ربى عز وجل فأكسى حلة من حلل الجنة ثم أقوم عن يمين العرش ليس أحد من الخلائق يقوم ذلك المقام غيرى »[2] .

وقال ابن عباس رضى الله عنهما : جلس ناس من أصحاب رسول ﷺ ينتظرونه فخرج حتى إذا دنا منهم سمعهم يتذاكرون فسمع حديثهم فقال بعضهم : عجباً إنّ الله عز وجل اتخذ من خلقه خليلاً اتخذ إبراهيم خليلاً ! وقال آخر : ماذا بأعجب من كلام موسى كله تكليما وقال آخر : فعيسى كلمة الله وروحه ! وقال آخر : آدم اصطفاه الله ، فخرج عليهم صلى الله عليه وسلم وقال : « سمعت كلامكم وتعجبكم إنّ إبراهيم خليل الله وهو كذلك ، وموسى نجى الله وهو كذلك ، وعيسى روح الله وكلمته وهو كذلك ، وآدم اصطفاه الله وهو كذلك ، ألا وأنا حبيب الله ولا فخر وأنا حامل لواء الحمد يوم القيامة ولا فخر وأنا أوّل مشفع يوم القيامة ولا فخر وأنا أوّل من يحرك حلق الجنة فيفتح الله لى فأدخلها ومعى فقراء المؤمنين ولا فخر وأنا أكرم الأولين والآخرين ولا فخر »[3] .

* * *

(١) أخرجه الدارمى فى المقدمة باب ما أعطى النبى ﷺ من الفضل (١/٢٦ ، ٢٧) والترمذى فى كتاب المناقب باب ما جاء فى فضل النبى ﷺ ٢١ منه (٥/٢٤٥) وقال أبو عيسى : هذا حديث حسن غريب .

(٢) أخرجه الترمذى فى كتاب المناقب باب ما جاء فى فضل النبى ﷺ ٢١ منه بلفظ قريب ، وقال عنه أبو عيسى : حديث حسن غريب صحيح (٥/٢٤٥ ، ٢٤٦) .

(٣) أخرجه الدارمى فى المقدمة باب ما أعطى النبى ﷺ من الفضل (١/٢٦) وابن كثير فى البداية والنهاية (١/١٦٩) وقال عنه : هذا حديث غريب من هذا الوجه وله شواهد من وجوه آخرى والله أعلم .

الفصل السابع :

الحـــوض

* صفة الحـوض
* تعقــيب

صفة الحوض

اعلم أنّ الحوض مكرمة عظيمة خص الله بها نبينا ﷺ

وقد اشتملت الأخبار على وصفه .

ونحن نرجو أن يرزقنا الله تعالى فى الدنيا علمه وفى الآخرة ذوقه ، فإنّ من شرب منه لم يظمأ أبداً .

قال أنس : أغفى رسول الله ﷺ إغفاء فرفع رأسه متبسماً فقالوا له : يا رسول الله لم ضحكت ؟ فقال : « آية نزلت علىّ آنفاً » وقرأ : ﴿ **بسم الله الرحمن الرحيم ـ إنا أعطيناك الكوثر** ﴾ حتى ختمها ثم قال : « هل تدرون ما الكوثر ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : « إنه نهر وعدنيه ربى عز وجل فى الجنة عليه خير كثير ، هو حوض ترد عليه أمتى يوم القيامة آنيته عدد نجوم السماء »[1] .

وقال أنس : قال رسول الله ﷺ : « بينما أنا أسير فى الجنة إذا بنهر حافتاه قباب اللؤلؤ المجوّف قلت : ما هذا يا جبريل ؟ قال : هذا الكوثر الذى أعطاك ربك فضرب الملك بيده فإذا طينه مسك أذفر »[2] .

وقال كان رسول الله ﷺ يقول : « ما بين لابتى حوضى مثل ما بين المدينة وصنعاء ـ أو مثل ما بين المدينة وعمان ـ »[3] .

(١) أخرجه مسلم فى كتاب الصلاة باب حجة من قال البسملة آية من كل سورة سوى «براءة» وأحمد فى المسند (١٠٢/٣) وأبو داود فى السنن فى كتاب باب فى الحوض والنسائى فى كتاب الافتتاح باب قراءة بسم الله الرحمن الرحيم .

(٢) أخرجه البخارى فى كتاب التفسير تفسير سورة « إنا أعطيناك الكوثر » وكتاب الرقاق باب الحوض ، ومسلم فى كتاب الصلاة باب فى الحوض ، والترمذى فى كتاب التفسير باب ومن سورة الكوثر وأبو داود فى كتاب السنة باب فى الحوض ، والنسائى فى كتاب الصلاة باب قراءة بسم الله الرحمن الرحيم ، وابن ماجه فى الزهد باب ذكر الحوض رقم ٤٣٠٥ وعبد الرازق فى تفسيره (١٢٦٠/٣) ، وأحمد فى المسند (١٠٣/٣) وابن كثير فى التفسير (٥٥٦/٤) .

(٣) أخرجه مسلم فى كتاب الفضائل باب إثبات حوض نبينا ﷺ وصفاته ، وابن ماجه فى الزهد باب ذكر الحوض (٥٨٠/٢) .

وروى ابن عمر : أنه لما نزل قوله تعالى : ﴿ إنا أعطيناك الكوثر ﴾ قال رسول الله ﷺ : « هو نهر في الجنة حافتاه من ذهب شرابه أشدّ بياضاً من اللبن وأحلى من العسل وأطيب ريحاً من المسك يجرى على جنادل اللؤلؤ والمرجان »[1] .

وقال ثوبان - مولى رسول الله ﷺ - قال رسول الله ﷺ : « إنّ حوضى ما بين عدن إلى عمان البلقاء ماؤه أشدّ بياضاً من اللبن وأحلى من العسل وأكوابه عدد نجوم السماء ، من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبداً ، أوّل الناس وروداً عليه فقراء المهاجرين » فقال عمر بن الخطاب : ومن هم يا رسول الله ؟ قال : « هم الشُّعث رءوساً الدُّنس ثياباً الذين لا ينكحون المتنعمات ولا تفتح لهم أبواب السدد »[2] .

فقال عمر بن عبد العزيز : والله لقد نكحت المتنعمات فاطمة بنت عبد الملك وفتحت لى أبواب السدد إلا أن أبى ذرّ قال : قلت يا رسول الله ما آنية الحوض ؟ قال : « والذى نفس محمد بيده لآنيته أكثر من عدد نجوم السماء وكواكبها فى الليلة المظلمة المضحية من شرب منه لم يظمأ آخر ما عليه يشخب فيه ميزابان من الجنة عرضه مثل طوله ما بين عمان وأيلة ، ماؤه أشدّ بياضاً من اللبن وأحلى من العسل »[3] .

* * *

(١) أخرجه المستدرك كتاب معرفة الصحابة ذكر عبد الله ابن عبد المطلب رضى الله عنه (٥٤٣/٣) وصححه ، وأحمد فى المسند (١١٢/٢) والدارمى فى كتاب الرقائق باب فى الكوثر (٣٣٧/٢ ، ٣٣٨) والترمذى فى كتاب التفسير من سورة الكوثر (١١٩/٥ ، ١٢٠) بلفظ قريب وقال عنه : حسن صحيح .

(٢) أخرجه أحمد فى المسند (٢٧٥/٥ ، ٢٧٦ ، ١٣٢/٢) والترمذى فى كتاب أبواب صفة القيامة باب ما جاء فى صفة أوانى الحوض (٤٧/٤ ، ٤٨) وقال عنه أبو عيسى : حديث غريب ، والطبرانى فى الكبير (٩٩/٢) .

(٣) أخرجه مسلم فى كتاب الفضائل باب حوض نبينا ﷺ وصفته ، وابن ماجه فى باب ذكر الحوض (٥٧٩/٢) .

تعقيب

وعن سمرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إنّ لكل نبى حوضاً وإنهم يتباهون أيهم أكثر واردة وإنى لأرجو أن أكون أكثرهم واردة »[1] .

فهذا رجاء رسول الله ﷺ .

* * *

فليرج كل عبد أن يكون فى جملة الواردين ، وليحذر أن يكون متمنياً ومغترّاً وهو يظنّ أنه راج ، فإن الراجى للحصاد من بث البذر ونقى الأرض وسقاها المـاء ثم جلس يرجو فضل الله بالإنبات ودفع الصواعق إلى أوان الحصاد ، فأما من ترك الحراثة أو الزراعة وتنقية الأرض وسقيها وأخذ يرجو من فضل الله أن ينبت له الحب والفاكهة فهذا مغتر ومتمنّ وليس من الراجين فى شىء ، وهكذا رجاء أكثر الخلق وهو غرور الحمقى .

* * *

نعوذ بالله من الغرور والغفلة فإنّ الاغترار بالله أعظم من الاغترار بالدنيا . قال الله تعالى : ﴿ **فلا تغرّنكم الحياة الدنيا ولا يغرّنكم بالله الغرور** ﴾[2]

* * *

---

(١) أخرجه الترمذى فى كتاب القيامة باب ما جاء فى صفة الحوض (٤/٤٧) وقال عنه أبو عيسى : حسن غريب ، وابن أبى عاصم فى (٢/٣٤٢) ، وقال عنه الألبانى: حديث صحيح وإسناده ضعيف لكن له شواهد يرتقى بها إلى درجة الصحة وقد خرجتها مع الحديث فى « الصحيحة » (١٥٨٩) .

الباب السابع

جهنم وأهوالها

وفيه :

- **الفصل الأول : صفة جهنم .**
- **الفصل الثانى : شراب جهنم وطعامها .**
- **الفصل الثالث : حيات جهنم وعقاربها .. إلخ .**

الفصل الرابع : بكاء أهل جهنم .

خاتمة الباب .



الفصل الأول :

صفة جهنم

القول فى صفة جهنم
وأهـوالهـا وأنكالهـا

يا أيهـا الغـافل عن نفسـه المغـرور بما هو فيـه من شـواغل هذه الدنيـا المشرفة على الانقضاء والزوال ؛ دع التفكر فيما أنت مرتحل عنه واصرف الفكر إلى موردك فإنك أخبرت بأن النار مورد للجميع إذ قيل: ﴿ **وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتماً مقضياً ثم نُنَجِّى الذى اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيًا** ﴾ [١] فأنت من الورود على يقين ومن النجاة فى شك ، فاستشعر فى قلبك هول ذلك المورد فعسـاك تستـعدّ للنجاة منه ، وتأمل فى حال الخلائق وقد قاسوا من دواهى القيامة ما قاسوا ، فبيناهم فى كربها وأهوالها وقوفًا ينتظرون حقيقة أنبائها وتشفيع شفعائها إذ أحاطت بالمجرمين ظلمات ذات شعب ، وأظلت عليهم نار ذات لهب وسمعوا لها زفيراً وجرجرة تفصح عن شدّة الغيظ والغضب ، فعند ذلك أيقن المجرمون بالعطب وجثت الأمم على الركب حتى أشفق البرآء من سوء المنقلب . وخرج المنادى من الزبانية قائلاً : أين فلان بن فلان المسوّف نفسه فى الدنيا بطول الأمل المضيع عمره فى سوء العمل ؟ فيبادرونه بمقامع من حديد ويستقبلونه بعظائم التهديد ويسوقونه إلى العذاب الشديد ، وينكسونه فى قعر الجحيم ويقولون له: ﴿ **ذُق إنك أنت العزيز الكريم** ﴾[٢] فأسكنوا داراً ضيقة الأرجاء مظلمة المسالك مبهمة المهالك ، يخلد فيها الأسير ويوقد فيها السعير ، شرابهم فيها الحميم ومستقرّهم الجحيم ، الزبانية تقمعهم والهاوية تجمعهم ، أمانيهم فيها

(١) سورة مريم الآية : ٧١ ، ٧٢ .
(٢) سورة الدخان الآية : ٤٩ .

الهلاك وما لهم منها فكاك ، قد شدّت أقدامهم إلى النواصى واسودّت وجوههم من ظلمة المعاصى ، ينادون من أكنافها ويصيحون فى نواحيها وأطرافها : يا مالك قد حق علينا الوعيد ، يا مالك قد أثقلنا الحديد ، يا مالك قد نضجت منا الجلود ، يا مالك أخرجنا منها فإنا لا نعود . فتقول الزبانية : هيهات لات حين أمان ! ولا خروج لكم من دار الهوان فاخسئوا فيها ولا تكلمون ، ولو أخرجتم منها لكنتم إلى ما نهيتم عنه تعودون . فعند ذلك يقنطون وعلى ما فرّطوا فى جنب الله يتأسفون ولا ينجيهم الندم ولا يغنيهم الأسف ، بل يكبون على وجوههم مغلولين ، النار من فوقهم ، والنار من تحتهم ، والنار عن أيمانهم ، والنار عن شمائلهم ، فهم غرقى فى النار طعامهم نار ، وشرابهم نار ، ولباسهم نار ، ومهادهم نار ، فهم بين مقطعات النيران وسرابيل القطران وضرب المقامع وثقل السلاسل ، فهم يتجلجلون فى مضايقها ويتحطمون فى دركاتها ويضطرون بين غواشيها ، تغلى بهم النار كغلى القدور ويهتفون بالويل والعويل . ومهما دعوا بالثبور صب من فوق رءوسهم الحميم يصهر به ما فى بطونهم والجلود ، ولهم مقامع من حديد تهشم بها جباههم فيتفجر الصديد من أفواههم وتنقطع من العطش أكبادهم، وتسيل على الخدود أحداقهم ويسقط من الوجنات لحومها ويتمعط من الأطراف شعورها بل جلودها ، وكلما نضجت جلودهم بدّلوا جلوداً غيرها ، عرّيت من اللحم عظامهم فبقيت الأرواح منوطة بالعروق وعلائق العصب وهى تنش فى لفح تلك النيران ، وهم مع ذلك يتمنون الموت فلا يموتون !

فكيف بك لو نظرت إليهم لقد سوّدت وجوههم أشدّ سواداً من الحميم، وأعميت أبصارهم ، وأبكمت ألسنتهم ، وقصمت ظهورهم ، وكسرت عظامهم ، وجدعت آذانهم ، ومزقت جلودهم ، وغلت أيديهم إلى أعناقهم ، وجمع بين نواصيهم وأقدامهم . وهم يمشون على النار بوجوههم ويطأون حسك الحديد بأحداقهم ، فلهيب النار سار فى بواطن أجزائهم

وحيات الهاوية ووعقاربها متشبثة بظواهر أعضائهم .

هذا بعض جملة أحوالهم .

وانظر الآن فى تفصيل أهوالهم وتفكر أيضاً فى أودية جهنم وشعابها .

فقد قال النبى ﷺ : « إن فى جهنم سبعين ألف واد فى كل واد سبعون ألف شعب فى كل شعب سبعون ألف ثعبان وسبعون ألف عقرب لا ينتهى الكافر والمنافق حتى يواقع ذلك كله »[1] .

وقال علىٌّ كرم الله وجهه : قال رسول الله ﷺ : « تعوّذوا بالله من جُبِّ الحزن ـ أو وادى الحزن » قيل يا رسول الله وما وادى ـ أو جب ـ الحزن قال : « واد فى جهنم تتعوّذ منه جهنم كل يوم سبعين مرة أعدّه الله تعالى للقراء المرائين »[2] .

فهذه سعة جهنم وانشعاب أوديتها وهى بحسب عدد أودية الدنيا وشهواتها .

وعدد أبوابها بعدد الأعضاء السبعة التى بها يعصى العبد بعضها فوق بعض ؛ الأعلى : جهنم ثم سقر ثم لظى ثم الحطمة ثم السعير ثم الجحيم ثم الهاوية .

فانظر الآن فى عمق الهاوية فإنه لا حدّ لعمقها كما لا حدّ لعمق شهوات الدنيا ، فكما لا ينتهى أرب من الدنيا إلا إلى أرب أعظم منه فلا تنتهى هاوية من جهنم إلا إلى هاوية أعمق منها .

قال أبو هريرة : كنا مع رسول الله ﷺ فسمعنا وجبة فقال رسول الله ﷺ : « أتدرون ما هذا ؟ » قلنا : الله ورسوله أعلم ، قال : « هذا حجر

(١) ذكره صاحب إتحاف السادة المتقين فى (١٠/٥١١) ، ثم قال عنه : أخرجه ابن قانع فى معجمه وغيره من طريق يحى بن أبى كثير عن أبى سلام عن حجاج بن عبد الشمالى . ثم قال : وقال ابن عبد البر فى الاستيعاب : لا يصح وذكره صاحب ميزان الاعتدال عند ترجمته لسعيد بن يوسف اليمامى فى (٢/١٦٣) وقال : له حديث منكر ثم ذكر الحديث الذى معنا .

(٢) ذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد بلفظ قريب فى كتاب صفة النار الباب الأول (١٠/٣٨٨) وقال رواه الطبرانى فى الأوسط وفيه محمد بن الفضل بن عطية وهو مجمع على ضعفه وأخرجه ابن ماجة فى المقدمة باب الانتفاع بالعلم والعمل به (١/٩٢) .

أرسل فى جهنم منذ سبعين عاماً الآن انتهى إلى قعرها »[1] .

ثم انظر إلى تفاوت الدركات فإن الآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا ، فكما أن إكباب الناس على الدنيا يتفاوت فمن منهمك مستكثر كالغريق فيها ، ومن خائض إلى حد محدود ؛ فكذلك تناول النار لهم متفاوت فإن الله لا يظلم مثقال ذرة . فلا تترادف أنواع العذاب على كل من فى النار كيفما كان ، بل لكل واحد حدّ معلوم على قدر عصيانه وذنبه ، إلا أن أقلهم عذاباً لو عرضت عليه الدنيا بحذافيرها لافتدى بها من شدة ما هو فيه.

قال رسول الله ﷺ : « إن أدنى أهل النار عذاباً يوم القيامة ينتعل بنعلين من نار يغلى دماغه من حرارة نعليه »[2] .

فانظر الآن إلى من خفف عليه ، واعتبر بمن شدد عليه .

ومهما تشككت فى شدة عذاب النار فقرب أصبعك من النار وقس ذلك به . ثم اعلم أنك أخطأت فى القياس فإن نار الدنيا لا تناسب نار جهنم ، ولكن لما كان أشد عذاب فى الدنيا عذاب هذه النار عرف عذاب جهنم بها وهيهات ! لو وجد أهل الجحيم مثل هذه النار لخاضوها طائعين هرباً مما هم فيه .

وعن هذا عبر فى بعض الأخبار .

حيث قيل : « إن نار الدنيا غسلت بسبعين ماء من مياه الرحمة حتى أطاقها أهل الدنيا »[3] .

بل صرح رسول الله ﷺ بصفة نار جهنم فقال : « أمر الله تعالى أن يوقد على النار ألف عام حتى احمرّت ، ثم أوقد عليها ألف عام حتى

---

(١) رواه : مسلم ـ كتاب « الجنة وصفة نعيمها وأهلها » باب « فى شدة حر نار جهنم وبعد قعرها ، وما تأخذ من المعذبين » .

(٢) متفق على من حديث النعمان بن بشير .

(٣) ذكر ابن عبد البر من حديث ابن عباس « وهذه النار قد ضربت بماء البحر سبع مرات ولولا ذلك ما انتفع بها أحد » وللبزار من حديث أنس وهو ضعيف « وما وصلت إليكم » حتى أحسبه قال : « نضحت بالماء فتضئ عليكم » .

ابيضت ، ثم أوقد عليها ألف عام حتى اسوّدت فهى سواداء مظلمة » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « اشتكت النار إلى ربها فقالت يا رب أكل بعضى بعضاً فأذن لها فى نفَسْين نفسٌ فى الشتاء ونفس فى الصيف فأشد ما تجدونه فى الصيف من حرها وأشد ما تجدونه فى الشتاء من زمهريرها »[1] .

وقال أنس بن مالك : يؤتى بأشد الناس ضراً فى الدنيا فيقال اغمسوه فى الجنة غمسة ثم يقال له : هل رأيت ضراً قط ؟ فيقول : لا .

وقال أبو هريرة : لو كان فى المسجد مائة ألف أو يزيدون ثم تنفس رجل من أهل النار لماتوا .

وقد قال بعض العلماء فى قوله : ﴿ **تلفحُ وجُوهَهُمُ النارُ** ﴾[2] إنها لفحتهم لفحة واحدة فما أبقت لحماً على عظم إلا ألقته عند أعقابهم .

* * *

(١) أخرجه البخارى فى كتاب الصلاة باب الإبراد ، ومسلم فى كتاب المساجد باب استحباب الإبراد بالظهر فى شدة الحر .

(٢) سورة النور الآية : ١٠٤ .

الفصل الثاني :

شراب أهل جهنم وطعامهم

شراب أهل الجنة وطعامهم

ثم انظر بعد هذا فى نتن الصديد الذى يسيل من أبدانهم حتى يغرقون فيه وهو الغساق .

قال أبو سعيد الخدرى قال رسول الله ﷺ : « لو أن دلوا من غساق جهنم ألقى فى الدنيا لأنتن أهل الأرض »[1] .

فهذا شرابهم إذا استغاثوا من العطش فيسقى أحدهم من ماء صديد يتجرعه ولا يكاد يسغه ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت : ﴿ **وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقا** ﴾[2] .

ثم انظر إلى طعامهم وهو الزقوم .

كما قال الله تعالى : ﴿ **ثم إنكم أيها الضالون المكذبون لآكلون من شجر من زقوم فمالئون منها البطون فشاربون عليه من الحميم فشاربون شُرْب الهيم** ﴾[3]وقال تعالى : ﴿ **إنها شجرة تخرج من أصل الجحيم طلعها كأنه رءوس الشياطين فإنهم لآكلون منها فمالئون منها البطون ثم إن لهم عليها لشوبًا من حَمِيم ثم إن مرجعهم لإلى الجحيم** ﴾[4] وقال

---

(١) أخرجه أحمد فى المسند (٨٣/٣) ، وأخرجه الترمذى فى أبواب صفة جهنم باب ما جاء فى صفة شراب أهل النار (١٠٧/٤) و، والطبرى فى جامع البيان (١١٤/٢٣) ، والترغيب والترهيب فى كتاب صفة الجنة والنار باب شراب أهل النار (٤٧٨/٤) .

وذكره السيوطى فى الدر المنثور (٣١٨/٥، ٢٦٣/٦) ، وأخرجه الحاكم فى المستدوك فى كتاب الأهوال (٦٠٢/٤) ، وصححه الحاكم وأقره الذهبى .

(٢) سورة الكهف الاية : ٢٩ .

(٣) سورة الواقعة الآية : ٥١ ـ ٥٥ .

(٤) سورة الصفات الآية : ٦٤ ـ ٦٨ .

تعالى : ﴿ **تصلى ناراً حامية تسقى من عين آنية** ﴾[1] وقال تعالى : ﴿ **إن لدينا أنكالا وجحيما وطعاماً ذا غصة وعذاباً أليماً** ﴾[2] .

وقال ابن عباس : قال رسول الله ﷺ : « لو أن قطرة من الزقوم قطرت فى بحر الدنيا أفسدت على أهل الدنيا معايشهم »[3] .

فكيف من يكون طعامه ذلك ؟

وقال أنس : قال رسول الله ﷺ : « ارغبوا فيما رغبكم الله واحذروا وخافوا ما خوفكم الله به من عذابه وعقابه ومن جهنم ، فإنه لو كانت قطرة من الجنة معكم فى دنياكم التى أنتم فيها طيّبتها لكم ، ولو كانت قطرة من النار معكم فى دنياكم التى أنتم فيها خبّثتها عليكم »[4] .

وقال أبو الدرداء : قال رسول الله ﷺ : « يلقى على أهل النار الجوع حتى يعدل ما هم فيه من العذاب فيستغيثون بالطعام فيغاثون بطعام من ضريع لا يسمن ولا يغنى من جوع ويستغيثون بالطعام فيغاثون بطعام ذى غصّة ، فيذكرون أنهم كما كانوا يجيزون الغصص فى الدنيا بشراب فيستغيثون بشراب فيرفع إليهم الحميم بكلاليب الحديد ، فإذا دنت من وجوههم شوت وجوههم ، فإذا دخل الشراب بطونهم قطع ما فى بطونهم فيقولون ادعوا خزنة جهنم .

قال : فيدعون خزنة جهنم ﴿ **ادعو ربكم يخفف عنا يوماً من العذاب قالوا أولم تك تأتيكم رسلكم بالبينات قالوا بلى قالوا فادعوا وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال** ﴾[5] .

---

(١) سورة الغاشية الآية : ٤ ، ٥ .

(٢) سورة المزمل الآية : ١٢ ، ١٣ .

(٣) أخرجه أحمد فى المسند (١/٣٣٨ ، ٣٠١) ، وابن ماجة فى باب صفة النار (٢/٥٨٨) وأخرجه الترمذى فى أبواب صفة حهنم باب ما جاء فى صفة شراب أهل النار (٤/١٠٧، ١٠٨) وقال عنه حديث حسن صحيح .

(٤) ذكره صاحب الإتحاف فى (١٠/٩١٥) وقال عنه أخرجه البيهقى فى البعث والنشور كذا وجدته فى هامش المغنى بخط الحافظ ابن حجر والله أعلم .

(٥) سورة غافر الآيتان ٤٩ ، ٥٠ .

قال : « فيقولون ادعوا مالكا فيدعون فيقولون يا مالك لِيَقْض علينا ربك » .

قال : « فيجيبهم : إنكم ما كثون »[1] ـ قال الأعمش : أنبئت أن بين دعائهم وبين إجابة مالك ألف عام .

قال : فيقولون ادعوا ربكم فلا أحد خير من ربكم فيقولون: ﴿ **ربنا غلبت علينا شقْوَتُنا وكنا قوماً ضالين ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون** ﴾[2] .

قال : فيجيبهم : ﴿ **اخسئوا فيها ولا تكلمون** ﴾ .

قال : فعند ذلك يئسوا من كل خير ، وعند ذلك أخذوا فى الزفير والحسرة والويل.

وقال أبو أمامة : قال رسول الله ﷺ فى قوله تعالى : ﴿ **ويُسْقَى من ماء صَديد يَتَجَرَّعُه ولا يكاد يُسغُه** ﴾[3] قال : « يقرَّب إليه فيتكرَّهه فإذا أدنى منه شوى وجهه فوقعت فروة رأسه ، فإذا شربه قطع أمعاءه حتى يخرج من دبره » . يقول الله تعالى : ﴿ **وَسُقُوا ماء حميما فقطَّعَ أمعاءهم** ﴾[4] . وقال تعالى : ﴿ **وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه** ﴾[5] ، فهذا طعامهم وشرابهم عند جوعهم وعطشهم[6] .

* * *

---

(١) أخرجه الترمذى من رواية سمرة بن عطية عن شهر بن حوشب عن أم الدرداء عن أبى الدرداء قال الدارمى : والناس لا يعرفون هذا الحديث ، وإنما روى عن الأعمش عن سمرة بن عطية عن شهر عن أم الدرداء عن أبى الدرداء قوله .

(٢) سورة المومنون الآية ١٠٦ ، ١٠٧ .

(٣) سورة إبراهيم الاية : ١٦ ، ١٧ .

(٤) سورة محمد الاية : ١٥ .

(٥) سورة الكهف الآية : ٢٩ .

(٦) ذكره صاحب مجمع الزوائد وقال : رواه أحمد والطبرانى وفيه جماعة قد وثقوا (١٠/٣٩٠) كتاب صفة النار .

الفصل الثالث :

حيات جهنم وعقاربها .. إلخ

حيات جهنم وعقاربها .. إلخ

فانظر الآن إلى حيات جهنم وعقاربها وإلى شدة سمومها وعظم أشخاصها وفظاظة منظرها وقد سلطت على أهلها وأغريت بهم ، فهى لا تفتر عن النهش واللدغ ساعة واحدة .

قال أبو هريرة : قال رسول الله ﷺ : « من آتاه الله مالا فلم يؤد زكاته مُثِّلَ له يوم القيامة شجاعاً أقرع له زبيبتان يطوّقه يوم القيامة ثم يأخذ بلهازمه ـ يعنى أشداقه ـ فيقول أنا مالُكَ أنا كنزك ، ثم تلا قوله تعالى : ﴿ **ولا تَحْسَبَنّ الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله** ... ﴾ [1] الآية »[2] .

وقال الرسول ﷺ : « إنّ فى النار لحيات مثْل أعناق البُخْت يَلْسَعْنَ اللّسْعَةَ فيجد حَمْوَتها أربعين خريفاً ، وإن فيها لعقارب كالبغالَ المُوكَفَة يَلْسعْنَ اللسعة فيجد حموتها أربعين خريفاً وهذه الحيات والعقارب إنما تسلط على من سلط عليه فى الدنيا البخل وسوء الخلق وإيذاء الناس ومن وقى ذلك وقى هذه الحيات فلم تمثل له » [3].

ثم تفكر بعد هذا كله فى تعظيم أجسام أهل النار فإن الله تعالى يزيد فى أجسامهم طولاً وعرضاً حتى يتزايد عذابهم بسببه ، فيحسون بلفح النار ولدغ العقارب والحيات من جميع أجزائها دفعة واحدة على التوالى .

قال أبو هريرة : قال رسول الله ﷺ : « ضرس الكافر فى النار مثل أُحد وغلظ جلده مسيرة ثلاث »[4] .

---

(١) سورة آل عمران الآية : ١٨٠ .

(٢) أخرجه البخارى من حديث أبى هريرة ومسلم من حديث جابر نحوه .

(٣) ذكره صاحب مجمع الزوائد . وقال : رواه أحمد والطبرانى ، وفيه جماعة قد وثقوا (١٠/٣٩٠) كتاب صفة النار .

(٤) أخرجه مسلم فى كتاب « الجنة .. إلخ » باب « جهنم .. إلخ » وأحمد فى المسند (٣٢٨/٢ ، ٣٣٤) . =

وقال رسول الله ﷺ : « شفته السفلى ساقطة على صدره والعليا قالصة قد غطت وجهه »[1] .

وقال عليه السلام : « إن الكافر لَيجُرّ لسانه فى سِجِّين يوم القيامة يَتَواطَؤه الناس »[2] .

ومع عظم الأجسام كذلك تحرقهم النار مرات فتجدّد جلودهم ولحومهم .

قال الحسن فى قوله تعالى : ﴿ **كلما نَضِجتْ جلُودُهمْ بَدَّلْنَاهمْ جلوداً غيرها** ﴾[3] قال تأكلهم النار كل يوم سبعين ألف مرة ، كلما أكلتهم قيل لهم عودوا فيعودون كما كانوا .

* * *

= وذكره الهيثمى فى (٣٩٢/١٠) كتاب صفة النار باب عظم خلق الكافر فى النار . وقال رواه البزار وفيه عباد بن منصور وهو ضعيف وقد وثقه ، وبقية رجاله ثقات .

(١) أخرجه الإمام أحمد فى المسند بلفظ قريب (٨٨/٣) ، والترمزى فى أبواب صفة جهنم ثم ما جاء فى صفة طعام أهل النار (١٠٩/٤) وكتاب تفسير سورة المؤمنون (١٠/٥) وقال عنه حسن صحيح غريب.

(٢) أخرجه أحمد فى المسند (٩٢/٢) وذكره صاحب الترغيب والترهيب فى كتاب صفة الجنة والنار باب عظم أهل النار (٤٨٤/٤) ، وكنز العمال (٥٣٣/١٤ / ٣٩٥٣٥) وقال ذكره الإمام أحمد فى مسنده عن ابن عمر والإتحاف (١٧/١٠) .

(٣) سورة النساء الآية : ٥٦ .

الفصل الرابع :

بكاء أهل جهنم

بكاء أهل جهنم

ثم تفكر الآن فى بكاء أهل النار وشهيقهم ودعائهم بالويل والثبور !!

فإن ذلك يسلط عليهم فى أول إلقائهم فى النار .

قال رسول الله ﷺ : « يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك » [1] .

وقال أنس : قال رسول الله ﷺ : « يُرْسَل على أهل النار البكاء فيبكون حتى تنقطع الدموع ، ثم يبكون الدم حتى يرى فى وجوههم كهيئة الأخدُود لو أُرْسِلَتْ فيها السفن لجرت وما دام يؤذن لهم فى البكاء والشهيق والزفير والدعوة بالويل والثبور فلهم فيه مستروح ولكنهم يمنعون أيضاً من ذلك »[2] .

قال محمد بن كعب : لأهل النار خمس دعوات يجيبهم الله عز وجل فى أربعة فإذا كانت الخامسة لم يتكلموا بعدها أبداً [3] .

يقولون : ﴿ **ربنا أمَتَّنَا اثْنَتَيْن وأحْيَيْتَنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل** ﴾ فيقول الله تعالى مجيباً لهم : ﴿ **ذلكم بأنه إذا دُعِى الله وَحْدَهُ كفرتم وإن يُشْرَكْ به تؤمنوا فالحُكْمُ لله العلىِّ الكبير** ﴾[4] .

ثم يقولون : ﴿ **ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل** ﴾ فيجيبهم الله تعالى : ﴿ **أولم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال** ﴾ [5].

فيقولون : ﴿ **ربنا أخرجنا نعمل صالحًا غير الذى كنا نعمل** ﴾

---

(١) أخرجه مسلم من حديث عبد الله بن مسعود .

(٢) أخرجه ابن ماجه من رواية يزيد الرقاشى عن أنس والرقاشى ضعيف .

(٣) المذكور : أربع دعوات فقط !!

(٤) سورة غافر الآية : ١١ ، ١٢ . (٥) سورة إبراهيم الاية : ٤٤ .

فيجيبهم الله تعالى : ﴿ **أولم نُعَمِّرْكُمْ ما يَتذَكَّرُ فيه مَنْ تَذَكَّر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير** ﴾[1] ثم يقولون : ﴿ **ربنا غَلَبَتْ علينا شقْوَتُنا وكنا قوماً ظالين ربنا أخرجنا منها فإن عُدْنا فإنا ظالمون** ﴾ فيجبهم الله تعالى : ﴿ **اخْسئوا فيها ولا تُكلِّمُون** ﴾[2] فلا يتكلمون بعدها أبداً .

وذلك غاية شدّة العذاب .

قال مالك بن أنس رضي الله عنه : قال زيد بن أسلم فى قوله تعالى : ﴿ **سوَاءٌ علينا أجزعْنا أم صبَرْنا ما لنا من محيص** ﴾[3] قال صبروا مائة سنة ثم جزعوا مائة سنة ثم صبروا مائة سنة ثم قالوا : ﴿ **سواء علينا أجزعنا أم صبرنا** ﴾ .

وقال صلى الله عليه وسلم : « يوتى بالموت يوم القيامة كأنه كبش أملح فيذبح بين الجنة والنار ويقال يا أهل الجنة خلود بلا موت ويا أهل النار خلود بلا موت »[4] .

وعن الحسن قال : يخرج من النار رجل بعد ألف عام وليتنى كنت ذلك الرجل .

ورؤى الحسن رضى الله عنه جالساً فى زاوية وهو يبكى فقيل له : لم تبكى ؟ فقال : أخشى أن يطرحنى فى النار ولا يبالى .

فهذه أصناف عذاب جهنم على الجملة .

وتفصيل عمومها وأجزائها ومحنها وحسرتها لا نهاية له .

فأعظم الأمور عليهم مع ما يلاقونه من شدّة العذاب : حسرة فوات نعيم الجنة وفوت لقاء الله تعالى وفوت رضاه ، مع علمهم بأنهم باعوا كل ذلك بثمن بخس دراهم معدودة ؛ إذ لم يبيعوا ذلك إلا بشهوات حقيرة فى

---

(١) سورة فاطر الآية : ٣٧ .

(٢) سورة المؤمنون الآية : ١٠٦ ، ١٠٨ .

(٣) سورة إبراهيم الاية : ٢١ .

(٤) أخرجه البخارى من حديث ابن عمر ومسلم من حديث أبى سعيد .

الدنيا أياماً قصيرة وكانت غير صافية ، بل كانت مكدّرة منغصة فيقولون فى أنفسهم واحسرتاه كيف أهلكنا أنفسنا بعصيان ربنا ! وكيف لم نكلف أنفسنا الصبر أياماً قلائل ولو صبرنا لكانت قد انقضت عنا أيامه وبقينا الآن فى جوار رب العالمين متنعمين بالرضا والرضوان ؟

فيالحسرة هؤلاء وقد فاتهم وبلوا بما بلوا به ولم يبق معهم شىء من نعيم الدنيا ولذاتها !

ثم إنهم لو لم يشاهدوا نعيم الجنة لم تعظم حسرتهم لكنها تعرض عليهم .

فقد قال رسول الله ﷺ : « يؤتى يوم القيامة بناس من النار إلى الجنة حتى إذا دنّوا منها واستَنشقُوا رائحتها ونظروا إلى قصورها وإلى ما أعد الله لأهلها فيها نودوا أن اصرفوهم عنها لا نصيب لهم فيها فيرجعون بحسرة ما رجع الأوّلون والآخرون بمثلها . فيقولون يا ربنا لو أدخلتنا النار قبل أن ترينا ما أريتنا من ثوابك وما أعددت فيها لأوليائك كان أهون علينا ، فيقول الله تعالى ذاك أردتُ بكم كنتم إذا خلوتم بارزتمونى بالعظائم وإذا لقيتم الناس لقيتموهم مخْبتين تراءون الناس بخلاف ما تعطونى من قلوبكم هبْتم الناس ولم تهابونى وأجللتم الناس ولم تجلونى وتركتم للناس ولم تتركوا لى فاليوم أذيقكم العذاب الأليم مع ما حرمتكم من الثواب المقيم »[1] .

وقال أحمد بن حرب : إن أحدنا يؤثر الظل على الشمس ثم لا يؤثر الجنة على النار .

وقال عيسى عليه السلام : كم من جسد صحيح ووجه صبيح ولسان فصيح غدا بين أطباق النار يصيح .

وقال داود : إلهى لا صبر لى على حرّ شمسك فكيف صبرى على حر نارك ؟ ولا صبر لى على صوت رحمتك فكيف على صوت عذابك ؟

---

(١) ذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد كتاب الزهد باب ما جاء فى الرياء (٢٢٠/١٠) وقال رواه الطبرانى فى الكبير والأوسط وفيه أبو جنادة وهو ضعيف والطبرانى فى الكبير (٨٦/١٧) .



خاتمة الباب

فانظر يا مسكين فى هذه الأهوال .

واعلم أن الله تعالى خلق النار بأهوالها وخلق لها أهلاً لا يزيدون ولا ينقصون وأن هذا أمر قد قضى وفرغ منه .

قال الله تعالى : ﴿ **وأنذرهم يوم الحسرة إذ قُضى الأمر وهم فى غفلة وهم لا يؤمنون** ﴾[1] ولعمرى الإشارة به يوم القيامة ، بل فى أزل الأزل ولكن أظهر يوم القيامة ما سبق به القضاء .

فالعجب منك حيث تضحك وتلهو وتشتغل بمحقرات الدنيا ولست تدرى أن القضاء بماذا سبق فى حقك !

* * *

فإن قلت : فليت شعرى ماذا موردى وإلى ماذا مآلى ومرجعى وما الذى سبق به القضاء فى حقى ؟ فلك علامة تستأنس بها وتصدق بسببها وهى أن تنظر إلى أحوالك وأعمالك ، فإن كلا ميسّرٌ لما خلق له .

فإن كان قد يسر لك سبيل الخير : فأبشر فإنك مبعد عن النار .

وإن كنت لا تقصد خيراً إلا وتحيط بك العوائق فتدفعه ولا تقصد شرّاً إلا ويتيسر لك أسبابه : فاعلم أنك مقضى عليك .

فإن دلالة هذا على العاقبة كدلالة المطر على النبات ودلالة الدخان على النار . فقد قال الله تعالى : ﴿ **إن الأبرار لفى نعيم وإن الفجار لفى جحيم** ﴾[2] .

فاعرض نفسك على الآيتين وقد عرفت مستقرّك من الدارين والله أعلم.

* * *

---

(١) سورة مريم الاية : ٣٩ .

(٢) سورة الانفطار الاية : ١٣ ، ١٤ .

الباب الثامن

الجنة ونعيمها

وفيه :

- الفصل الأول : صفة الجنة وأهلها .
- الفصل الثانى : صفة حائط الجنة .
- الفصل الثالث : صفة لباس أهل الجنة .
- الفصل الرابع : صفة طعام أهل الجنة .
- الفصل الخامس : صفة الحور العين والولدان
- الفصل السادس : جمل مفرقة من أوصاف أهل الجنة .
- الفصل السابع : رؤية الله تعالى فى الجنة .

الفصل الأول :

صفة الجنة وأهلها

* تمهيد .
* أهل الجنة .
* صفة أهل الجنة .
* غرف الجنة وقصورها .

*** تمهيد :**

اعلم أن تلك الدار التى عرفت همومها وغمومها تقابلها دار أخرى ، فتأمل نعيمها وسرورها ، فإن من بعد من أحدهما استقر لا محالة فى الأخرى .

فاستثر الخوف من قلبك بطول الفكر فى أهوال الجحيم .

واستثر الرجاء بطول الفكر فى النعيم المقيم الموعود لأهل الجنان ، وَسُقْ نفسك بسوط الخوف وقدها بزمام الرجاء إلى الصراط المستقيم فبذلك تنال الملك العظيم وتسلم من العذاب الأليم .

*** أهل الجنة :**

فتفكر فى أهل الجنة وفى وجوههم نضرة النعيم يسقون من رحيق مختوم ، جالسين على منابر الياقوت الأحمر فى خيام من اللؤلؤ الرطب الأبيض فيها بسط من العبقرى الأخضر ، متكئين على أرائك منصوبة على أطراف أنهار مطردة بالخمر والعسل ، محفوفة بالغلمان والولدان ، مزينة بالحور العين من الخيرات الحسان كأنهنّ الياقوت والمرجان لم يطمئهنّ إنس قبلهم ولا جان ، يمشين فى درجات الجنان إذا اختالت إحداهن فى مشيها حمل أعطافها سبعون ألفاً من الولدان ، عليها من طرائف الحرير الأبيض ما تتحير فيه الأبصار ، مكللات بالتيجان المرصعة باللؤلؤ والمرجان ، شكلات غنجات عطرات آمنات من الهرم والبؤس مقصورات فى الخيام فى قصور من الياقوت بنيت وسط روضات الجنان ، قاصرات الطرف عين ، ثم يطاف عليهم وعليهنّ بأكواب وأباريق وكأس من معين بيضاء لَذة للشاربين ، ويطوف عليهم خدام وولدان كأمثال اللؤلؤ المكنون جزاء بما كانوا يعملون ، فى مقام أمين فى جنات وعيون ، فى جنات ونهر فى مقعد صدق عند مليك مقتدر ، ينظرون فيها إلى وجه الملك الكريم وقد أشرقت فى وجوههم نضرة النعيم ، لا يرهقهم قتر ولا ذلة ، بل عباد مكرمون وبأنواع التحف من

ربهم يتعاهدون ، فهـم فيما اشتهت أنفسـهم خالدون ، لا يخافون فيهـا ولا يحزنون ، وهم من ريب المنون آمنون ، فهم فيها يتنعمون ويأكلون من أطعمتها ويشربون من أنهارها لبناً وخمراً وعسلاً فى أنهار أراضيها من فضة وحصباؤها مرجان ، وعلى أرض ترابها مسك أذفر ونباتها زعفران ، ويمطرون من سحاب فيها من ماء النسرين على كثبان الكافور ، ويؤتون بأكواب وأى أكواب بأكواب من فضة مرصعة بالدرّ والياقوت والمرجان ؛ كوب فيه من الرحيق المختوم ممزوج به السلسبيل العذب ، كوب يشرق نوره من صفاء جوهره يبدو الشراب من ورائه برقته وحمرته ، لم يصنعه آدمى فيقصر فى تسوية صنعته وتحسين صناعته ، فى كف خادم يحكى ضياء وجهه الشمس فى إشراقها ، ولكن من أين للشمس حلاوة مثل حلاوة صورته وحسن أصداغه وملاحة أحداقه .

فيا عجباً لمن يؤمن بدار هذه صفتها ويوقن بأنه لا يموت أهلها ولا تحل الفجائع بمن نزل بفنائها ولا تنظر الأحداث بعين التغيير إلى أهلها ، كيف يأنس بدار قد أذن الله فى خرابها ويتهنأ بعيش دونها ؟

والله لو لم يكن فيها إلا سلامة الأبدان مع الأمن من الموت والجوع والعطش وسائر أصناف الحدثان لكان جديراً بأن يهجر بسببها ! وأن لا يؤثر عليها ما التصرم والتنغص من ضرورته ! كيف وأهلها ملوك آمنون وفى أنواع السرور ممتعون لهم فيها كل ما يشتهون ، وهم فى كل يوم بفناء العرش يحضرون وإلى وجه الله الكريم ينظرون وينالون بالنظر من الله ما لا ينظرون معه إلى سائر نعيم الجنان ولا يلتفتون ، وهم على الدوام بين أصناف هذه النعم يترددون ، وهم من زوالها آمنون .

قال أبو هريرة : قال رسول الله ﷺ : « ينادى مناد يا أهل الجنة إن لكم أن تصحُّوا فلا تسقموا أبداً ، وإن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبداً ، وإن لكم أن تشبواَ فلا تهرموا أبداً ، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبداً فذلك قوله عز

وجل : ﴿ ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعلمون ﴾ [1] »[2] .

*** صفة الجنة :**

ومهما أردت أن تعرف صفة الجنة فاقرأ القرآن فليس وراء بيان الله تعالى بيان .

واقرأ من قوله تعالى : ﴿ **ولمن خاف مقام ربه جنتان** ﴾[3] إلى آخر سورة الرحمن .

واقرأ سورة الواقعة وغيرها من السور .

وإن أردت أن تعرف تفصيل صفاتها من الأخبار فتأمل الآن تفصيلها بعد أن اطلعت على جملتها .

وتأمل أوّلا عدد الجنان ؛ قال رسول الله ﷺ في قوله تعالى : ﴿ **ولمن خاف مقام ربه جنتان** ﴾ قال : « جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما ، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن »[4] .

ثم إنظر إلى أبواب الجنة فإنها كثيرة بحسب أصول الطاعات ، كما أن أبواب النار بحسب أصول المعاصي .

قال أبو هريرة : قال رسول الله ﷺ : « من أنفق زوجين من ماله في سبيل الله دعي من أبواب الجنة كلها وللجنة ثمانية أبواب ، فمن كان من أهل الصلاة دعي من باب الصلاة ، ومن كان من أهل الصيام دعي من

---

(١) سورة الأعراف الآية : ٤٣ .

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، والدارمي مختصراً في كتاب الرقائق باب ما يقال لأهل الجنة إذا دخلوها (٢/٣٣٤) ، والمسند (٣/٣١٩ ، ٣/٣٨ ، ٩٥) .

(٣) سورة الرحمن الآية : ٤٦ .

(٤) أخرجه البخاري في كتاب التفسير تفسير سورة « الرحمن » ، وأخرجه مسلم في كتاب الإيمان باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة لربهم سبحانه وتعالى .

وذكره ابن أبي عاصم في ج١ ص ٢٧٢ وقال الألباني : إسناده صحيح على شرط الشيخين وقد أخرجاه .

باب الصيام ، ومن كان من أهل الصدقة دعى من باب الصدقة ، ومن كان من أهل الجهاد دعى من باب الجهاد » فقال أبو بكر رضى الله عنه ما على أحد من ضرورة من أيها دعى فهل يدعى أحد منها كلها ؟ قال : « نعم ، وأرجو أن تكون منهم »[1] .

وعن عاصم بن ضمرة عن علىّ كرم الله وجه أنه ذكر النار فعظم أمرها ذكراً لا أحفظه ثم قال : ﴿ **وسيق الذين اتقوا ربهم إلى جهنم زمرا** ﴾[2] حتى إذا انتهوا إلى باب من أبوابها وجدوا عنده شجرة يخرج من تحت ساقها عينان تجريان ، فعمدوا إلى إحداهما كما أمروا به، فشربوا منها ، فأذهبت ما فى بطونهم من أذى أو بأس ، ثم عمدوا إلى الأخرى فتطهروا منها فجرت عليهم نضرة النعيم فلم تتغير أشعارهم بعدها أبداً ولا تشعث رءوسهم كأنما دهنوا بالدهان ، ثم انتهوا إلى الجنة فقال لهم خزنتها : ﴿**سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين** ﴾[3] ثم تلقاهم الولدان يطيفون بهم كما تطيف ولدان أهل الدنيا بالحبيب يقدم عليهم من غيبة ، ويقولون له : أبشر أعدّ الله لك من الكرامة كذا ، قال : فينطلق غلام من أولئك الولدان إلى بعض أزواجه من الحور العين فيقول : قد جاء فلان ـ باسمه الذى كان يدعى به فى الدنيا ـ فتقول : أنت رأيته ؟ فيقول أنا رأيته وهو بأثرى ، فيستخفها الفرح حتى تقوم إلى أسكفة[4] بابها ، فإذا انتهى إلى منزله نظر إلى أساس بنيانه فإذا جندل اللؤلؤ فوقه صرح أحمر وأخضر وأصفر من كل لون ، ثم يرفع رأسه فينظر إلى سقفه فإذا مثل البرق ولولا أن الله تعالى قدّره لألم أن يذهب بصره ، ثم يطأطئ رأسه فإذا أزواجه ﴿ **وأكواب موضوعة ونمارق مصفوفة وزرابى مبثوثة** ﴾[5] .

ثم اتكأ فقال : ﴿ **الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن**

(١) متفق عليه .　　(٢) سورة الزمر الآية : ٧٣ .
(٣) سورة الزمر الآية : ٧٣ .
(٤) أى : عتبة الباب التى يوطأ عليها (انظر : اللسان) .
(٥) سورة الغاشية الآية : ١٤ ـ ١٦ .

هدانا الله ﴾[1] ثم ينادى مناد : تحيون فلا تموتون أبداً وتقيمون فلا تظعنون أبداً وتصحون فلا تمرضون أبداً .

وقال رسول الله ﷺ : « آتى يوم القيامة باب الجنة فأستفتح فيقول الخازن من أنت ؟ فأقول محمد . فيقول : بك أمرت أن لا أفتح لأحد قبلك»[2] .

* غرف الجنة وقصورها :

ثم تأمل الآن فى غرف الجنة واختلاف درجات العلو فيها فإن الآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً ، وكما أن بين الناس فى الطاعات الظاهرة والأخلاق الباطنة المحمودة تفاوتاً ظاهراً فكذلك فيما يجازون به تفاوت ظاهر.

فإن كنت تطلب أعلى الدرجات : فاجتهد أن لا يسبقك أحد بطاعة الله تعالى فقد أمرك الله بالمسابقة والمنافسة فيها فقال تعالى : ﴿ **سابقوا إلى مغفرة من ربكم** ﴾[3] وقال تعالى : ﴿ **وفى ذلك فليتنافس المتنافسون** ﴾[4] والعجب أنه لو تقدّم عليك أقرانك بزيادة درهم أو بعلو بناء ثقل عليك ذلك وضاق به صدرك وتنغص بسبب الحسد عيشك ، وأحسن أحوالك أن تستقر فى الجنة وأنت لا تسلم فيها من أقوام يسبقونك بلطائف لا توازيها الدنيا بحذافيرها .

فقد قال أبو سعيد الخدرى : قال رسول الله ﷺ : « إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف فوقهم كما تتراءون الكوكب الغائر فى الأفق من المشرق إلى المغرب لتفاضل ما بينهم » قالوا : يا رسول الله تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم ؟ قال : « بلى والذى نفسى بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين »[3] .

(١) سورة الأعراف الآية : ٤٣ .
(٢) أخرجه مسلم من حديث أنس
(٣) سورة الحديد الآية : ٢١ .
(٤) سورة المطففين الآية : ٢٦ .
(٥) متفق عليه .

وقال أيضاً : « أن أهل الدرجات العُلَى ليراهم مَنْ تحتَهُمْ كما ترون النجم الطالع فى أفق من آفاق السماء وإن أبا بكر وعمر منهم وأنعما »[١] .

وقال جابر : قال لنا رسول الله ﷺ : « ألا أحدثكم بغرف الجنة » قال : قلت بلى يا رسول الله صلى الله عليك ، بأبينا أنت وأُمنا قال : « إن فى الجنة غرفاً من أصناف الجوهر كله يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها ، وفيها من النعيم واللذات والسرور ما لا عين رأت ولا أُذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » قال : قلت يا رسول الله ولمن هذه الغرف ؟ قال : « لمن أفشى السلام وأطعم الطعام وأدام الصيام وصلى بالليل والناس نيام » قال : قلنا يا رسول الله ومن يطيق ذلك ؟ قال : « أُمتى تطيق ذلك وسأخبركم عن ذلك ، من لقىَ أخاه فسلم عليه أو ردّ عليه فقد أفشى السلام ، ومن أطعم أهله وعياله من الطعام حتى يشبعهم فقد أطعم الطعام ، ومن صام شهر رمضان ، ومن كل شهر ثلاثة أيام فقد أدام الصيام ، ومن صلى العشاء الآخرة وصلى الغداة فى جماعة فقد صلى بالليل والناس نيام »[٢] . يعنى : اليهود والنصار والمجوس .

وسئل رسول الله ﷺ عن قوله : ﴿ **ومَساكِنَ طيِّبة فى جنات عدن** ﴾[٣] وقال : « قصور من لؤلؤ فى كل قصر سبعون داراً من ياقوت أحمر ، فى كل دار سبعون بيتاً من زمرد أخضر ، فى كل بيت سرير ، على

---

(١) أخرجه ابن ماجه فى المقدمة باب فى فضائل أصحاب رسول الله ﷺ (٣٧/١) وانظر المسند (٢٧/٣ ، ٧٢ ، ٩٣ ، ٣٤٠/٥) ، والطبرانى فى الكبير (١٦٠/٦) وانظر السنن لابن أبى عاصم (٦١٦/٢) وقال صاحب المجمع فى (٨٧/٨ ، ١٧٨) رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح غير سوار ابن عمارة الرملى وهو شقة قلت رواه أحمد عن أحمد بن الحجاج به وليس فى الإسناد سوار بن عمارة وإنما هو فى سند الأوسط وقال أيضاً رواه أحمد والطبرانى فى الكبير والأوسط ٢٥٦ مجمع البحرين ورجال أحمد رجال الصحيح .

(٢) ذكره الهيثمى فى المجمع مختصراً فى كتاب أهل الجنة فى عرف الجنة (٤١٩/١٠ ، ٤١٠) وقال رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح غير عبد الله بن معانق ووثقه ابن حبان ، ومسند الإمام أحمد (٣٤٣/٥) .

(٣) سورة التوبة الآية ٧٢ ، سورة الصف الآية : ١٢ .

كل سرير سبعون فراشاً من كل لون ، على كل فراش زوجة من الحور العين ، فى كل بيت سبعون مائدة ، على كل مائدة سبعون لوناً من الطعام ، فى كل بيت سبعون وصيفة ، ويعطى المؤمن فى كل غداة ـ يعنى من القوة ـ ما يأتى على ذلك أجمع »[1] .

* * *

---

(٣) ذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد وقال : رواه البزار والطبرانى فى الأوسط وفيه جسر ين فرقد وهو ضعيف وقد وثقه سعيد بن عامر وبقية رجال الطبرانى ثقات (٣٤/٧ ، ٤٢٠/١٠) والطبرى فى تفسيره بسنده قال الشيخ شاكر سنده ضعيف (٣٤٩/١٤) .

الفصل الثاني :

صفة حائط الجنة وأراضيها .. إلخ

* حائط الجنة وترابها .
* شـــجر الجنـــة .

* حائط الجنة وترابها :

تأمل فى صورة الجنة وتفكر فى غبطة سكانها وفى حسرة من حرمها لقناعته بالدنيا عوضاً عنها .

فقد فقال أبو هريرة : قال رسول الله ﷺ : « إن حائط الجنة لبنة من فضة ولبنة من ذهب ترابها زعفران وطينها مسك »[1] .

وسئل صلى الله عليه وسلم عن تربة الجنة فقال : « درمكة بيضاء مسك خالص »[2] .

وقال أبو هريرة : قال رسول الله ﷺ : « من سرّه أن يسقيه الله عز وجل الخمر فى الآخرة فليتركها فى الدنيا ، ومن سره أن يكسوه الله الحرير فى الآخرة فليتركه فى الدنيا »[3] .

« أنهار الجنة تنفجر من تحت تلال ـ أو تحت جبال ـ المسك »[4] .

ولو كان أدنى أهل الجنة حلية عدلت بحلية أهل الدنيا جميعها لكان ما يحليه الله عز وجل به فى الآخرة أفضل من حلية الدنيا جميعها »[5] .

* * *

---

(١) أخرجه الترمذى بلفظ : « وملاطها المسك » وقال ليس إسناده بذلك القوى وليس عندى بمتصل ورواه البزار من حديث أبى سعيد بإسناد فيه مقال ورواه موقوفاً عليه بإسناد صحيح .

(٢) أخرجه مسلم من حديث أبى سعيد أن ابن صياد سأل النبى ﷺ عن ذلك فذكره ، والدَّرْمَك: الدقيق النقى الصافى (لسان العرب) .

(٣) أخرجه الطبرانى فى الأوسط بإسناد حسن وللنسائى بإسناد صحيح « من لبس الحرير فى الدنيا لم يلبسه فى الآخرة ومن شرب الخمر فى الدنيا لم يشربها فى الآخرة » .

(٤) أخرجه العقيلى فى الضعفاء من حديث أبى هريرة .

(٥) رواه الهيثمى فى مجمع الزوائد كتاب أهل الجنة باب فى أدنى أهل الجنة منزلة وآخر من يدخلها (١٠/٤٠١) بألفاظ قريبة وقال عنه رواه الطبرانى فى الأوسط عن شيخه المقدام بن داود وهو ضعيف وقد وثق وبقية رجاله ثقات .

* شجر الجنة :

وقال أبو هريرة : قال رسول الله ﷺ[1] :

« إن فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة عام لا يقطعها اقرءوا إن شئتم ﴿ وظل ممدود ﴾[2] .

وقال أبو أمامة : كان أصحاب رسول الله ﷺ يقولون : إن الله عز وجل ينفعنا بالأعراب ومسائلهم .

أقبل أعرابى فقال : يا رسول الله قد ذكَر الله فى القرآن شجرة مؤذية ، وما كنت أدرى أنّ فى الجنة شجرة تؤذى صاحبها ؟

فقال رسول الله ﷺ : « ما هى ؟ » قال : السدر فإنّ لها شوكا ، فقال: « قد قال الله تعالى : ﴿ فى سِدْرٍ مخضُودٍ ﴾[3] يخضد الله شوكه فيجعل مكان كل شوكة ثمرة ثم تنفتق الثمرة منها عن اثنين وسبعين لوناً من الطعام ما منها لون يشبه الآخر »[4] .

وقال جرير بن عبد الله : نزلنا الصفاح فإذا رجل نائم تحت شجرة قد كادت الشمس أن تبلغه .

فقلت للغلام : انطلق بهذا النطع فأَظِلُّه .

فانطلق فأظله .

فلما استيقظ فإذا هو سلمان فأتيته أسلم عليه فقال : يا جرير تواضع لله

---

(١) رواه أحمد فى المسند (١١٠/٣ ، ٤٦٢/٢) والدارمى فى (٣٣٨/٢) كتاب الرقاق باب فى أشجار الجنة ومجمع الزوائد كتاب أهل الجنة باب فيما أعده الله سبحانه وتعالى لأهل الجنة (٤١٤/١٠) وقال عنه : قلت هو فى الصحيح باختصار ثم قال رواه أحمد وفيه ابن لهيعة وقد وثق على ضعف وبقية رجاله رجال الصحيح وأخرجه البخارى فى كتاب بدء الخلق باب ما جاء فى صفة الجنة وأنها مخلوقة ، وكتاب التفسير تفسير سورة الواقعة وكتاب الرقائق باب صفة الجنة والنار . ومسلم فى كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها .

(٢) سورة الواقعة الآية : ٣٠ .　　(٣) سورة الواقعة الآية : ٢٨ .

(٤) قال صلى الله عليه وسلم يخضد الله شوكه فيجعل مكان كل شوكة أخرجه الحاكم فى المستدرك فى كتاب التفسير تفسير سورة الواقعة (٤٧٦/٢) وصححه ووافقه الإمام الذهبى .

فإن من تواضع لله فى الدنيا رفعه يوم القيامة هل تدرى ما الظلمات يوم القيامة ؟

قلت : لا أدرى ! قال : ظلم الناس بعضهم بعضاً ، ثم أخذ عويداً لا أكاد أراه من صغره .

فقال : يا جرير لو طلبت مثل هذا فى الجنة لم تجده، قلت : يا أبا عبد الله فأين النخل والشجر ؟

قال : أصولها اللؤلؤ والذهب وأعلاها الثمر .

* * *

الفصل الثالث :

صفة لباس أهل الجنة وفرشهم .. إلخ

* ثياب أهل الجنة .
* فراش أهل الجنة .

* ثياب أهل الجنة

قال الله تعالى : ﴿ **يُحلَّوْنَ فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسُهم فيها حرير** ﴾[1] .

والآيات فى ذلك كثيرة .

وإنما تفصيله فى الأخبار :

فقد روى أبو هريرة أن النبى ﷺ قال : « من يدخل الجنة ينعم لا يبأس لا تبلى ثيابه ولا يفنى شبابه ، فى الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر »[2] .

وقال رجل : يا رسول الله أخبرنا عن ثياب أهل الجنة أَخَلْقٌ تُخْلق أم نسج تنسج ؟ فسكت رسول الله ﷺ وضحك بعض القوم ، فقال رسول الله ﷺ : « ممَّ تضحكون ؟ من جاهل سأل عالماً » ثم قال رسول الله ﷺ : « بل ينشقُّ عنها ثمرة الجنة مرتين »[3] .

وقال أبو هريرة : قال رسول الله ﷺ : « إنّ أوّلَ زُمرة تَلجُ الجنة : صورتهم على صورة القمر ليلة البدر لا يبصقون فيها ولا يمتخطون ولا يتغوّطون آنيتهم وأمشاطهم من الذهب والفضة ورشحهم المسك ، لكل واحد منهم زوجتان يرى مخ ساقها من وراء اللحم من الحسن ، لا اختلاف بينهم ولا تباغض ، قلوبهم على قلب واحد يسبحون الله بكرة وعشية » وفى رواية « على كل زوجة سبعون حلة »[4] .

---

(١) سورة فاطر الآية : ٣٣ .

(٢) رواه مسلم دون قوله : « فى الجنة ما لا عين رأت .. » إلخ فاتفق عليه الشيخان من حديث آخر لأبى هريرة : « قال الله تعالى أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ... الحديث » .

(٣) أخرجه النسائى من حديث عبد الله بن عمرو .

(٤) متفق عليه .

وقال صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى : ﴿ **يُحلَّوْنَ فيها من أساور من ذهب** ﴾[1] قال : « إن عليهم التيجان إن أدنى لؤلؤة فيها تضىء ما بين المشرق والمغرب »[2] .

* * *

(١) سورة الكهف الآية ٣١ ، الحجر ٢٣ ، فاطر : ٣٣ .

(٢) قال العراقى : أخرجه الترمذى من حديث أبى سعيد دون ذكر الآية ، وقال : لا نعرفه إلا من حديث رشد بن سعد .

* فراش أهل الجنة :

وقال صلى الله عليه وسلم : « الخيمة درّة مجوّفة طولها فى السماء ستون ميلا فى كل زاوية منها للمؤمن أهل لا يراهم الآخرون »(١) رواه البخارى فى الصحيح(٢). قال ابن عباس : الخيمة درّة مجوّفة فرسخ فى فرسخ لها أربعة آلاف مصراع من ذهب .

وقال أبو سعيد الخدرى : قال رسول الله فى قوله تعالى : ﴿ **وفرش مرفوعة** ﴾(٣) قال : « ما بين الفراشين كما بين السماء والأرض »(٤) .

* * *

(١) أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها باب فى صفة قيام الجنة وما للمؤمنين فيها من الأهلين (٤/٢١٨٢ ، ٢١٨٣) وأحمد فى المسند (٤/٤٠٠ ، ٤١١ ؛ ٤١٩) وأخرجه الترمذى بلفظ قريب فى كتاب « صفة الجنة » باب ما جاء فى صفة غرف الجنة (٤/٥٨١) وقال عنه أبو عيسى هذا حديث حسن صحيح .

(٢) كتاب اتفسير ، باب (حور مقصورات فى الخيام) .

(٣) سورة الواقعة الآية : ٣٤ .

(٤) أخرجه الترمذى بلفظ قريب فى كتاب صفة الجنة باب ما جاء فى صفة ثياب أهل الجنة (٤/٥٨٦) وقال عنه أبو عيسى : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث رشدين بن سعد ، والترغيب والترهيب كتاب صفة الجنة والنار فصل فى فرش الجنة (٤/٥٣٠) .

الفصل الرابع :

صفة طعام أهل الجنـــة

* طعام أهل الجنة .
* شراب أهل الجنة .

* طعام أهل الجنة :

بيان طعام أهل الجنة مذكور فى القرآن من الفواكه والطيور السمان والمنّ والسلوى والعسل واللبن وأصناف كثيرة لا تحصى .

قال الله تعالى : ﴿ **كلما رُزِقُوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذى رُزِقنا من قبل وأُتُوا به متشابهاً** ﴾(١) .

وذكر الله تعالى شراب أهل الجنة فى مواضع كثيرة .

وقد قال ثوبان ـ مولى رسول الله ﷺ ـ كنت قائماً عند رسول الله ﷺ فجاءه حبر من أحبار اليهود فذكر أسئلة إلى أن قال : فمن أوّل إجازة ـ يعنى على الصراط ـ؟ فقال : « فقراء المهاجرين » قال اليهودى : فما تحفتهم حين يدخلون الجنة ؟ قال : « زيادة كبد الحوت » قال : فما غذاؤهم على أثرها ؟ قال : « ينحر لهم ثور الجنة الذى كان يأكل فى أطرافها » قال : فما شرابهم عليه ؟ قال: « من عين فيها تسمى سلسبيلا » فقال : صدقت(٢) .

وقال زيد بن أرقم : جاء رجل من اليهود إلى رسول الله ﷺ وقال : يا أبا القاسم ألست تزعم أن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون ؟ وقال لأصحابه: إن أقرّ لى بها خصمته ، فقال رسول الله ﷺ : « بلى والذى نفسى بيده إن أحدهم ليعطى قوّة مائة رجل فى المطعم والمشرب والجماع » فقال اليهودى: فإن الذى يأكل ويشرب يكون له الحاجة ؟ فقال رسول الله ﷺ : « حاجتهم عرَقٌ يفيض من جلودهم مثل المسك فإذا البطن قد ضمر » (٣).

(١) سورة البقرة الآية : ٢٥ .

(٢) أخرجه مسلم فى كتاب الحيض باب وجوب الغسل على المرأة بخروج المنى منها (٢٢٦/٣ ، ٢٢٧) .

(٣) أخرجه أحمد فى المسند (٣٦٧/٤ ، ٣٧١/٢) ، والدارمى فى كتاب الرقاق ، باب : فى أهل الجنة ونعميها (٣٣٤/٢) .

وقال ابن مسعود قال رسول الله ﷺ : « إنك لتنظر إلى الطير فى الجنة فتشتهيه فيخرّ بين يديك مشوياً »[١] .

وقال حذيفة : قال رسول الله ﷺ : « إن فى الجنة طيراً أمثال البخاتى . قال أبو بكر رضى الله عنه : إنها لناعمة يا رسول الله ؟ قال أنعم منها من يأكلها وأنت ممن يأكلها يا أبا بكر »[٢] .

وقال عبد الله بن عمر فى قوله تعالى: ﴿ **يُطافُ عليهم بِصحَافٍ** ﴾[٣] قال : يطاف عليهم بسبعين صحفة من ذهب كل صحفة فيها لون ليس فى الأخرى مثله .

* * *

(١) قال العراقى : أخرجه البزار بإسناد فيه ضعف .

(٢) قال العراقى : حديث غريب ، من حديث حذيفة ، ولأحمد من حديث أنس بإسناد صحيح.

(٣) سورة الزخرف الآية ٧١ .

* **شراب أهل الجنة :**

وقال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه :﴿ **ومِزاجُهُ من تَسْنِيم** ﴾ [1] قال : يمزج لأصحاب اليمين ويشرب به المقربون صرفا .

وقال أبو الدرداء رضى الله عنه : فى قوله تعالى : ﴿ **ختَامُهُ مسْكٌ** ﴾[2] قال هو شراب أبيض مثل الفضة يختم به آخر شرابهم لو أَنَّ رجلاً من أهل الدنيا أدخل يده فيه ثم أخرجها لم يبق ذو روح إلا وجد رِيحَ طيبها .

* * *

(١) سورة المطففين الآية : ٢٧ .
(٢) سورة المطففين الآية : ٢٦ .

الفصل الخامس:

صفة الحور العين والولدان

* نساء أهل الجنة .
* غناء الحور العين .

* نساء أهل الجنة :

قد تكرَّر فى القرآن وصفهم .

ووردت الأخبار بزيادة شرح فيه .

روى أنس رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « غَدْوَةٌ فى سبيل الله أو رَوْحَةٌ خير من الدنيا وما فيها ولَقَابَ قوْسِ أحدكم أو موضع قدمه من الجنة خير من الدنيا وما فيها ، ولو أن امرأة من نساء أهل الجنة اطلعت إلى الأرض لأضاءت ولملأت ما بينهما رائحة ولَنَصيفُها على رأسها خير من الدنيا بما فيها »(١) يعنى الخمار .

وقال أبو سعيد الخدرى : قال رسول الله ﷺ فى قوله تعالى : ﴿ **كأنهنّ الياقوت والمرجان** ﴾ قال : « تنظر إلى وجهها فى خدرها أصفى من المرآة وإنّ أدنى لؤلؤة عليها لتضىء ما بين المشرق والمغرب وإنه يكون عليها سبعون ثوباً ينفذها بصره حتى يرى مخ ساقها من وراء ذلك »(٢) .

وقال أنس : قال رسول الله ﷺ : « لما أُسرى بى دخلت فى الجنة موضعاً يسمى البيدخ عليه خيام اللؤلؤ والزبرجد الأخضر والياقوت الأحمر فقلن : السلام عليك يا رسول الله ؛ فقلت: يا جبريل ما هذا النداء ؟ قال : هؤلاء المقصورات فى الخيام استأذنّ ربهنّ فى السلام عليك فأَذن لهنّ . فطفقن يقلن نحن الراضيات فلا نسخط أبداً ونحن الخالدات فلا نظعن أبداً، وقرأ رسول الله ﷺ قوله تعالى : ﴿ **حور مقصورات فى الخيام** ﴾(٣) .

---

(١) أخرجه البخارى من حديث أنس .

(٢) أخرجه الدارمى مختصراً فى كتاب الرقائق باب فى صفة الحور العين (٢/٣٣٦) .

(٣) ذكره الهيثمى فى المجمع مع اختلاف فى الألفاظ (١٠/ ٤١٨ ، ٤١٩) كتاب أهل الجنة باب ما جاء فى نساء أهل الجنة من الحور العين وغيرهن وقال عنه : رواه الطبرانى فى الأوسط والكبير بنحوه وفى إسنادهما سليمان بن أبى كريمة وهو ضعيف .

وقال مجاهد فى قوله تعالى : ﴿ **وأزواج مطهرة** ﴾[1] قال : من الحيض والغائط والبول والبصاق والنخامة والمنى والوبل .

وقال الأوزاعى : ﴿ **فى شُغُل فاكهون** ﴾[2] قال : شغلهم افتضاض الأبكار . وقال رجل : يا رسول الله أيباضع أهل الجنة ؟ قال : « يعطى الرجل منهم من القوّة فى اليوم الواحد أفضل من سبعين منكم »[3] .

وقال عبد الله بن عمر : إن أدنى أهل الجنة منزلة من يسعى معه ألف خادم كل خادم على عمل ليس عليه صاحبه .

وقال رسول الله ﷺ : « إن الرجل من أهل الجنة ليتزوج خمسمائة حوراء وأربعين آلاف بكر وثمانية آلاف ثيب يعانق كل واحدة منهنّ مقدار عمره فى الدنيا »[4] .

* غناء الحور العين :

وقال النبى ﷺ : « إن فى الجنة سوقاً ما فيها بيع ولا شراء إلا الصور من الرجال والنساء ، فإذا اشتهى الرجل صورة دخل فيها ، وإن فيها لمجتمع الحور العين يرفعن بأصوات لم تسمع الخلائق مثلها يقلن نحن الخالدات فلا نبيد ونحن الناعمات فلا نبأس ونحن الراضيات فلا نسخط فطوبى لمن كان لنا وكنّ له »[5] .

---

(١) سورة آل عمران الآية : ١٥ .

(٢) سورة يس الآية : ٥٥ .

(٣) أخرجه الترمذى بلفظ قريب فى كتاب الجنة وصفة نعيمها باب ما جاء فى صفة جماع أهل الجنة (٨٤/٤) وقال عنه أبو عيسى هذا حديث صحيح غريب لا نعرفه من حديث قتادة عن أنس إلا من حديث عمران القطان . وأخرجه ابن حبان فى (٢٤٥/٩ ، ٢٤٦) وانظر الإتحاف (٢٤٥/٩) .

(٤) ذكره المنذرى فى كتاب صفة الجنة والنار فصل فى وصف نساء أهل الجنة (٣٢/٤) وقال : رواه البيهقى وفى إسناده راوٍ لم يسم ، وذكر صاحب الإتحاف فى (٥٤٦/٤) وقال العراقى : إسناده ضعيف .

(٥) ذكره ابن الجوزى فى الموضوعات (٢٥٦/٣) باب سوق الجنة وقال عنه هذا حديث لا يصح والمتهم به عبد الرحمن بن إسحاق وهو أبو شيبة الواسطى . قال أحمد : ليس بشىء منكر الحديث وقال يحيى : متروك . =

وقال أنس رضى الله عنه قال رسول الله ﷺ : « إنّ الحور فى الجنة يتغنين : نحن الحور الحسان خبئنا لأزواج كرام »[1] .

وقال يحيى بن كثير فى قوله تعالى : ﴿ **فى روضة يُحْبَرُونَ** ﴾[2] قال: السماع فى الجنة .

وقال أبو أمامة الباهلى : قال رسول الله ﷺ : « ما من عبد يدخل الجنة إلا ويجلس عند رأسه وعند رجليه ثنتان من الحور العين يغنيانه بأحسن صوت سمعه الإنس والجن وليس بمزمار الشيطان ولكن بتحميد الله وتقديسه »[3] .

* * *

= وذكره صاحب اللآلئ فى (٤٥٤/٢) كتاب البعث وقال عنه لا يصح والمتهم به عبد الرحمن بن إسحاق وهو أبو شيبة الواسطى قال يحيى : متروك . قلت : قال الحافظ بن حجر فى القول المسدد أخرجه من طريقه الترمذى وقال : غريب وحسن له غيره مع قوله إنه تكلم فيه من قبل وصحح الحاكم من طريقه .

(١) رواه الطبرانى فى الأوسط بلفظ قريب ورجاله وثقوا .

وذكره صاحب مجمع الزوائد فى كتاب أهل الجنة باب ما جاء فى نساء أهل الجنة من الحور العين وغيرهن (٤١٩/١٠) .

(٢) سورة الروم الآية : ١٥ .

(٣) رواه الطبرانى وفيه من لم أعرفهم .

وذكره صاحب مجمع الزوائد فى كتاب أهل الجنة باب ما جاء فى نساء أهل الجنة من الحور العين وغيرهن (٤١٨/١٠) .

الفصل السادس

جمل مفرقة من أوصاف
أهل الجنـــة

روى أسامة بن زيد أنّ رسول الله ﷺ قال لأصحابه :

« ألا هل من مشمر للجنة إن الجنة لا خطر لها هى ورب الكعبة نور يتلألأ وريحانة تهتز ، وقصر مشيد ، ونهر مطرد ، وفاكهة كثيرة نضيجة ، وزوجة حسناء جميلة فى حبرة ونعمة فى مقام أبداً ونضرة فى دار عالية بهية سليمة » .

قالوا : نحن المشمرون لها يا رسول الله .

قال : « قولوا إن شاء الله تعالى » .

ثم ذكر الجهاد وحضّ عليه[١] .

وجاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : هل فى الجنة خيل ؟ فإنها تعجبنى !

قال : « إن أحببت ذلك أتيت بفرس من ياقوتة حمراء فتطير بك فى الجنة حيث شئت »

وقال له رجل : إنّ الإبل تعجبنى فهل فى الجنة من إبل ؟ فقال يا عبد الله إن أدخلت الجنة فلك فيها ما اشتهت نفسك ولذت عينك »[٢] .

وعن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الرجل من أهل الجنة ليولد له الولد كما يشتهى ، يكون حمله وفصاله وشبابه فى ساعة واحدة »[٣] .

وقال رسول الله ﷺ : « إذا استقرّ أهل الجنة فى الجنة اشتاق الإخوان إلى الإخوان فيسير سرير هذا إلى سرير هذا فيلتقيان ويتحدّثان

---

(١) أخرجه ابن ماجه فى كتاب الزهد باب صفة الجنة (٢/٥٩٠ ، ٥٩١) ، وابن حبان فى (٩/٢٣٨) باب وصف الجنة وأهلها أول الباب .

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى المسند بلفظ قريب وذكره السيوطى فى الدر المنثور (٦/٢٣) .

(٣) أخرجه ابن ماجه فى كتاب الزهد باب صفة الجنة ، وأخرجه الترمذى ، وقال: حسن غريب.

ما كان بينهما فى دار الدنيا فيقول يا أخى تذكر يوم كذا فى مجلس كذا فدعونا الله عز وجل فغفر لنا »[1] .

وقال رسول الله ﷺ : « إن أهل الجنة جرد مرد جعاد مكحلون أبناء ثلاث وثلاثين على خلق آدم طولهم ستون ذراعاً عرض سبعة أذرع »[2] .

وقال رسول الله ﷺ : « أدنى أهل الجنة الذى له ثمانون ألف خادم وثنتان وسبعون زوجة وينصب له قبة من لؤلؤ وزبرجد وياقوت كما بين الجابية إلى صنعاء وإنّ عليهم التيجان وإنّ أدنى لؤلؤة منها لتضىء ما بين المشرق والمغرب »[3] .

وقال صلى الله عليه وسلم : « نظرت إلى الجنة فإذا الرمانة من رمانها كخلف البعير المقتب وإذا طيرها كالبخت ، وإذا فيها جارية فقلت يا جارية لمن أنت ؟ فقالت لزيد بن حارثة ، وإذاً فى الجنة ما لا عين رأت ولا أُذن سمعت ولا خطر على قلب بشر »[4].

* * *

وقال كعب :

---

(١) ذكره صاحب مجمع الزوائد فى كتاب أهل الجنة باب زيارة الإخوان فى الجنة (٤٢١/١٠) ورواه البزار بألفاظ قريبة ورجاله رجال الصحيح غير سعيد بن دينار والربيع بن صبيح وهما ضعيفان وقد وثقا . وذكره صاحب كشف الخفاء فى (٨١/١) وقال : رواه البزار بسند عن أنس وقال لا نعلمه يروى عن النبى ﷺ إلا بهذا الإسناد تفرد به أنس ، قال الزين العراقى وفيه الربيع بن صبيح ضعيف جداً ، ورواه الأصفهان فى الترغيب والترهيب مرسلا أ هـ .

(٢) أخرجه الترمذى من حديث معاذ وحسنه دون قوله : « بيض جعاد » ودون قوله « على خلق آدم » إلى آخره ورواه أيضاً من حديث أبى هريرة مختصراً « أهل الجنة جرد مرد كحل » وقال غريب وفى الصحيحين من حديث أبى هريرة « على صورة أبيهم آدم ستون ذراعا » .

(٣) أخرجه الترمذى من حديث أبى سعيد منقطعا من أوله إلى قوله : « وإن عليهم التيجان » ومن هنا بإسناده أيضاً وقال لا نعرفه إلا من حديث رشد بن سعد .

(٤) رواه الثعلبى فى تفسيره من رواية أبى هرون العبدى عن أبى سعيد وأبو هرون اسمه عمارة بن حريث ضعيف جداً وفى الصحيحين من حديث أبى هريرة « يقول الله أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » .

خلق الله تعالى آدم عليه السلام بيده .

وكتب التوراة بيـده .

وغرس الجنة بيـده ثم قـال لهـا تكلمى فـقـالـت : ﴿ **قـد أفـلـح المؤمنون** ﴾[1] .

فهذه صفات الجنة ذكرناها جملة ثم نقلناها تفصيلاً .

* * *

وقد ذكر الحسن البصرى رحمه الله جملتها فقال :

إنَّ رمانها مثل الدلاء .

وإن أنهارها لمن ماء غير آسِنٍ وأنهار من لبن لم يتغير طعمه .

وأنهار من عسل مصفى لم يصفه الرجال .

وأنهـار من خـمـر لذة للشـاربين لا تسـفـه الأحـلام ولا تصـدع منهـا الرءوس .

وإن فيها ما لا عين رأت ولا أُذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

ملوك ناعمـون أبناء ثلاث وثلاثين فى سنٍ واحد طولهم ستون ذراعاً فى السماء ، كحل جرد مرد قد أمنوا العذاب واطمأنت بهم الدار .

وإن أنهارها لتجرى على رضراض من ياقوت وزبرجد .

وإن عـروقـهـا ونخلهـا وكـرْمـهـاَ اللؤلؤ وثمـارها لا يعلم علمـهـا إلا الله سبحانه وتعالى .

وإن ريحها ليوجد من مسيرة خمسمائة سنة .

وإن لهم فيها خيلا وإبلا هفافة رحالها وأزمتها وسروجها من ياقوت .

يتزاورون فيها وأزواجهم الحور العين كأنهنَّ بيض مكنون .

وإن المرأة لتأخذ بين أصبعيها سبعين حلة فتلبسها فيرى مخ ساقها من وراء تلك السبعين حلة .

(١) سورة المؤمنون الآية الأولى .

قد طهر الله الأخلاق من السوء والأجساد من الموت .

لا يمتخطون فيها ولا يبولون ولا يتغوّطون وإنما هو جُشاءٌ ورشح مسك .

لهم رزقهم فيها بكرة وعشيا ، أما إنه ليس ليل يكر الغدوّ على الرواح والرواح على الغدوّ .

وإن آخر من يدخل الجنة وأدناهم منزلة ليمدّ له فى بصره وملكه مسيرة مائة عام فى قصور من الذهب والفضة وخيام اللؤلؤ ، ويفسح له فى بصره حتى ينظر إلى أقصاه كما ينظر إلى أدناه ، يُغْدَى عليهم بسبعين ألف صحفة من ذهب ويراح عليهم بمثلها ، فى كل صحفة لون ليس فى الأخرى مثله ، ويجد طعم آخره كما يجد طعم أوّله .

وإن فى الجنة لياقوته فيها سبعون ألف دار فى كل دار سبعون ألف بيت ليس فيها صدع ولا ثقب .

* * *

وقال مجاهد :

إن أدنى أهل الجنة منزلة لمن يسير فى ملكه ألف سنة يرى أقصاه كما يرى أدناه .

وأرفعهم الذى ينظر إلى ربه بالغداة والعشى .

وقال سعيد بن المسيب : ليس أحد من أهل الجنة إلا وفى يده ثلاثة أسورة .

سوار من ذهب وسوار من لؤلؤ وسوار من فضة .

وقال أبو هريرة رضى الله عنه : إن فى الجنة حوراء يقال لها العيناء إذا مشت مشى عن يمينها ويسارها سبعون ألف وصيفة وهى تقول : أين الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر .

وقال يحيى بن معاذ : ترك الدنيا شديد وفوت الجنة أشدّ وترك الدنيا مهر الآخِرة .

وقال أيضاً : فى طلب الدنيا ذل النفوس ، وفى طلب الآخرة عز النفوس .

* * *

فيا عجباً لمن يختار المذلة فى طلب ما يفنى ويترك العز فى طلب ما يبقى !

* * *

الفصل السابع :

رؤية الله تعالى فى الجنة

صفة الرؤية والنظر إلى وجه الله تبارك وتعالى

قال الله تعالى : ﴿ **للذين أحسنوا الحسنى وزيادة** ﴾[1] .

وهذه الزيادة هى : النظر إلى وجه الله تعالى ، وهى اللذة الكبرى التى يُنْسى فيها نعيم أهل الجنة .

وقد ذكرنا حقيقتها فى كتاب المحبة .

وقد شهد لها الكتاب والسنة على خلاف ما يعتقده أهل البدعة .

قال جرير بن عبد الله البجلى : كنا جلوساً عند رسول الله ﷺ فرأى القمر ليلة البدر فقال : « إنكم ترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون فى رؤيته فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا » ثم قرأ : ﴿ **وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها** ﴾[2] وهو مخرج فى الصحيحين[3] .

وروى مسلم فى الصحيح عن صهيب قال : قرأ رسول الله ﷺ قوله تعالى : ﴿ **للذين أحسنوا الحسنى وزيادة** ﴾ قل : « إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النارِ النار نادى مناد : يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعداً يريد أن يُنْجِزَ كموهُ قالوا : ما هذا الموعد ؟ ألم يثقِّل موازيننا ويبيض وجوهنا ويدخلنا الجنة ويجرنا من النار ؟ » قال : « فيرفع الحجاب وينظرون إلى وجه الله عز وجل فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إليه »[4] .

---

(١) سورة يونس الآية : ٢٦ .

(٢) سورة طـــه الاية : ١٣٠ .

(٣) أخرجه البخارى فى كتاب الصلاة باب فضل العصر ، وكتاب التفسير تفسير سورة (ق) ، ومسلم فى كتاب المساجد باب فضل صلاتى الصبح والمحافظة عليها .
وأبو داود فى كتاب السنة باب فى الرؤية والمسند (٣٦٠/٤) .

(٤) أخرجه مسلم فى كتاب الإيمان ، باب « إثبات رؤية المؤمنين فى الآخرة لربهم سبحانه وتعالى والإمام أحمد فى المسند (٣٣٣/٤) ، وابن ماجة فى المقدمة باب فيما أنكرت الجهمية .

وقد روى حديث الرؤية جماعة من الصحابة .

وهذه هى غاية الحسنى ونهاية النعمى .

وكل ما فصلناه من التنعم عند هذه النعم ينسى وليس لسرور أهل الجنة عند سعادة اللقاء منتهى ، بل لا نسبة لشىء من لذات الجنة إلى لذة اللقاء .

وقد أوجزنا فى الكلام هنا لما فصلناه فى كتاب المحبة والشوق والرضا فلا ينبغى أن تكون همة العبد من الجنة بشىء سوى لقاء المولى ، وأما سائر النعم فإنه يشارك فيه البهيمة المسرحة فى المرعى .

* * *

خاتمة الكتاب

فى سعة رحمة الله تعالى
والتفاؤل بذلك

نختم الكتاب بباب فى سعة رحمة الله تعالى على سبيل التفاؤل بذلك

فقد كان رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم يحب الفأل[١] وليس لنا من الأعمال ما نرجو به المغفرة فنقتدى برسول الله ﷺ فى التفاؤل ، ونرجو أن يختم عاقبتنا بالخير فى الدنيا والآخرة كما ختمنا الكتاب بذكر رحمة الله تعالى .

فقد قال الله تعالى : **﴿ إن الله لا يغفر أن يُشْرَك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾**[٢] .

وقال تعالى : **﴿ قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطُوا من رحمة الله إنّ الله يغْفِر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم ﴾**[٣] .

وقال تعالى : **﴿ ومن يعْمَل سُوءاً أو يظْلم نفْسهُ ثم يَستغْفِرِ الله يَجدِ الله غفوراً رحيما ﴾**[٤].

ونحن نستغفر الله تعالى من كل مازلت به القدم أو طغى به القلم فى كتابنا هذا وفى سائر كتبنا ، ونستغفره من أقوالنا التى لا توافقها أعمالنا .

ونستغفره مما ادّعيناه وأظهرناه من العلم والبصيرة بدين الله تعالى مع التقصير فيه .

ونستغفره من كل علم وعمل قصدنا به وجهه الكريم ثم خالطه غيره.

ونستغفره من كل وعد وعدناه به من أنفسنا ثم قصرنا فى الوفاء به .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى المسند (٣٣٢/٢) والبخارى فى كتاب الطب باب الفأل ، ومسلم فى كتاب السهام باب الطيرة والفأل وما يكون فيه الشؤم أ هـ .

(٢) سورة النساء الآية : ١١٦ .

(٣) سورة الزمر الآية : ٥٣ .

(٤) سورة النساء الآية : ١١٠ .

ونستغفره من كل نعمة أنعم بها علينا فاستعملناها فى معصيته .

ونستغفره من كل تصريح وتعريض بنقصان ناقص وتقصير مُقَصِّر كنا متصفين به .

ونستغفره من كل خَطْرةٍ دعتنا إلى تصنع وتكلف تَزَيُّناً للناس فى كتاب سطرناه أو كلام نظمناه أو علم أفدناه أو استفدناه .

ونرجو بعد الاستغفار من جميع ذلك كله لنا ولمن طالع كتابنا هذا أو كتبهُ أو سمعه أن نكرم بالمغفرة والرحمة والتجاوز عن جميع السيئات ظاهراً وباطناً ، فإن الكرم عميم والرحمة واسعة والجود على أصناف الخلائق فائض . ونحن خلق من خلق الله عز وجل لا وسيلة لنا إليه إلا فضله وكرمه.

فقد قال رسول الله ﷺ : « إن لله تعالى مائة رحمة منها رحمة واحدة بين الجن والإنس والطير والبهائم والهوامّ فبها يتعاطفون وبها يتراحمون وأخّر تسعا وتسعون رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة[1] » .

ويروى أنه : « إذا كان يوم القيامة أخرج الله تعالى كتاباً من تحت العرش فيه إنّ رحمتى سبقت غضبى وأنا أرحم الراحمين فيخرج من النار مثلا أهل الجنة »[2] .

وقال رسول الله ﷺ : « يتجلى الله عز وجل لنا يوم القيامة ضاحكاً فيقول أبشروا معشر المسلمين فإنه ليس منكم أحد إلا وقد جعلت مكانه فى النار يهوديا أو نصرانياً »[3] .

(١) أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة وسلمان .

(٢) متفق عليه من حديث أبى هريرة « لما قضى الله الخلق كتب عنده فوق العرش إن رحمتى سبقت غضبى » لفظ البخارى وقال مسلم « كتب فى كتابه على نفسه إن رحمتى تغلب غضبى » .

(٣) أخرجه مسلم من حديث أبى موسى « إذا كان يوم القيامة دفع الله إلى كل مسلم يهودياً أو نصرانياً فيقول هذا فداؤك من النار » ولأبى داود : « أمتى أمة مرحومة لا عذاب عليها فى الآخرة ... الحديث » وأما أول الحديث فرواه الطبرانى من حديث أبى موسى أيضاً : « يتجلى الله ربنا لنا ضاحكاً يوم القيامة حتى ينظروا إلى وجهه فيخرون له سجدا فيقول ارفعوا رؤوسكم فليس هذا يوم عبادة » وفيه على بن زيد بن جدعان .

وقال النبى ﷺ : « يُشَفَّع الله تعالى آدم يوم القيامة من جميع ذرّيته فى مائة ألف ألف وعشرة آلاف ألف »[١] .

وقال صلى الله عليه وسلم : « إن الله عز وجل يقول يوم القيامة للمؤمنين هل أحببتم لقائى فيقولون نعم يا ربنا . فيقول لم ؟ فيقولون رجونا عفوك ومغفرتك فيقول قد أوجبت لكم مغفرتى »[٢] .

وقال رسول الله ﷺ : « يقول الله عز وجل يوم القيامة أخرجوا من النار من ذكرنى يوماً أو خافنى فى مقام »[٣] .

وقال رسول الله ﷺ [٤]: « إذا اجتمع أهل النار ومن شاء الله معهم من أهل القبلة قال الكفار للمسلمين ألم تكونوا مسلمين ؟ قالوا : بلى . فيقولون ما أغنى عنكم إسلامكم إذ أنتم معنا فى النار . فيقولون كانت لنا ذنوب فأخذنا بها ، فيسمع الله عز وجل ما قالوا فيأمر بإخراج من كان فى النار من أهل القبلة فيخرجون فإذا رأى ذلك الكفار قالوا : يا ليتنا كنا مسلمين فنخرج كما أخرجوا » ثم قرأ رسول الله ﷺ : ﴿ **رُبَمَا يَوَدُّ الذين كفروا لو كانوا مسلمين** ﴾[٥] .

---

(١) ذكره صاحب مجمع الزوائد فى كتاب البعث باب شفاعة أبينا آدم عليه الصلاة والسلام وقال رواه الطبرانى فى الأوسط وفيه يزيد الرقاشى وهو ضعيف (٣٨١/١٠) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده ج ٥ ص ٢٣٨ .

(٣) أخرجه أحمد فى المسند (٢٧٦/٣) ، وابن أبى عاصم فى كتاب السنة (٤٠٠/٢) وقال عنه محققه حديث ضعيف ورجاله ثقات غير أن مبارك بن فضاله مدلس وقد عنعنه لكن قد صرح بالحديث فى بعض الرويات كما يأتى والترمذى فى كتاب جهنم ، والمستدرك فى كتاب باب يقول الله تعالى أخرجوا من النار من ذكرنى أو خافنى فى مقام .

(٤) أخرجه الحاكم فى المستدرك فى كتاب التفسير ص ١٢ ، وقال عنه هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه وقال الذهبى صحيح .

والهيثمى فى مجمع الزوائد كتاب التفسير سورة الحجر (٤٥/٧) وقال عنه رواه الطبرانى ومنه خالد بن نافع الأشعرى قال أبو داود متروك ، قال الذهبى : هذا تجاوز فى الحد فما يستحق الترك فقد حدث عنه ابن حنبل وغيره ، وبقية رجاله ثقات .

(٥) سورة الحجر الآية : ٢ .

وقال رسول الله ﷺ : « لله أرحم بعبده المؤمن من الوالدة الشفيقة بولدها »[1] .

وقال جابر بن عبد الله : من زادت حسناته على سيآته يوم القيامة فذلك الذى يدخل الجنة بغير حساب ومن استوت حسناته وسيآته فذلك الذى يحاسب حساباً يسيراً ، ثم يدخل الجنة . وإنما شفاعة رسول الله ﷺ لمن أوبق نفسه وأثقل ظهره .

ويروى أن الله عز وجل قال لموسى عليه السلام : يا موسى استغاث بك قارون فلم تغِثْه وعزتى وجلالى لو استغاث بى لأغثته وعفوت عنه .

وقال سعد بن بلال : يؤمر يوم القيامة بإخراج رجلين من النار ، فيقول الله تبارك وتعالى : ذلك بما قدّمت أيديكما وما أنا بظلام للعبيد ، ويأمر بردّهما إلى النار ، فيعدو أحدهما فى سلاسله حتى يقتحمها ويتلكأ الآخر فيؤمر بردّهما ويسألهما عن فعلهما ، فيقول الذى عدا إلى النار قد حذرت من وبال المعصية فلم أكن لأتعرّض لسخطك ثانية ، ويقول الذى تلكأ حسن ظنى بك كان يشعرنى أن لا تردّنى إليها بعد ما أخرجتنى منها ، فيأمر بهما إلى الجنة .

وقال رسول الله ﷺ : « ينادى مناد من تحت العرش يوم القيامة يا أُمة محمد أما ما كان لى قبلكم فقد وهبته لكم وبقيت التبعات فتواهبوها وادخلوا الجنة برحمتى »[2] .

ويروى أن أعرابياً سمع ابن عباس يقرأ : ﴿ **وكنتم على شَفَا حفرة من النار فأنقذكم منها** ﴾[3] فقال الأعرابى : فوالله ما أنقذكم منها وهو يريد أن

(١) متفق عليه من حديث عمر بن الخطاب وفى أوله : قصة المرأة من السبى إذ وجدت صبيا فى السبى فأخدته فألصقته ببطنها فأرضعته .

(٢) رويناه فى سباعيات أبى الأسعد القشيرى من حديث أنس وفيه الحسين بن داود البلخى قال الخطيب ليس بثقة .

(٣) سورة آل عمران الآية : ١٠٣ .

يوقعكم فيها ، فقال ابن عباس : خذوها من غير فقيه .

وقال الصنابحى : دخلت على عبادة بن الصامت وهو فى مرض الموت فبكيت فقال : مهلاً .. لم تبكى ؟ فوالله ما من حديث سمعته من رسول الله ﷺ لكم فيه خير إلا حدّثتكموه إلا حديثاً واحداً وسوف أحدّثكموه اليوم وقد أحيط بنفسى ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من شهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله حرّم الله عليه النار »[١] .

وقال عبد الله بن عمرو بن العاص : قال رسول الله ﷺ : « إن الله يستخلص رجلاً من أمّتى على رءوس الخلائق يوم القيامة فينشر عليه تسعة وتسعين سجلاً كل سجل منها مثل مدّ البصر ، ثم يقول أتنكر من هذا شيئاً أظلمتْك كَتَبتى الحافظَون فيقول لا يا رب . فيقول أفلك عذر ؟ فيقول لا يا رب، فيقول بلى إن لك عندنا حسنة وإنه لا ظلم عليك اليوم ، فيخرج بطاقة فيها « أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله » فيقول : « يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فيقول إنك لا تظلم » قال : « فتوضع السجلات فى كفة والبطاقة فى كفة » قال : « فطاشت السجلات وثقلت البطاقة فلا يثقل مع اسم الله شىء »[٢] .

وقال رسول الله ﷺ فى آخر حديث طويل يصف فيه القيامة والصراط[٣] : « إن الله يقول للملائكة من وجدتم فى قلبه مثقال دينار من خير فأخرجوه من النار فيخرجون خلقاً كثيراً ، ثم يقولون يا ربنا لم نذَرْ فيها أحداً ممن أمرتنا به ، ثم يقول ارجعوا فمن وجدتم فى قلبه مثقال دينار من

---

(١) أخرجه مسلم من هذا الوجه واتفقا عليه من غير رواية الصنابحى بلفظ آخر .

(٢) أخرجه الحاكم فى المستدرك فى كتاب الإيمان باب فضيلة الشهادة أن لا إله إلا الله ونقله فى الميزان ٦/١ وقال عنه هذا حديث صحيح لم يخرج فى الصحيحين وهو صحيح على شرط مسلم فقد احتج بأبى عبد الرحمن الحبلى عن عبد الله بن عمرو بن العاص وعامر بن يحيى مصرى ثقة والليث بن سعد إمام ويونس المؤدب ثقة متفق على إخراجه فى الصحيحين ، وأحمد فى المسند (٢١٣/٢) .

(٣) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (١٦/٣ ، ١٧) بلفظ قريب، ورواه الشيخان فى صحيحيهما

خير فأخرجوه فيخرجون خلقاً كثيراً ، ثم يقولون يا ربنا لم نذر فيها أحداً ممن أمرتنا به ، ثم يقول ارجعوا فمن وجدتم فى قلبه مثقال ذرّة من خير فأخرجوه فيخرجون خلقاً كثيراً ثم يقولون : يا ربنا لم نذر فيها أحداً ممن أمرتنا به » فكان أبو سعيد يقول : إن لم تصدقونى بهذا الحديث فاقرءوا إن شئتم ﴿ **إن الله لا يظلم مثقال ذرّة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً** ﴾[1] قال فيقول الله تعالى شفعت الملائكة وشفع النبيون وشفع المؤمنون ولم يبق إلا أرحم الراحمين ، فيقبض قبضة فيخرج منها قوماً لم يعملوا خيراً قط قد عادوا حمماً فيلقيهم فى نهر فى أفواه الجنة يقال له نهر الحياة فيخرجون منها كما تخرج الحبة فى حميل السيل ألا ترونها تكون مما يلى الحجر والشجر ما يكون إلى الشمس أصفر وأخضر ، وما يكون منها إلى الظل أبيض » قالوا يا رسول الله كأنك كنت ترعى بالبادية قال « فيخرجون كاللؤلؤ فى رقابهم الخواتيم يعرفهم أهل الجنة يقولون هؤلاء عتقاء الرحمن الذين أدخلهم الجنة بغير عمل عملوه ولا خير قدموه ، ثم يقول ادخلوا الجنة فما رأيتم فهو لكم ، فيقولون ربنا أعطيتنا ما لم تعط أحداً من العالمين ، فيقول الله تعالى إن لكم عندى ما هو أفضل من هذا فيقولون : يا ربنا أى شىء أفضل من هذا ؟ فيقول رضائى عنكم فلا أسخط عليكم بعده أبداً » رواه البخارى ومسلم فى صحيحيهما .

وروى البخارى أيضاً عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : خرج علينا رسول الله ﷺ ذات يوم فقال : « عرضت علىّ الأمم يمر النبى ومعه الرجل والنبى ومعه الرجلان والنبى ليس معه أحد والنبى معه الرهط ، فرأيت سواداً كثيراً فرجوت أن تكون أمتى فقيل لى هذا موسى وقومه ، ثم قيل لى انظر فرأيت سواداً كثيراً قد سدّ الأفق ، فقيل لى انظر هكذا فرأيت سواداً كثيراً ، فقيل لى هولاء أمتك ومع هؤلاء سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب » فتفرق الناس ولم يبين لهم رسول الله ﷺ فتذاكر ذلك

(١) سورة النساء الآية : ٤٠ .

الصحابة فقالوا : أما نحن فولدنا فى الشرك ولكن قد آمنا بالله ورسوله هؤلاء هم أبناؤنا ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال : « هم الذين لا يكتوون ولا يسترقون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون » فقام عكاشة فقال : ادع الله أن يجعلنى منهم يا رسول الله فقال : « أنت منهم » ثم قام آخر فقال مثال قول عكاشة فقال رسول الله ﷺ : « سبقك بها عكاشة »[1] .

وعن عمرو بن حزم الأنصارى قال : تغيب عنا رسول الله ﷺ ثلاثاً لا يخرج إلا لصلاة مكتوبة ثم يرجع ، فلما كان اليوم الرابع خرج إلينا فقلنا : يا رسول الله احتبست عنا حتى ظننا أنه قد حدث قال : « لم يحدث إلا خير إن ربى عز وجل وعدنى أن يدخل الجنة من أمتى سبعين ألف لا حساب عليهم وإنى سألت ربى فى هذه الثلاثة أيام المزيد فوجدت ربى ماجداً واجداً كريماً فأعطانى مع كل واحد من السبعين ألفاً سبعين ألفاً » قال : « قلت يا رب وتبلغ أمتى هذا ؟ قال أكمل لك العدد من الأعراب »[2] .

وقال أبو ذر : قال رسول الله ﷺ : « عرض لى جبريل فى جانب الحرة فقال : بشر أمتك أنه من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة ، فقلت يا جبريل وإن سرق وإن زنى ؟ قال : نعم وإن سرق وإن زنى ، قلت وإن

---

(١) أخرجه الدارمى فى كتاب الرقائق باب يدخل الجنة سبعون ألفاً من أمتى بغير حساب (٣٢٨/٢) .

وأخرجه الحاكم فى المستدرك فى حديث طويل فى كتاب الأهواء باب ذكر عرض الأنبياء بأتباعهم على نبينا ﷺ (٥٧٧/٤ ، ٥٧٨) وقال عنه : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه بهذه السياق وقال الذهبى : صحيح ، وأحمد فى المسند (٤٠٠/١ ، ٤٢٠) والبداية والنهاية (٣١٤/١) وقال عنه ابن كثير هذا الحديث له طرق كثيرة هى فى الصحاح والحسان وغيرها .

(٢) أخرجه البيهقى فى البعث والنشور ولأحمد وأبى يعلى من حديث أبى بكر « فزادنى مع كل واحد وسبعين ألفا » وفيه رجل لم يسم ولأحمد والطبرانى فى الأوسط من حديث عبد الرحمن بن أبى بكر فقال عمر : فهلا استزدته ؟ فقال « ثد استزدته فأعطانى مع كل رجل سبعين ألفا » قال عمر فهلا استزدته ؟ قال « قد استزدته فأعطانى هكذا » وفرج عبد الله بن أبى بكر بين يديه قال عبد الله وبسط باعيه وحتى عليه وفيه موسى بن عبيدة الرندى ضعيف .

سرق وإن زنى ؟ قال وإن سرق وإن زنى . قلت وإن سرق وإن زنى ؟ قال وإن سرق وإن زنى وإن شرب الخمر »[1] .

وقال أبو الدرداء : قرأ رسول الله ﷺ : ﴿ **ولمن خاف مقام ربه جنتان** ﴾ فقلت وإن سرق وإن زنى يا رسول الله ؟ فقال : ﴿ **ولمن خاف مقام ربه جنتان** ﴾ فقلت وإن سرق وإن زنى؟ فقال : ﴿ **ولمن خاف مقام ربه جنتان** ﴾ فقلت : وإن سرق وإن زنى يا رسول الله ؟ قال « وإن رغم أنف أبي الدرداء »[2]

وقال رسول الله ﷺ : « إذا كان يوم القيامة دفع إلى كل مؤمن رجل من أهل الملل فقيل له هذا فداؤك من النار »[3] .

وروى مسلم فى الصحيح عن أبى بردة : أنه حدّث عمر بن عبد العزيز عن أبيه أبى موسى عن النبى ﷺ قال : « لا يموت رجل مسلم إلا أدخل الله تعالى مكانه النار يهودياً أو نصرانياً » فاستحلفه عمر بن عبد العزيز بالله لا إله إلا هو ـ ثلاث مرات ـ أن أباه حدّثه عن رسول الله ﷺ فحلف له[4] .

وروى أنه وقف صبى فِي بعض المغازى ينادى عليه فيمن يزيد ـ فى يوم صائف شديد الحرّ ـ فبصرتْ به امرأة فى خباء القوم فأقبلت تشتدّ وأقبل أصحابها خلفها ، حتى أخذت الصبى وألصقته إلى صدرها ثم ألقت ظهرها على البطحاء وجعلته على بطنها تقيه الحرّ ، وقالت : ابنى ابنى ! فبكى الناس وتركوا ما هم فيه ، فأقبل رسول الله ﷺ حتى وقف عليهم فأخبروه

---

(١) متفق عليه بلفظ « أتانى جبريل فبشرنى » وفى رواية لهما « أتانى آت من ربى » .

(٢) قال العراقى : رواه أحمد بإسناد صحيح .

(٣) قال العراقى : رواه مسلم من حديث أبى موسى نحوه ، قلت : وأخرجه الإمام أحمد فى المسند (٤١٠/٤) .

(٤) رواه مسلم « كتاب التوبة » باب « سعة رحمة الله تعالى على المؤمنين » .
وأخرجه الإمام أحمد فى المسند (٣٩٨/٤) .

الخبر فسر برحمتهم ثم بشرهم فقال : « أعجبتم من رحمة هذه لابنها ؟ قالوا : نعم ، قال صلى الله عليه وسلم : « فإن الله تبارك وتعالى أرحم بكم جميعاً من هذه بابنها »[1] فتفرّق المسلمون على أفضل السرور وأعظم البشارة .

فهذه الأحاديث وما أوردنا فى كتاب الرجاء يبشرنا بسعة رحمة الله تعالى ، فنرجو من الله تعالى أن لا يعاملنا بما نستحقه ويتفضل علينا بما هو أهله بمنه وسعة جوده ورحمته .

* * *

(١) أخرجه البخارى مختصراً فى كتاب الأدب باب رحمة الولد وتقبيله ومعانقته (٣٢/٧) ومسلم فى كتاب التوبة باب سعة رحمة الله تعالى وأنها تغلب غضبه (٧٠/١٧) مختصراً أيضاً .

الفهارس

فهرس مراجع التحقيق

١ ـ **إتحاف السادة المتقين** « بشرح إحياء علوم الدين » / للأستاذ / محمد الحسينى الزبيدى الشهير بمرتضى / دار الفكر .

٢ ـ **البداية والنهاية** / لعماد الدين أبى الفداء إسماعيل بن كثير القرشى الدمشقى / توفى ٧٧٤ هـ / دار الفكر العربى .

٣ ـ **تهذيب التهذيب** / لابن حجر العسقلانى / طبعة أولى / حيدر آباد / الهند (١٩٢٦م) / دار صادر / بيروت / ودار الفكر العربى .

٤ ـ **تنزيه الشريعة المرفوعة** « عن الأخ/بار الشنيعة الموضوعة » / لأبى الحسن على بن محمد الكنانى ـ ت ٩٦٣هـ / تحقيق / عبد الوهاب عبد اللطيف ، وعبد الله محمد الصديق .

طبعة أولى ١٩٨١م ـ دار الكتب .

٥ ـ **تاريخ بغداد** / للخطيب البغدادى المتوفى سنة ٤٦٣هـ / طبعة دار الكتاب العربى / بيروت .

٦ـ **تحفة الأحوذى «بشرح صحيح الترمذى»** / للحافظ المباركفورى.

٧ ـ **تفسير القرآن العظيم** / للحافظ إسماعيل بن كثير القرشى الدمشقى المتوفى سنة ٧٧٤هـ / طبعة دار إحياء التراث العربى (عيسى الحلبى) بمصر .

٨ ـ **الترغيب والترهيب** / للمنذرى (زكى الدين عبد العظيم بن عبد القوى) المتوفى سنة ٦٥٦هـ / مكتبة شباب الأزهر الشريف / ومصطفى الحلبى .

٩ ـ **تفسير عبد الرازق** / للإمام عبد الرازق بن همام الصنعانى / رسالة دكتواة / دراسة وتحقيق د. محمود محمد عبده موسى .

١٠ ـ **جامع البيان فى تفسير القرآن** / لأبى جعفر محمد بن جرير الطبرى المتوفى سنة ٣١٠هـ / طبعة دار المعرفة / بيروت / لبنان .

١١ ـ **حلية الأولياء** / للحافظ أبى نعيم الأصبهانى المتوفى سنة ٤٣٠هـ / (طبعة أولى ١٩٧٤م ، طبعة ثانية ١٣٨٧هـ) نشر دار الكتاب العربى / لبنان .

١٢ ـ **دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة** / لأبى بكر / أحمد الحسين البيهقى المتوفى سنة ٤٥٨هـ / توثيق وتخريج وتعليق الدكتور عبد المعطى قلعجى / نشر دار الكتب العلمية بيروت ، ودار الريان للتراث .

١٣ـ **الدر المنث//ور فى التفس/ير بالم/أثور** / للإم/ام ج/لال الدين عب/د الرحمن بن أبى بكر السيوطى المتوفى سنة ٩١١هـ / طبعة / دار الفكر / بيروت .

١٤ ـ **السراج المنير « شرح الجامع الصغير »** / للشيخ على بن أحمد ابن نور الدين محمد بن إبراهيم الشهير بالعزيزى / طبعة أولى بالمطبعة الشرفية بمصر ١٣٠٤هـ .

١٥ـ **سنن الترمذى « الجامع الصحيح »** / لأبى عيسى محمد بن عيسى بن سورة المتوفى سنة ٢٩٧هـ / تحقيق / إبراهيم عطوة عوض .

طبعة ثانية ١٣٩٥هـ ـ ١٩٧٢م بمطبعة مصطفى الحلبى بمصر .

١٦ ـ **سنن الدارقطنى** / للإمام على بن عمر الدارقطنى المتوفى سنة ٣٨٥هـ / طبعة عالم الكتب ببيروت ، طبعة الطباعة الفنية المتحدة بمصر .

١٧ ـ **سنن الدارمى** / للشيخ أبى محمد عبد الله بن عبد الرحمن الدارمى المتوفى سنة ٢٥٥هـ / تخريج وتحقيق وتصحيح / السيد عبد الله هاشم / طبعة شركة الطباعة المتحدة الفنية / القاهرة ١٣٨٦هـ ـ ١٩٦٦م .

١٨ ـ **سنن أبى داود** / لأبى داود / سليمان بن الأشعث السجستانى المتوفى سنة ٢٥٧هـ / تعليق / محمد محى الدين عبد الحميد / طبعة دار الكتب العلمية / بيروت / لبنان .

١٩ ـ **سنن ابن ماجه** / للعلامة : محمد بن يزيد أبى عبد الله بن ماجه القزوينى توفى سنة ٢٧٥هـ / تعليق الإمام : أبى الحسن محمد عبد الهادى الحنفى / الطبعة الثانية / دار الفكر / بيروت .

٢٠ ـ **سنن النسائى** / للحافظ أبى عبد الرحمن بن شعيب النسائى / طبعة مصطفى الحلبى / مصر .

٢١ ـ **شعب الإيمان** / للإمام البيهقى / طبعة الهند .

٢٢ ـ **صحيح البخارى** / لأبى عبد الله محمد بن إسماعيل المتوفى سنة ٢٥٦هـ / طبعة دار مطابع الشعب ، دار الفكر .

٢٣ ـ **صحيح ابن حبان** / طبعة دار الكتب العلمية / بيروت .

٢٤ ـ **صحيح مسلم بشرح النووى** / للإمام محى الدين يحيى بن شرف بن سرى النووى / طبعة المطبعة المصرية .

٢٥ ـ **الطبقات الكبرى** / لابن سعد/ طبعة دار التحرير / ١٣٨٨هـ .

٢٦ ـ **العلل المتناهية فى الأحاديث الواهية**/ لابن الجوزى / أبى الفرج عبد الرحمن بن على المتوفى سنة ٥٩٧هـ / ضبط وتقديم / الشيخ خليل السيسى / طبعة أولى ١٩٨٣م / دار الكتب العلمية / بيروت .

٢٧ ـ **فتح البارى « شرح صحيح البخارى »**/ للإمام أحمد بن على ابن حجر العسقلانى المتوفى سنة ٨٥٢ هـ / ترقيم / محمد فؤاد عبد الباقى تصحيح / عبد العزيز عبد الله بن باز / نشر دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع .

٢٨ ـ **فردوس الأخبار « بمأثور الخطاب المخرج على كتاب الشهاب»** للحافظ / شيرويه بن شهر دار بن شيرويه الديلمى / ومعه / (أ) تسويد القوس .. للحافظ حجر العسقلانى . (ب) ومسند الفردوس .. للديلمى / الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ / ١٩٨٧م / نشر دار الريان للتراث .

٢٩ ـ **فيض القدير « شرح الجامع الصغير »** / للعلامة / محمد

عبد الرؤوف المناوى / الطبعة الثانية / ١٣٩١هـ / ١٩٧٢م / نشر دار المعرفة للطباعة والنشر / لبنان .

٣٠ ـ **كتاب السنة** / للحافظ أبى بكر عمرو بن أبى عاصم الضحاك ابن مخلد الشيبانى المتوفى سنة ٢٨٧هـ ومعه كتاب / « ظلال الجنة .. فى تخريج السنة » لمحمد ناصر الألبانى / طبعة أولى / ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م / نشر المكتب الإسلامى / بيروت .

٣١ ـ **كشف الخفا ومزيل الإلباس « عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس »** / للشيخ إسماعيل بن محمد العجلونى / نشر مكتبة دار التراث / مصر .

٣٢ ـ **كنز العمال .. فى سنن الأقوال والأفعال** / للعلامة علاء الدين على المتقى بن حسام الدين الهندى / توفى سنة ٩٧٥هـ / طبعة مكتبة التراث الإسلامى / حلب .

٣٣ ـ **اللآلى المصنوعة .. فى الأحاديث الموضوعة** / للإمام جلال الدين عبد الرحمن السيوطى المتوفى سنة ٩١١هـ / نشر دار المعرفة / بيروت ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م .

٣٤ ـ **لسان العرب** / لابن منظور / نشر الدار المصرية للتأليف والترجمة .

٣٥ ـ **مجمع الزولد ومنبع الفوائد** / للحافظ نور الدين على بن أبى بكر الهيثمى / طبعة مكتبة القدسى / القاهرة .

٣٦ ـ **المستدرك على الصحيحين فى الحديث** / للإمام أبى عبد الله محمد النيسابورى .. المعروف بـ « الحاكم » / وفى ذيله / تلخيص المستدرك .. للإمام / الذهبى / الناشر مكتبة ومطابع النصر الحديثة / الرياض.

٣٧ ـ **المسند** / للإمام أحمد بن حنبل / الطبعة الثانية ١٣٩٨هـ /

١٩٧٨م / مطبعة المكتب الإسلامى / بيروت / نشر دار الفكر .

٣٨ ـ **مسند أبى بكر الصديق « رضى الله عنه »** / للحافظ أبى الفضل جلال الدين عبد الرحمن السيوطى / توفى ٩١١هـ / حققه وكتب حواشيه / عبد الله بن محمد بن الصديق العمارى / نشر مكتبة ومطبعة النهظة الحديثة / بمكة المكرمة / طبع / عمرو الحلبى / مصر .

٣٩ ـ **مصنف ابن أبى شيبة** / طبع الدار السلفية / الهند .

٤٠ ـ **المعجم الأوسط** / للحافظ أبى القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب اللخمى الطبرانى / توفى سنة ٣٦٠هـ .

٤١ ـ **المعجم الصغير** / للحافظ الطبرانى / توفى سنة ٣٦٠هـ / طبعة دار الفكر / ومطبعة المطبعة السلفية بمصر ١٤٠١هـ / ١٩٨١م .

٤٢ ـ **المعجم الكبير** / للطبرانى / توفى سنة ٣٦٠هـ .

٤٣ ـ **الموضوعات** / للإمام أبى الفرج عبد الرحمن بن على بن الجوزى / تحقيق عبد الرحمن محمد عثمان / نشر المكتبة السلفية / بالمدينة المنورة .

* * *

فهرس كتب المؤلف

١ ـ **الاستقامة « فلاح فى الدنيا ونجاة فى الآخرة »** / سلسلة [نحو جيل مسلم] دار التوزيع والنشر الإسلامية .

٢ ـ **البداية فى التفسير الموضوعى** / طبعة ٤ .

٣ ـ **تدوين القرآن الكريم** .

٤ ـ **جراحة التجميل بين التشريع الإسلامى والواقع المعاصر** / سلسلة [نحو جيل مسلم] / دار التوزيع والنشر الإسلامية .

٥ ـ **حرب الخليج فى ميزان الإسلام « أسباب وأحكام »** طبعة ٢ / دار التوزيع والنشر الإسلامية .

٦ ـ **الخلافات الزوجية « صورها ـ أسبابها ـ علاجها من القرآن الكريم »** / دار مصر العربية للطباعة والنشر والتوزيع .

٧ ـ **رسم المصحف بين المؤيدين والمعارضين** .

٨ ـ ١٠ ـ **زاد الدعاة من هدى القرآن الكريم** « ثلاثة أجزاء » .

١١ ـ **زينة المرأة بين التشريع الإسلامى والواقع الإنسانى** .

١٢ ـ **صحوة فى عالم المرأة « رد على د. زكى نجيب محمود »** / مكتبة التراث الإسلامى .

١٣ ـ **الصربيون .. خنازير أوربا « تاريخ ومذابح المسلمين فى البوسنة والهرسك »** / دار الاعتصام / صدرت له ترجمة إلى اللغة «الألبانية» .

١٤ ـ **صناعة السلام فى الإسلام** .

١٥ـ **قصص الأنبياء** / للإمام ابن كثير / توفى ٧٧٤هـ « تحقيق » دار الطباعة والنشر الإسلامية .

١٦ ـ **قصة النقط والشكل فى المصحف الشريف** / دار النهضة العربية .

١٧ ـ **كتابة القرآن الكريم بالرسم الإملائى أو الحروف اللاتينية «اقترحان مرفوضان»** سلسلة [نحو النور] / دار التوزيع والنشر الإسلامية

١٨ ـ **ليلة القدر فى الكتاب والسنة** / سلسلة [نحو جيل مسلم] / دار التوزيع والنشر الإسلامية .

١٩ ـ **مقدمة فى التفسير الموضوعى** .

٢٠ـ **المسلمون بين الأزمة والنهضة** / دار التوزيع والنشر الإسلامية .

٢١ ـ **منجد المقرئين ومرشد الطالبين** / للإمام ابن الجرزى / توفى ٨٣٣ هـ « تحقيق » مكتبة جمهورية مصر .

٢٢ ـ **موسوعة التفسير الموضوعى** / ج ١ / دار الطباعة والنشر الإسلامية .

٢٣ ـ **الموت فى الفكر الإسلامى** / دار الاعتصام .

٢٤ ـ **وصايا سورة الإسراء** .

* * *

فهرس الكتاب

الموضـــوع | الصفحة

الموضـــوع الصفحة

الموضـــوع | الصفحة

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ١١٢٢٥ / ١٩٩٨

دار النصر للطباعة الإسلامية
٢ - شارع نشاطي شبرا القاهرة
الرقم البريدي ـــ ١١٢٣١